روايـة

مكتبة

فيليب روث

النِّقمة

Biggest Thrill Came

It's Anti-C... Dr. Salk

He Was Confident of ...

After Blood Check in 1952

POLIO IS CONQUERED





النِّقمة

عام الوباء



اسم المؤلف: فيليب روث

Author: **Philip Roth**

عنوان الكتاب: النِّقمة – عام الوباء

Title: **Nemesis**

ترجمة: أسامة منزلجي

Translated by: **Osama Menzlchi**

الناشر: دار المدى

P.C.: **Al-Mada**

الطبعة الأولى: **2021**

First Edition: **2021**



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

+964 (0) 770 2799 999 — +964 (0) 780 808 0800 — +964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut. Behamoun - Schools Street

+961 175 2617 — +961 706 15017 — +961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus. Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+963 11 232 2276 — +963 11 232 2275 — +963 11 232 2289

ص.ب: 8272



فيليب روث

النِّقمة

عام الوباء

ترجمة: أسامة منزلجي




تليجرام
مكتبة
غواص
في بحر الكتب


تليجرام
مكتبة
هنا
سور
الأزبكية

فيليب روث

وُلِدَ فيليب روث في نيوارك، نيو جرسي، في عام **1933**. تلقّى تعليمه في جامعة بكْنِلْ وجامعة شيكاغو. منذ عام **1972** وهو يُقيم في كونكتيكت.

في عام **1997** فاز فيليب روث بجائزة بوليتزر عن رواية «حكاية *رعوية أميركية*». وفي عام **1998** تلقّى الوسام الوطني للفنون في البيت الأبيض، وفي عام **2000** حصل على أعلى جائزة من الأكاديمية الأميركية للفنون والآداب، وسام القصة الذهبي، الذي كان قد حصل عليه قبله جون دوس باسوس، ووليم فوكنر، وشاؤول بيلو، وغيرهم. وقد نال مرتين جائزة الكتاب الوطني، جائزة بن/ فوكنر، وجائزة نقاد الكتاب الوطني. وفي عام **2005** حاز عن رواية «*التآمر على أميركا*» جائزة جمعية المؤرّخين الأميركيين عن «الرواية التاريخية الرائعة حول موضوع أميركي لموسم **2003- 2004**». رواياته الأخيرة: «*إنسان عادي*»، «*السخط*»، «*الانهزام*»، أما آخر رواية صدرت له فهي «*النِقمة*» عام 2010. توفي عام 2018.




جروب باحثون
غواص في بحر الكتب



-1-

نيوارك الاستوائيّة

ظهرت أول حالة إصابة بشلل الأطفال في صيف ذلك العام باكراً في أوائل شهر حزيران، بعد حلول يوم الذكرى، في حيٍّ إيطاليٍّ فقير يقع على الطرف المقابل من البلدة حيث كنا نعيش. في الزاوية الجنوبيّة الغربيّة من المدينة، في القِطاع اليهوديّ المنفصل، لم نسمع أيّ شيء عنها، ولم نسمع أيّ شيء عن الإصابات العديدة المنفردة التي ظهرت في أرجاء نيوارك في كل الأحياء تقريباً ما عدا حيّنا. ولكن بحلول الرابع من شهر تموز، عندما سُجِّلَتْ أربعون حالة إصابة في المدينة، ظهرتْ مقالة على الصفحة الرئيسة من صحيفة المساء، تحت عنوان «وزير الصحّة يُحذِّر الآباء من مرض شلل الأطفال»، وفيها وردَ أنَّ الدكتور وليم كيتل، مدير الهيئة الطبّية، يُحذِّر الآباء بوجوب مراقبة أطفالهم وبالاتصال بالطبيب إذا ما ظهرت على أطفالهم أعراض الصداع، التهاب الحلق، الغثيان، تيبُّس العنق، آلام المفاصل، أو الحمّى. وعلى الرغم من أنَّ الدكتور كيتل اعترفَ بأنّ أربعين حالة إصابة بشلل الأطفال هي أكثر من ضعف ما يُبلَّغ عنه في المعتاد في مثل هذه الفترة المبكّرة من موسم مرض شلل الأطفال، فإنه أراد أنْ يكون مفهوماً بكل وضوح أنَّ المدينة التي تعداد سكّانها 429,000 نسمة لا تعاني البتّة ممّا يمكن وصفه بوباء شلل الأطفال. وفي هذا الصيف كما في كل صيف، هناك سبب للقلق ولاتخاذ الاحتياطات الصحيّة المناسبة، ولكن حتى الآن لم يحدث ما يستدعي انتشار ما يُشبه

الفزع الذي أبداه الآباء، «وبصورة مُبرَّرة جداً»، قبل ذلك بثمانية وعشرين عاماً، خلال أعظم تفشٍّ للمرض سُجِّلَ قاطبة - وباء شلل الأطفال في عام 1916 في الجزء الشمال الشرقي من الولايات المتحدة، حيث سُجِّلَتْ أكثر من 27,000 حالة إصابة، و6,000 حالة وفاة. وفي نيوارك سُجِّلَتْ 1,360 إصابة و363 حالة وفاة.

والآن، حتى في عام سُجِّلَ فيه رقم عاديّ من الحالات، وخُفِّضَتْ فُرَص العدوى بشلل الأطفال كثيراً عمّا كانت عليه في عام 1916، فإنَّ مَرَضاً شالّاً يترك الصغار عاجزين ومُشوّهين أو غير قادرين على التنفُّس من دون أنبوبة جهاز تنفُّس معدنيّة تُعرَف باسم الرئة الحديديّة - أو يمكن أنْ ينتقل من شلل عضلات الجهاز التنفُّسي إلى الموت - سبَّبَ للآباء في حيِّنا خوفاً هائلاً وعكَّرَ صفو الأطفال الذين تحرَّروا من المدرسة خلال أشهر الصيف وبات في استطاعتهم أنْ يلعبوا خارج المنزل طوال النهار وحتى الأمسيات التي تصبغها حُمرة الشفق. وكان القلق من العواقب الرهيبة للإصابة الخطيرة بالمرض مقروناً بحقيقة عدم وجود عقار للمعالجة أو لقاح لتوليد المناعة. كان يمكن لشلل الأطفال - كما كان يُسمّى عندما ساد الظنّ أنّه يُصيب فقط الأطفال الصِغار - أنْ يُصيب أي شخص، من دون معرفة سبب واضح. وعلى الرغم من أنَّ الأطفال حتى سن السادسة عشرة كانوا في المعتاد هم الذين يُعانون منه، فإنّ البالغين أيضاً كان يمكن أنْ يُصابوا به إصابة شديدة، كما حدث مع الرئيس الحالي للولايات المتحدة الأميركيّة.

كان فرانكلين ديلانو روزفلت، أشهر ضحايا شلل الأطفال، قد أُصيبَ بعدوى المرض وهو رجل بكامل حيويّته في التاسعة والثلاثين من العمر، ونتيجة لذلك أصبح من الضروريّ دعمه في أثناء المشي، وحتى حينئذٍ، توجّبَ عليه أنْ يضع مشابك ثقيلة من الفولاذ والجلد تمتد من الوركين وحتى القدَمَين ليتمكّن من الوقوف. وقد قامت المؤسّسة الخيريّة التي كان فرانكلين ديلانو روزفلت قد أسّسها في أثناء وجوده في البيت

الأبيض، «مؤسسة مسيرة القروش»، بجمع المال من أجل إجراء البحث ومن أجل تقديم المُساعدة الماليّة لعائلات المُصابين؛ على الرغم من أنَّ الشفاء الجزئيّ أو حتى الكلّي كان أمراً ممكناً، وغالباً ما كان يحدث ذلك بعد مرور أشهر أو أعوام من المُعالجة المُكلِفة في المستشفى ومن إعادة التأهيل. وخلال حملة التمويل السنويّة، تبرّع صِغار أمريكا بقروشهم في المدرسة للمساعدة في مكافحة المرض، كانوا يُسقِطون قروشهم في صناديق التبرُّع التي يُمررها عليهم العاملون في دور السينما، وكانت لافتات «**أنتَ، أيضاً، تستطيع أنْ تُساعد!**» و«**ساعدنا على مكافحة شلل الأطفال!**»، تظهر على جدران المتاجر والمكاتب وفي أروقة المدارس في طول البلاد وعرضها، ومُلصقات تبيِّن أطفالاً على كراسِيَّ متحرّكة - فتاة صغيرة جميلة تضع مشبكاً للساق وتمصّ إصبعها في حياء، وصبياً صغيراً أنيقاً يضع مشابك للساقين ويبتسم بتفاؤل مُفعم بالأمل - مُلصقات تجعل من احتمال الإصابة بالمرض يبدو واقعاً مُخيفاً أكثر للأطفال الآخرين الأصحّاء.

كانت فصول الصيف شديدة الحرارة في نيوارك المنخفضة، ولأنَّ المدينة كانت جزئيّاً مُحاطة بأراضٍ رطبة شاسعة - ومصدراً رئيساً لمرض الملاريا عندما كان في الماضي، أيضاً، مرضاً لا دواء له - كانت تتجمَّع حشودٌ من البعوض يجب ضربها وطردها كلما جلسنا على كراسي شاطئ في الأزقة وممرات السيارات ليلاً، سعياً وراء ملاذ خارج شُققنا الشديدة الحرّ، حيث لا شيء غير الدش البارد والماء المُثلَّج لتلطيف الحرّ اللاهب. كان ذلك قبل اختراع مُكيّفات الهواء المنزليّة، عندما كانت مروحة كهربائيّة سوداء صغيرة توضَع على طاولة لتحرِّك الهواء داخل المنازل، وتمنح القليل من الارتياح حالما تصل درجة الحرارة إلى ذروتها، كما حصل مرات عديدة خلال صيف ذلك العام طوال أسبوع كامل أو عشرة أيام. وخارج المنازل كان الناس يُضيئون شموعاً مُعطَّرة ومرشوشة بمُبيد للحشرات للقضاء على البعوض والذباب المعروف بأنّه ينقل مرض

الملاريا، والحمّى الصفراء، وحمّى التيفوئيد. وكان الكثيرون، بدءاً بعمدة نيوارك، دراموند، الذي أطلقَ حملة في أرجاء المدينة كلّها «للقضاء على الذباب»، يعتقدون أنّها تنقل مرض شلل الأطفال. وعندما تتمكّن ذبابة أو بعوضة من اختراق ستائر شقّة عائلةٍ ما أو الدخول من باب مفتوح، كانت تُطارَد بعناد بأداة ضاربة للذباب وبمبيد حشريّ خوفاً من أنْ تحطّ بقوائمها المُحمّلة بالجراثيم على أحد أطفال أصحاب المنزل النائمين وتُعديهم بمرض شلل الأطفال. ولما لم يكن أحد حينئذٍ يعرف مصدر العدوى، كان ممكناً أنْ ينتابهم الشك في كل شيء تقريباً، بما في ذلك قطط الأزقة النحيلة التي تُغير على حاويات القمامة في فنائنا الخلفي والكلاب الضالة الهزيلة التي تتسلل من فرط جوعها حول المنازل وتتبرّز في كل أنحاء الرصيف والشارع، والحَمَام الذي يهدل في قِباب المنازل ويُلوِّث ببرازه الطباشيريّ الشرفات الأماميّة. وخلال الشهر الأول من انتشار الوباء – قبل أنْ تقرّ الهيئة الصحيّة بأنّه وباء – بدأت إدارة الصحّة حملة مُنظَّمة للقضاء على الأعداد الهائلة في المدينة من قطط الأزقّة، على الرغم من أنَّ لا أحد كان يعلم إنْ كانت لها أيّة صِلة بمرض شلل الأطفال أكثر من القطط المنزليّة الأليفة.

أما ما كان الناس يعلمونه فهو أنَّ المرضَ مُعدٍ إلى أقصى درجة من الخطورة ويمكن أنْ ينتقل إلى الأصحّاء بمجرد الاقتراب الجسديّ من المُصابين أصلاً. ولهذا السبب، ومع ارتفاع عدد الإصابات بانتظام في المدينة – والخوف العام المُرافِق له – وجد الأطفال في حيِّنا أنفسهم محرومين بأمرٍ من أوليائهم من استخدام بركة السباحة الكبيرة العامة في المتنزَّه الأولمبيّ في حي إرفنغتون المُجاور، ومحرومين من ارتياد دور السينما «المُكيَّفة الهواء»، ومحرومين من ركوب الحافلة داخل المدينة للانتقال من داون نك وحتى جادة نيوارك لكي يُشاهدوا فريقنا الرياضي الصغير، نيوارك بيرز، وهو يلعب مباراة في البيسبول في ملعب روبرت. وتلقّينا التحذير من استخدام المراحيض العامة أو الشرب من النوافير

العامة أو من تناول جرعة من زجاجة صودا فوّارة تخصّ شخصاً آخر أو من مُرافقة أشخاصٍ غرباء أو اللعب معهم أو من استعارة كتب من مكتبة عموميّة أو من التحدّث من هاتف عمومي أو من شراء طعام من بائع يتجول في الشوارع أو من تناول الطعام إلّا بعد تنظيف أيدينا بالكامل بالماء والصابون. كان علينا أنْ نغسل الفاكهة كلها والخضروات قبل أنْ نأكلها، وأنْ ننأى بأنفسنا عن كل مَنْ يبدو عليه المرض أو يشتكي من أي عَرَض من أعراض شلل الأطفال الدالة عليه.

كان الهرب من حرّ المدينة بشكل كامل وإرسالنا إلى معسكر صيفيّ في الجبال أو الريف يُعتبَر أفضل حماية للطفل من العدوى بشلل الأطفال، كذلك كان قضاء فصل الصيف على بعد مسافة ستين ميلاً على شاطئ جيرزي. والعائلة التي في وسعها تحمُّل نفقات ذلك كانت تستأجر غرفة نوم مع مزايا استخدام المطبخ في نُزُلٍ في برادلي بيتش، وهو شريط من الرمال، ورصيف خشبيّ، وأكواخ على طول ميل كانَ معروفاً أصلاً بين يهود شمال نيو جيرزي. هناك كانت الأم تذهب مع أطفالها إلى الشاطئ لكي يستنشقوا هواءً منعشاً، من هواء المُحيط المُقوّي طوال أسبوع ومن ثم ينضمّ الأب إليهم في عُطل نهاية الأسبوع وفي الإجازات. وطبعاً، كان معروفاً أنَّ حالات الإصابة بشلل الأطفال تظهر في المعسكرات الصيفيّة كما تظهر في المدن الساحليّة، ولكنْ لأنها كانت أقلّ بكثير من الحالات العديدة التي سُجِّلَتْ في نيوارك، ساد الاعتقاد بأنّ الاستقرار على مرمى نظر أو سمع البحر أو بعيداً في الريف أو في أعالي الجبال يوفِّرُ أكبر ضمان لتفادي المرض، في حين أنَّ المناطق المُحيطة بالمدينة، بأرصفتها القذرة وهوائها الراكد، تسهّل انتشار العدوى.

وهكذا اختفى المحظوظون من الأثرياء من المدينة خلال فصل الصيف بينما لازمها ما تبقّى منا لكي نقوم بالضبط بما لا ينبغي أنْ نقوم به، إذا أخذنا بعين الاعتبار أنّه كان يسود الشكُّ في أنَّ «فرط الإجهاد» هو سببٌ آخر من الأسباب المُحتَمَلة للإصابة بشلل الأطفال: كنا نلعب مباراة

بعد أخرى بالسوفتبول على أرض الأسفلت الحارّة في فناء المدرسة، ونركض طوال النهار في الحرارة القُصوى، ونشرب بظمأ من مياه النافورة المُحرَّمة، ونجلس بين المباريات على مقعد متزاحمين معاً، ونحن نقبض في حجرنا على القفّازات القذرة والمتهرِّئة التي استخدمناها في الملعب في مسح العرق عن جباهنا ولمنعه من دخول عيوننا - نهرِّج ونحن لا نزال نرتدي قمصاننا الرياضيّة المُشبّعة بالعَرَق وننتعل أحذيتنا الرياضيّة الكريهة الرائحة، غافلين عن أنَّ طيشنا قد يؤدي بأيٍ منا إلى الحجز مدى الحياة داخل رئة من حديد وإلى إدراك أفظع مخاوف الجسد.

لم تكن تظهر في الملعب إلّا حفنة من الفتيات، وكنَّ في معظمهن من الأطفال بسن الثامنة أو التاسعة ويمكن مُشاهدتهن في المعتاد يلعبن نط الحبل في موقعٍ من الملعب المركزيّ القصيّ ينحدر نحو شارع المدرسة الضيِّق المُغلَق في وجه حركة المرور. وعندما لا تلعب الفتيات نط الحبل كنَّ يستخدمن الشارع للعب الحجلة والركض بين القواعد أو لعبة تلقُّف الحصى أو ضرب كرة من المطاط القرمزيّ بمرح عند أقدامهنّ طوال النهار. وأحياناً عندما يلعبن نطّ الحبل يفعلن ذلك بحبلَين يحرّكنهما في اتجاهَين متعاكسَين، ويندفع أحد الصِبية ناطّاً من دون دعوة ويقفُ جنباً إلى جنب مع فتياتٍ يوشكنَ على النطّ، فيقفز ويبدأ ساخراً بغناء أغنية القفز المُفضّلة عند الفتيات ويقوم عن عمد بالانخراط في القفز بين الحبلَين. «ف، اسمي فرس البحر-!»، وتجأر الفتيات في وجهه «توقف! توقف!»، ويصحن طالبات المساعدة من مدير الملعب، الذي كان يكفي أنْ يصيح من حيثُ يكون في الملعب على الصبي المُشاغب (في مُعظم الأوقات يكون هو الصبي نفسه)، «كفى، يا مايرون! دع الفتيات وشأنهن وإلا عدتَ إلى منزلك!» وبهذا، يخمد الهرج. وسرعان ما يعود حبلا القفز من جديد إلى الدوران في الهواء ويعود الغناء من جديد مع كل قفزة:

ألف، اسمي أغنس

واسم زوجي ألفونس،

جئنا من ألاباما
وجلبنا معنا تفاحاً!
باء، اسمي بيف
واسم زوجي بيل،
جئنا من برمودا
وجلبنا معنا الشمندر!
سين، اسمي هو...

وتقوم الفتيات، المتمركزات عند الطرف القصيّ من الملعب ويرتجلنَ الأحرف الأبجديّة من الألف إلى الياء جيئة وذهاباً، بأصواتهن الطفوليّة، بابتكار أسماء متجانسة في نهاية كل بيت شِعر، وأحياناً بشكل مُنافٍ للعقل، مع كل مرّة. وكنَّ، وهنّ يقفزن ويندفعنَ في المكان في إثارة – إلا عندما يتدخّل مايرون كوبفرمان وأمثاله كالقردة – يُبدين طاقة هائلة؛ وما لم يستدعهنّ مدير الملعب للعودة إلى ظل المدرسة بسبب ارتفاع درجة الحرارة، فإنهنّ لا يخلين الشارع بدءاً بيوم الجمعة من شهر حزيران مع انتهاء دورة الربيع الدراسيّة وحتى يوم الثلاثاء الذي يلي عيد العمّال عندما تبدأ دورة الخريف ويتمكّنَّ من نط الحبل فقط بعد انتهاء دوام المدرسة وفي فترة الاستراحة.

في ذلك العام كان مدير الملعب هو بَكي كانتور، أحد الشبّان القلائل الذين لم يذهبوا للقتال في الحرب، بسبب ضعف بصره الذي اضطرَّه إلى ارتداء نظارات بعدسات سميكة. وخلال العام الدراسي السابق، أصبحَ السيد كانتور الأستاذ الجديد لمادة التربية البدنيّة في مدرسة جادة تشانسلر، وهكذا كان يعرف مُسبقاً العديد منا ممَّن كانوا يشغلون الملعب من دروس الرياضة التي كان يُعلِّمها. وفي صيف ذلك العام كان في الثالثة والعشرين، خريج مدرسة ساوث سايد الثانويّة في نيوارك، بأجناسها

ودياناتها المُختَلَطة، وكليّة بانتزر للتربية البدنيّة والنظام الصحّي في إيست أورانج. كان طول قامته يقلّ قليلاً عن خمسة أقدام وخمس بوصات، وكأنه كان رياضياً متفوقاً ومُنافِساً قويّاً، منعه طول قامته، مقروناً بضعف بصره، من لعب كرة القدم، والبيسبول، على مستوى الكليّة، وحصرَ نشاطه الرياضيّ بين الكلّيات على رمي الرمح ورفع الأثقال. وفوق ذلك كلّه كان جسمه المتين يتألّف من رأس بحجمٍ جيّد مُكوَّن من أجزاء مائلة ومنزلقة بحِدَّة: عِظام وجنتين عريضة وواضحة، وجبين منحدر بزاوية حادّة، وفكّ خشن، وأنف طويل ومُستقيم ذو جسر بارز يمنح مسقط وجهه الجانبيّ حِدّة صورة الوجه الجانبية المحفورة على قطعة نقد. وكانت شفتاه حسنتي التكوين كعضلاته، وبشرته كانت سمراء مائلة إلى الصفار على مدار العام. ومنذ عهد المراهقة وهو يقصّ شَعرَه على الطريقة العسكريّة. وبتلك القَصَّة كنتَ ترى بشكلٍ واضح أُذنيه، ليس لأنهما كانتا كبيرتين بشكلٍ مفرط، وهذا غير صحيح، وليس بالضرورة لأنهما شديدتا الالتصاق برأسه، بل لأنهما كانتا، من الجانب، أقرب شَبَهاً بآس البستوني في ورق اللعب، أو بالأجنحة على قَدَمين مجنّحتين في الأساطير، مع ذوائب ليست مُشذّبة، كحال مُعظم الآذان، لكنّها مُدبَّبة تقريباً. وقبل أنْ يُلقّبه جدُّه باسم بَكي، كان يُعرَف اختصاراً بـ «إيس» بين أصحاب طفولته في الشارع، وهو لقب لم يوحِ به فقط تفوّقه المُبكّر في الألعاب الرياضيّة بل الشكل الغريب لتينك الأذنين.

في العموم، كان توزُّع الأسطح المائلة لوجهه يُضفي على العينين الرماديتين بلون الدخان من خلف نظارته - عينان طويلتان وضيّقتان كعينيّ شخص آسيويّ - مظهر جيبين عميقين، وكأنهما ليستا موضوعتين داخل الجمجمة بل محفورتَين داخلها. وكان الصوت يخرج من هذا الوجه المرسوم بدقّة، بصورة غير متوقّعة، عالي النبرة، لكنَّ هذا لم يُلغِ قوة مظهره. لقد كان وجهه وجهاً جسوراً بصورة مُذهلة لشابٍ صلبٍ يمكن الاعتماد عليه، قُدَّ من حديد، ومُقاوم للتآكُل.

بعد ظهيرة أحد أيام أوائل شهر تموز، وصلتْ سيارتان مُحمّلتان بالإيطاليين من إيست سايد هاي، بشبّان تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة، وتوقفتْ عند أعلى نقطة من الشارع السكنيّ الكائن خلف المدرسة، حيث أرض الملعب. وكان الإيست سايد يقع في قِطاع أيرونْباوند، الحي الصناعيّ القذر الذي سُجِّلَتْ فيه معظم حالات الإصابة بشلل الأطفال في المدينة حتى ذلك الحين. وحالما شاهدهم السيد كانتور يتوقفون، ترك قفّازه على أرض الملعب - كان يلعب على القاعدة الثالثة في إحدى مبارياتنا الارتجاليّة - وهرول إلى حيث ترجّلَ عشرةٌ من الغرباء من السيارتين. وكان أسلوبه الرياضيّ في الهرولة، الشبيه بخطوة الحمام، محط مُحاكاة أطفال الملعب، وكذلك أسلوبه ذو العزم في رفع نفسه بخِفّة وهو يتحرَّك على الحواف المستديرة لقدميه، والترنُّح الخفيف، عندما يمشي، لكتفيه الضخمتين. وكان بعض الصِبية يتبنّون حركاته كلها على أرض الملعب وخارجها.

قال السيد كانتور «ماذا تريدون من هذا المكان يا شباب؟»

أجاب أحد الإيطاليين «نحن ننشر شلل الأطفال». كان الشاب هو أوّل المترجّلين وهو يترنّح من السيارتين. قال، ملتفتاً نحو جماعته ليحظى بدعمها، تلك الجماعة التي بدت في الحال للسيد كانتور شديدة التوق للتشاجُر، «أليس هذا صحيحاً؟»

قال له السيد كانتور «تبدون كأنكم تريدون نشر المشكلات. لِمَ لا تبتعدون عن هذا المكان؟»

أصرَّ الإيطاليّ «كلا، كلا، ليس قبل أنْ ننشر بعضاً من شلل الأطفال. نحن لدينا منه وأنتم ليس لديكم، لذلك رأينا أنْ نأتي وننشر القليل منه في المكان». وكان بينما يتكلَّم، يتأرجح إلى الخلف وإلى الأمام على عقبيه ليدلّ على مدى قوّته. والسهولة الوقحة التي أقحَمَ بها إبهامَيه داخل العُروتين الأماميتين من بنطلونه، عزَّزتْ بكل وضوح تحديقه لكي يُسجّل احتقاره.

قال السيد كانتور، مُشيراً خلف ظهره إلينا نحن الأطفال، «إنني مدير الملعب هنا، وأطلب منكم أنْ تغادروا منطقة الملعب. لا شأنَ لكم هنا وها أنا أطلب منكم بكل أدب أنْ ترحلوا. فماذا تقولون؟»

«منذ متى يوجد قانون ضد نشر مرض شلل الأطفال، يا سيد مدير الملعب؟»

«اسمع، إنَّ مرض شلل الأطفال ليس مزحة. وهناك قانون ضد تسبيب ضرر عام. ولا أُريد أنْ أُضطرَّ إلى استدعاء رجال الشرطة. ما رأيك في أنْ تغادروا من تلقاء أنفسكم، قبل أنْ أستدعي الشرطة لكي تطردكم من هنا؟»

بهذا، تقدَّم قائد العصابة، الذي كان بكل سهولة أطول قامة من السيد كانتور بمقدار نصف قَدَم، خطوة نحو الأمام وبصَقَ على الرصيف، فانتشرتْ كتلة من البُصاق المُخاطيّ عليه، على مسافة لا تزيد على بضع بوصات من طرف حذاء السيد كانتور الرياضيّ.

سأله السيد كانتور «ما معنى هذا؟». كان صوته لا يزال هادئاً، ومع ذراعيه المعقودَتين بإحكام على صدره، مثّل تجسيداً للرسوخ. لن يسمح لأوباش أيرنْباوند بالنيل منه أو بالاقتراب من لاعبيه.

«لقد أخبرتك بما أعني. نحن ننشر مرض شلل الأطفال. ولا نريد أنْ نستثني جماعتكم»

قال السيد كانتور «اسمع، لا تخاطبنا بـ(جماعة)»، وخطا خطوة سريعة وغاضبة إلى الأمام، وأصبح على مسافة بوصات قليلة من وجه الإيطاليّ. «سوف أمنحكَ عشر ثوان لكي تستدير وتأخذ معك الجميع»

ابتسم الإيطاليّ. في الحقيقة هو لم يكفّ عن الابتسام منذ أنْ ترجّلَ من السيارة. سأل «ثم ماذا؟»

«لقد أخبرتك. سوف أستدعي رجال الشرطة لإخراجكم من هنا»

هنا بصقَ الإيطالي من جديد، وهذه المرّة بجوار حذاء السيد كانتور الرياضيّ، فنادى السيد كانتور على الفتى الذي كان ينتظر ليبدأ المباراة

التالية والذي كان، مثلنا جميعاً، يُراقبُ بصمت السيد كانتور وهو يواجه بجسارة الإيطاليين العشرة. قال السيد كانتور «جيري، أسرعْ إلى غرفة مكتبي واتصل هاتفياً بالشرطة. أخبرهم بأنكَ تتصل بالنيابة عني. أخبرهم أنني في حاجة إليهم»

سأل الفتى الإيطاليّ متزعّم الجماعة «وماذا سيفعلون، سيحبسونني؟ سيضعونني في السجن لأنني بصَقتُ على رصيفك اليهوديّ النفيس؟ أتملك الرصيف أيضاً، يا ذا العيون الأربع؟»

لم يُجب السيد كانتور وبقيَ واقفاً بثبات بين الفتية الذين كانوا يلعبون الكرة على الملعب المُسفلَت خلفه وحمولة السيارتين من الفتية الإيطاليين، الواقفين في الشارع عند حافة أرض الملعب وكأنَّ كلاً منهم يوشك أنْ يرمي السيجارة التي يُدخّنها ويشهر فجأة سلاحاً. ولكن عندما عاد جيري من غرفة مكتب السيد كانتور الكائنة في الطابق التحتيّ – حيث قام، كما أُمِرَ، بالاتصال هاتفياً بالشرطة – كانت السيارتان مع راكبيهما المُهدِّدين قد رحلوا. وعندما وصلتْ سيارة دوريّة الشرطة بعد ذلك بدقائق قليلة، استطاع السيد كانتور أنْ يُعطي الشرطة أرقام لوحة رخصة السيارتين، التي كان قد حفِظها خلال فترة التوقّف عن اللعب. وبعد أنْ غادرت الشرطة بدأ الفتية خلف السياج يسخرون من الإيطاليين.

اتَّضحَ أنَّ هناك بقعة انتشرت على منطقة واسعة على الرصيف حيث كان الفتية الإيطاليون يتجمّعون، حوالي عشرين قدماً مُربّعة من البقعة الرطبة، اللزجة، المُثيرة للاشمئزاز التي بدا واضحاً أنّها تشكّلُ أساساً مثالياً لنشر المرض. وكان السيد كانتور قد دفعَ باثنين من الفتية للهبوط إلى طابق المدرسة التحتيّ من أجل إحضار دلوَين لملئهما بالماء الحارّ والنشادر من غرفة البوّاب ومن ثم إراقة الماء على امتداد الرصيف لتنظيف كل بوصة فيه. وقد ذكّرتْ إراقة الماء من الصبيّين لإزالة القذارة السيد كانتور كيف كان يُضطر إلى القيام بالتنظيف بعد قتل جرذ في خلفيّة محل بقاليّة جدّه وهو في العاشرة من العمر.

قال السيد كانتور للفتية «لا داعي للقلق. لن يعودوا»، ثم أضاف «هذه هي الحياة»، مُقتطفاً قولاً كان مُفضّلاً لدى جدّه، «هناك دائماً شيءٌ غريب يجري»، واستؤنِفَتِ المُباراة. وقد تأثّر الصِبية الذين يتفرّجون من الجانب المقابل للسياج المؤلَّف من سلاسل ويعلو بمقدار طابقَين ويُطوِّق أرض الملعب بطريقة السيد كانتور في تعامله مع الإيطاليين. بثقته في نفسه، وسلوكه الحازم، وقوته الجديرة برافع أثقال، وانضمامه في كل يوم وبحماس إلى لعب الكرة جنباً إلى جنب مع بقيّتنا - هذا كلّه جعل منه شخصيّة مُفضّلة عند المترددين المواظبين على أرض الملعب منذ أول وصوله وعمله كمُدير؛ ولكنَّه بعد حادثة الإيطاليين أصبح بطلاً حقيقيّاً، وأخاً أكبر محبوباً، وحامياً وبطوليّاً، خاصة بالنسبة إلى الذين ذهب إخوتهم الأكبر سناً منهم إلى الحرب.

في وقت لاحق من ذلك الأسبوع لم يحضر اثنان من الفتية الذين كانوا في الملعب عند مجيء الإيطاليين وغابا بضعة أيام عن لعب الكرة. في صباح اليوم الأول، استيقظ الاثنان وهما يُعانيان من الحمّى ومن تيبُّس الرقبة، وبحلول مساء اليوم الثاني - عندما أصبحا يشعران باطراد بضعفٍ شديد في أذرعهما وسيقانهما ويجدان صعوبة في التنفس - اضطرا إلى الإسراع بالانتقال إلى المستشفى بسيارة الإسعاف. وأحد الصبيِّين، واسمه هيربي شتاينمارك، كان في الصف الثامن، بديناً، وأخرقَ ومحبوباً، وبسبب عدم لياقته الرياضيّة كان يُعيَّن في المعتاد للَّعب في الميمنة ويكون آخر الضاربين، والآخر، واسمه ألان مايكلز، في الصف الثامن، كان من بين أفضل اثنين أو ثلاثة من الرياضيين في الملعب وكان قد أصبح أكثر قُرباً من السيد كانتور. وشكّلتْ إصابتا هيربي وألان أول حالتين من مرض شلل الأطفال في الحيّ. وفي غضون ثمان وأربعين ساعة أصبحتْ هناك إحدى عشرة حالة إضافية، وعلى الرغم من أنّه لم يكن بينها أولاد ممَّن كانوا في الملعب في ذلك اليوم، فإن إشاعة سَرَتْ في الحيّ مفادها أنَّ الإيطاليين هم الذين نقلوا العدوى إلى القِطاع اليهوديّ. وبما أنّه حتى ذلك

الحين سجّلَ حيُّهم غالبيّة حالات شلل الأطفال في المدينة ولم تُسجَّل أيّة حالة في حيّنا، ساد اعتقادٌ، صحيح حسب قولهم، بأنَّ الإيطاليين اجتاحوا البلدة في ذلك اليوم وفي نيّتهم بثّ عدوى شلل الأطفال بين اليهود وأنهم نجحوا في ذلك.

كانت والدة بَكي كانتور قد توفيتْ أثناء الإنجاب، وتولى تربيته جدّاه لأمّه في منزلٍ تسكنه اثنتا عشرة عائلة في شارع باركلي قبالة جادة آفون السُفلى، في أحد أفقر القِطاعات في المدينة. وكان والده، الذي ورِثَ عنه ضعفَ بصره، يعمل مُحاسِباً لمصلحة متجرٍ تنويعيّ في وسط المدينة ولديه ولع متطرِّف بالمُراهنة على الجياد. وبُعيد وفاة زوجته ومولد طفله وُجِّهَتْ إليه تهمة اللصوصيّة لسرقته مُستخدِمَهُ لكي يُسدِّد ديونه في لعب القِمار – واتَّضَحَ أنّه كان يسرقه منذ أول يوم عمل له. وأمضى عامَين في السجن، وبعد إطلاق سراحه، لم يعُد إلى نيوارك قط. وبدل أنْ يكون للفتى أب، تلقّى الصبي – وكان اسمه يوجين – إرشاداته في الحياة من الجد الكادح، ضخم الجثّة، الشبيه بالدب، الذي كان الصبيّ يعمل في متجر بقالة له في جادة آفون بعد انتهاء دوامه في المدرسة وفي أيام السبت. وعندما تزوج والده للمرة الثانية كان هو في الخامسة من عمره ولجأ إلى مُحامٍ لكي يستعيد الصبي ويعيش معه ومع زوجته الجديدة في بيرث أمبوي حيث كان يعمل في حوض لترميم السفن. وبدل أنْ يذهب الجَد ليستعين بمحاميه الخاص، توجّه مباشرة إلى بيرث أمبوي، حيث جرتْ مواجهة قيل إنّه هدَّدَ خلالها بأنّه سوف يكسِر عنق مَنْ كان ذات يوم صهراً له إذا ما تجرَّأ وحاول بأيّة وسيلة أنْ يتدخّل في حياة يوجين. وبعد ذلك، لم يسمع أحد شيئاً عن والد يوجين.

وجرّاء حمل أقفاص المنتجات في أنحاء متجر جدّه بدأ يُنمّي عضلات صدره وساعديه، ومن ارتقاء وهبوط الدرَج ركضاً إلى شقّتهما مراتٍ عديدة في اليوم بدأ يُنمّي عضلات ساقيه. ومن جسارة جدِّه تعلّم كيف

يواجه أيّة عقبة، بما فيها كونه وُلِدَ ابناً لرجلٍ ظلّ جَدُّه يصِفه له طوال حياته بأنّه «شخصٌ مشبوه». وعندما كان صغيراً أراد أنْ يُصبح ذا قوّة جسديّة، كجدّه، وألّا يضع نظارات سميكة. لكنَّ عينيه كانتا ضعيفتين إلى درجة أنّه عندما يخلع النظارات ليلاً استعداداً للنوم لا يكاد يستطيع أنْ يُميِّز شكل قِطع الأثاث القليلة التي في غرفته. وقد علَّمَهُ جدَّه، الذي لم يأبه قط لما فيه من عيوب، الطفل التعس - عندما وضع النظارات للمرة الأولى وهو في سن الثامنة - أنَّ عينيه أصبحتا الآن جيدتين كعينيّ أي شخص آخر. وبعد ذلك، لم يتبقَّ ما يمكن أنْ يُقال حول هذا الموضوع.

كانت جدَّته امرأة ضئيلة الحجم رقيقة القلب، ودوداً، وطيبة، وبدتِ النقيض المقابل من حيث الوزن لجدِّه. تحتملُ المشقّة بشجاعة، لكنّها تنفجر بالبكاء كلما جاء ذِكر ابنتها البالغة عشرين عاماً من العمر وماتت في أثناء الإنجاب. كان زبائن المتجر يُحبّونها حبّاً جمّاً، وفي المنزل، حيث لا تكفّ يداها عن العمل، تتابع مُسلسل «*يمكن للحياة أنْ تكون جميلة*» بالإضافة إلى مسلسلات أخرى تحبّها بلا حماس حيث دائماً المُستمع يرتعد، ودائماً يُصبح عصبيّاً، ترقُّباً لوقوع المُصيبة التالية. وخلال الساعات القليلة في النهار عندما لا تمدّ يد المساعدة في المتجر، كانت تُكَرِّسُ نفسها من كل قلبها لسعادة يوجين، وترعاه عندما يُصاب بالحصبة، والنكاف، والجدري، وتحرص على أنْ تكون ملابسه دائماً نظيفة ومُرمّمة، وعلى أنْ يؤدي واجباته المدرسيّة، وعلى التوقيع على التقارير المدرسيّة، وعلى أنْ تأخذه بانتظام إلى طبيب الأسنان (وقليل من الأولاد الفقراء كانوا يفعلون ذلك في تلك الأيام)، وعلى أنْ يكون الطعام الذي تطبخه له شهيّاً ووافراً، وعلى أنْ تُسدد أجوره للكنيس الذي يتردَّد عليه بعد انتهاء الدوام المدرسي لتلقّي دروس العبريّة استعداداً لمناسبة وصوله سن البلوغ. لكنَّ الصبي كان يتمتّع بصحّة جيدة في وجه أمراض الطفولة المُعدية الثلاثة، بأسنان متساوية قوية، وبحسٍّ عام بالصحة الجسديّة الوافرة لا بد أنَّ له صِلة بالطريقة التي كانت ترعاه بها، مُحاولة

أنْ تقوم بكل ما يُعتقَد، في تلك الأيام، أنّه جيد لنموّ الطفل. ولم يكن ينشب بينها وبين زوجها أيّ شجار – كان كلٌ منهما يعرف ما عليه أنْ يقوم به وكانا يقومان به على أكمل وجه، وكلٌ منهما يُنفّذه بحماسٍ شديد وتوقٍ لم يَخفَ على الصغير يوجين.

وقد رعى الجد تطور ذكوريّة الصبي، وكان دائماً يسعى إلى استئصال أيّة نقطة ضعف يمكن أنْ يكون قد ورثها – بالإضافة إلى ضعف البصر – من والده الطبيعيّ، وإلى أنْ يُعلِّم الصبي أنَّ كل مُحاولة يقوم بها الرجل مُشرَّبة بفكرة المسؤوليّة. ولم يكن من السهل دائماً تحمُّل هيمنة الجَدّ، ولكن عندما كان يوجين يُرضي توقّعاته، لم يكن يضنّ عليه قط بالمديح. وفي وقتٍ من الأوقات، وهو في العاشرة من العمر، عثر الصبي على جرذ رماديّ ضخم في المخزن المُعتِم في خلفيّة المتجر. كان الظلام قد حلَّ في الخارج عندما شاهد الجرذ يتحرَّك مهرولاً بين صناديق البقالة الكرتونيّة الفارغة التي كان قد ساعد جدَّه في فتحها. وكانت ردَّة الفعل الطبيعيّة هي أنْ يفرَّ، لكنّه بدل ذلك، ولعِلمِهِ أنَّ جَدَّه في الجزء الأمامي مع أحد الزبائن، مدَّ يده بهدوء إلى إحدى الزوايا لكي يتناول رفش الفحم الثقيل والعميق الذي كان يتعلَّم كيف يُعالج به الفرن الذي يُدفئ المتجر.

تقدَّم، حابساً أنفاسه، على أطراف أصابع قدميه إلى أنْ حشر الجرذ المرتعب في الزاوية. وعندما رفع الفتى الرفش في الهواء، نهضَ الجرذ على طرفيه الخلفيّين وكشّر عن أنيابه الخائفة، استعداداً للقفز. ولكن قبل أنْ يتمكّن من الارتفاع عن الأرض، انهال عليه بأسفل الرفش بسرعة وأصاب مباشرة الجمجمة، وهشّم رأسه حتى انفلق. وامتزج الدم بقطع العَظم والمخ التي تسرَّبتْ داخل شقوق خشب أرضيّة المخزن وهو يستخدم شَفرة الرفش – بعد أنْ فشِلَ في أنْ يتحكَّم بصورة تامة في الرغبة في التقيُّؤ – لجرف الحيوان النافق. كان ثقيل الوزن، بل أثقل مما كان يمكن أنْ يتخيَّل، وبدا أكبر حجماً وأطول وهو مُستقرّ على الرفش مما كان وهو واقف على طرفيه الخلفيتين. والغريب في الأمر، أنَّ لا شيء

بدا – ولا حتى امتداد الذيل الميِّت والأطراف الأربعة التي لا حِراكَ فيها – ميتاً كما بدا الشنب، بشعيراته الرفيعة، والمُلطّخة بالدم. لم يكن قد لاحظَ الشنب، وهو يرفع سلاحه فوق رأسه؛ ولم يسجِّل أيّ شيء آخر غير كلمة «اقتله!»، وكأنّما قام جدُّه بصياغتها داخل عقله. وانتظر إلى أنْ غادرت الزبونة مع كيس بقالتها ومن ثم حمل الجرذ الميت، والرفش ممدود باستقامة أمامه – بوجهٍ خالٍ من أي تعبير ليُبيِّن مدى عدم انزعاجه – وانتقل إلى القسم الأمامي من المتجر ليعرضه على جدَّه قبل أنْ يخرج به من الباب. وعند الزاوية، هزَّ الجثّة ليُحرِّرها من الرفش، ثم حشرها بين قضبان الحديد إلى المجرور الجاري، وعاد إلى المتجر، وغسل بفرشاةٍ وبصابونٍ، وبخرقةٍ من القماش، وبدلوٍ من الماء، الأرض من قيئه ومن آثار الجرذ ثم شطف الرفش.

وبعد إحرازه هذا الانتصار أصبحَ جدُّه يُطلِقُ على الصبي ذي السنوات العشر والنظّارات، بَكي – بسبب ما يدل عليه اللقب من عناد وثبات شجاع، وإقدام وإرادة قويّة.

كان الجَدّ، سام كانتور، قد قَدِمَ وحده إلى أمريكا في ثمانينيات القرن التاسع عشر كطفلٍ مُهاجر من قرية يهوديّة في منطقة غاليشيا البولنديّة. وتعلَّمَ ببسالة في شوارع نيوارك، حيثُ انكسرَ أنفه أكثر من مرَّة خلال شجارات مع عصابات مُناوئة للسامية. وقد ساهمَتْ كثيراً أعمال العنف العِدائيّة ضد اليهود التي شاعت في المدينة خلال فترة طفولته القذرة في تكوين وِجهة نظره من الحياة وبالتالي وِجهة نظر حفيده. لقد شجَّعَ حفيده على الدفاع عن نفسه كرجل وعلى الدفاع عن نفسه كيهوديّ، وعلى فهم أنَّ معارك المرء لا تنتهي وأنّه، وسط الحياة التي هي شجار بلا رحمة، «عندما تُضطر إلى دفع الثمن، فسوف تدفعه». وقد كان الأنف المكسور في وسط وجه جدَّه دائماً شاهداً بالنسبة إلى الفتى على أنّه على الرغم من أنَّ العالم حاول أنْ يسحقه، فإنه لم ينجح. توفيَ الرجل العجوز متأثراً بنوبة قلبيّة بحلول شهر تموز من عام 1944، عندما جاء الإيطاليون العشرة

إلى الملعب ونجحَ السيد كانتور وحده في صدّهم، لكنَّ هذا لم يعنِ أنّه لم يكن حاضراً خلال المواجهة.

إنَّ ولداً فقَدَ أمّه عند الولادة وفقد والده بذهابه إلى السجن، ولا يحمل عنهما أيّة ذِكرى، ما كان يمكن أنْ يحظى بحظٍ أوفرَ بالبدائل التي ورِثها لجعلِهِ قوياً في كل شيء - نادراً ما سمحَ للتفكير في فقدانه والديه بتعذيبه، حتى وإنْ كانت حياته قد تأثّرتْ بغيابهما.

كان السيد كانتور في العشرين من العمر وطالباً مُستجداً في الجامعة عندما قُصِفَ الأسطول الأميركي في المحيط الهادئ وكادَ يُدمَّر خلال الهجوم الياباني المُفاجئ على بيرل هاربر في يوم السبت، السابع من شهر كانون الأول، عام 1941. وفي يوم الإثنين الثامن منه انطلقَ إلى مركز التجنيد خارج بلديّة المدينة لكي يتطوّع للقتال. ولكن بسبب ضعف بصره لم يقبله أحد، لا الجيش، ولا الأسطول البحريّ، ولا خفر السواحل ولا البحرية. واعتُبِرَ غير مؤهَّلٍ للقتال وأُعيدَ إلى كلّية بانتزر ليستأنف إعداده ليكون مُدرِّس تربية بدنيّة. كان جدُّه قد توفي حديثاً، وعلى الرغم من تفكير السيد كانتور غير العقلانيّ، فإنه شعر بأنّه خذلَ جدَّه وفشلَ في إرضاء توقعات مُعلّمه الذي لا يُخطئ؛ ما نفعُ بنيته العضليّة وقوّته الرياضيّة إذا لم يستطع أنْ يستغلّهما في أنْ يُصبح جنديّاً؟ لم يكن قد رفع الأثقال منذ أوائل عهد المراهقة واكتفى بمقدرته في رمي الرمح - كان قد جعلَ من نفسه قويّاً بما يكفي ليُصبح جندياً في البحريّة.

بعد دخول أمريكا الحرب، كان لا يزال يجوب الشوارع بينما كل الرجال المؤهَّلين جسدياً الذين في مثل سنّه ذهبوا ليتدرّبوا على قِتال اليابانيين والألمان، وكان بينهم أقرب صديقين له من بانتزر اصطفّا خارج مكتب التجنيد معه في صباح يوم الثامن من شهر كانون الأول. وقد سمعَته جدّته، التي كان لا يزال يُقيم معها في أثناء تردّده على كليّة بانتزر، يبكي في غرفة نومه في الليلة التي انطلقَ رفيقاه ديف وجيك إلى

فورت ديكس ليباشرا تلقّي التدريب الأساسي من دونه، سمِعَتْ يوجين يبكي كما لم يفعل من قبل. كان يخجل من أنْ يُشاهَد باللباس المدنيّ، ويخجل عندما يشاهد نشرات أخبار الحرب في دور السينما، ويخجل عندما يستقلّ الحافلة متوجهاً إلى منزله في نيوارك من إيست أورانج في نهاية اليوم المدرسي ويجلس بجوار شخص يقرأ في صحيفة المساء مقال النهار الأكبر: «باتان تسقط»، «كوريغيدور تسقط»، «ويك أيلند تسقط». شعر بخجل شخصٍ ربما كان سيشكّل فرقاً في وقت كانت خلاله القوات الأميركيّة في المحيط الهادئ تقاسي هزيمة نكراء بعد أخرى.

وبسبب الحرب والسحب إلى الخدمة العسكريّة، كانت الوظائف في السلك المدرسيّ لأساتذة التربية البدنيّة كثيرة بحيث إنّه حتى قبل أنْ يتخرَّج في كليّة بانتزر في شهر حزيران من عام 1943، حظيَ بموقع في مدرسة جادّة تشانسلر التي عمرها عشر سنوات وتعاقَدَ على منصِب مدير ملعب خلال فصل الصيف. كان هدفه هو أنْ يُدرِّس التربية البدنيّة ويقود المباريات في القِطاع اليهودي، في المدرسة الثانوية التي أُنشئتْ بالقرب من مدرسة تشانسلر. وسبب انجذاب السيد كانتور إلى كلتا المدرستين هو أنهما تتألّفان من أغلبية من التلاميذ اليهود وبسبب مؤهلاتهما المدرسيّة الممتازة. لقد أراد أنْ يُعلِّم أولئك الأولاد التفوُّق في الألعاب الرياضيّة بالإضافة إلى التفوُّق في الدراسة وقيمة الروح الرياضيّة وما يمكن تعلُّمه عبر التنافُس على أرض الملعب. أراد أنْ يُعلّمهم ما تعلّمه من جَدِّه: الصلابة والعزم، أنْ يكونوا شجعان بدنيّاً ولائقين بدنيّاً وألّا يسمحوا لأحد أنْ يضطهدهم أو يُشوِّه سمعتهم بنعتهم باليهود الضعفاء والمُخنثين، لمجرّد أنهم بارعون في استخدام عقولهم.

الخبر الذي انتشر في الملعب بعد نقل هيربي شتاينمارك وألان مايكلز بسيارة الإسعاف إلى جناح الحجر الصحيّ في مستشفى بيت إسرائيل هو أنهما أُصيبا معاً بالشلل التام، ولم يعودا قادرَين على التنفُّس وحدهما،

وأنّه تمَّ إنقاذ حياتيهما داخل رئتين من الحديد. وعلى الرغم من أنَّه لم يظهر الجميع في الملعب في صباح ذلك اليوم، فقد بقيَ هناك ما يكفي من الأولاد لتشكيل أربع فرق للعب سلسلة من المباريات طوال النهار. وقد قدَّرَ السيد كانتور عدد الغائبين بحوالي خمسة عشر أو عشرين من أصل التسعين أو نحو ذلك من المترددين بانتظام على الملعب، بالإضافة إلى هيربي وألان - افترَض أنَّ أولياء أمورهم أمروهم بملازمة منازلهم بسبب خوفهم من الإصابة بمرض شلل الأطفال. ولعِلمِهِ الروح الوقائيّة التي يتَّسِم بها الآباء اليهود في الحيّ وقلق الأمهات الحذرات، دُهِش في الحقيقة لأنَّ عدداً كبيراً آخر منهم لم يتغيّب. وربما فعلَ خيراً بالتحدُّث معهم في اليوم السابق.

كان قد قال لهم، بعد أنْ جمعهم في الملعب قبل أنْ يتفرّقوا لتناول وجبة العشاء، «يا شباب، لا أريد لكم أنْ تبدؤوا بالإحساس بالرعب. إنَّ شلل الأطفال مرض علينا التعايُش معه في كل فصل صيف. إنّه مرضٌ خطير أعلم بوجوده طوال حياتي. وأفضل وسيلة للتعامُل مع تهديد الإصابة بشلل الأطفال هو البقاء أصحّاء وأقوياء. حاولوا أنْ تغتسلوا بالكامل في كل يوم وأنْ تأكلوا طعاماً صحّياً وأنْ تحصلوا على ساعات كافية من النوم وأنْ تشربوا ثمانية أكواب من الماء يومياً وألّا تستسلموا لهمومكم ومخاوفكم. نحن جميعاً نتمنّى لهيربي وألان أنْ تتحسَّن حالتهما في أقرب وقتٍ ممكن. إنهما ولدان رائعان، وكثير منكم هم من أصدقائهما المُقرّبين. ومع ذلك، بينما هما يتعالجان في المستشفى، علينا نحن المتبقّين أنْ نتابع حياتنا. وهذا يعني المجيء إلى هنا في الملعب كل يوم والمُشاركة في الألعاب الرياضيّة كعادتكم دائماً. فإذا وقع أيٌّ منكم ضحية المرض، فسوف تُخبرون طبعاً أولياء أموركم وتلزمون منازلكم وتعتنون بأنفسكم إلى أنْ تستشيروا طبيباً وتُشفوا. أما إذا كنتم تشعرون بأنكم أصحّاء، فليس هناك أي سبب في العالم يمنعكم من ممارسة النشاطات طوال فصل الصيف»

في مساء ذلك اليوم حاول عدة مرات أنْ يتّصل من هاتف المطبخ بعائلتيّ شتاينمارك ومايكلز لكي يُعبِّر عن قلقه وقلق رفاقه في الملعب ولكي يعرف المزيد عن حالة الصبيِّين المريضَين، ولكن لم يردّ عليه أحد في المنزلَين. وهذه ليستْ إشارة جيدة. لا بد أنَّ العائلتين لا تزالان في المستشفى في الساعة التاسعة والربع ليلاً.

ثم رنَّ جرس الهاتف. كانت مارسيا، تتصل من البوكونو. لقد سمعتْ عمّا حدثَ للصبيّين في الملعب. «لقد تحدثتُ مع أهلي. وأخبروني. هل أنتَ على ما يُرام؟»

قال، ماداً شريط الهاتف لكي يقف حيث الجو أكثر برودة بقليل، وأقرب إلى ستارة النافذة المفتوحة: «أنا بخير. وكل الصِبية الآخرين بخير. لقد حاولتُ أنْ أتّصل بالصبيِّين لأسأل عن حالتهما»

قالت مارسيا: «أنا مُشتاقة إليك، وقلقة بشأنك»

قال: «أنا أيضاً مُشتاقٌ إليك، ولكن ليس هناك من مُبرِّر للقلق»

«الآن أشعر بالندم لأنني أتيتُ إلى هنا». كانت تعمل في فصل الصيف الثاني على التوالي كرئيسة للمُستشارين في إنديان هيل، وهو مُعسكر للفتية والفتيات اليهود في جبال بوكونو في بنسلفانيا على مسافة سبعين ميلاً من المدينة؛ وخلال العام كانت مُدرِّسة الصف الأول في مدرسة تشانسلر – كانا قد تقابلا كعُضوَين جديدَين في الكليّة في الصيف السابق. قالت «يبدو هذا فظيعاً»

قال «إنّه أمرٌ فظيع بالنسبة للصبيَّين ولعائلتيهما، لكنَّ الوضع ليس ميؤوساً منه. ولا ينبغي أنْ تعتقدي هذا»

«لقد قالت أمي شيئاً عن حضور الإيطاليّين إلى أرض الملعب لنشر عدوى المرض»

«الإيطاليّون لم ينشروا أيّ شيء. أنا كنتُ حاضراً. وأعرفُ ماذا حدث. كانوا حفنة من الأولاد المتعالين، هذا كل شيء. لقد بصقوا في كل مكان

في الشارع، وغسلناه. إنَّ شلل الأطفال هو شلل الأطفال - لا أحد يعلم كيف ينتشر. ما إنْ يحلّ الصيف حتى يظهر، وليس هناك ما يمكن عمله»

«أنا أحبك، يا بَكي. وأفكّر فيك باستمرار»

فيُجيب بصوتٍ منخفض، سراً، لكيلا يسمعه أيٌ من الجيران من خلال نافذة مفتوحة، «أنا أيضاً أحبّكِ». كان صعباً عليه أنْ يقول لها هذا لأنّه وطَّنَ نفسه - بعقلانيّة، حسب اعتقاده - على ألّا يستغرق في حبّها في أثناء غيابها. وكان صعباً أيضاً لأنه لم يسبق له قط أنْ باحَ بما يكنّه بمثل تلك الصراحة لفتاة، وما زال يجد أنَّ من البلاهة قول مثل تلك الكلمات.

قالت مارسيا «يجب أنْ أُنهي المُكالمة. ثمّة مَنْ ينتظر خلفي. أرجوك انتبه إلى نفسك»

«إنني أفعل. سوف أفعل. ولكن لا تقلقي. ولا تخافي. ليس هناك مُبرِّر للخوف»

في اليوم التالي، سرى خبر في المنطقة يقول إنه في منطقة المدرسة اليهوديّة ظهرت إحدى عشرة حالة جديدة من مرض شلل الأطفال - وهو العدد نفسه الذي كان قد سُجِّلَ خلال السنوات الثلاث السابقة مجتمعة، والوقت ما زال شهر تموز، وبقيَ هناك شهران آخران على انتهاء موسم المرض. إحدى عشرة حالة جديدة، وخلال الليل توفيَ ألان مايكلز، الأثير لدى السيد كانتور. لقد قضى عليه المرض في غضون اثنتين وسبعين ساعة.

اليوم التالي كان يوم سبت، وكان الملعب مفتوحاً من أجل تنظيم النشاطات حتى حلول الظهيرة فقط، عندما يهدر الأنين المرتفع والمنخفض لصفّارات إنذار الغارات الجويّة خلال فترة الاختبار الأسبوعيّة من الأعمدة المتعددة الأغراض عبر المدينة. وبدل أنْ يعود إلى شارع باركلي بعد وقت الإغلاق، لكي يُساعد جدَّته في تبضُّع البقاليّة الأسبوعيّ - كان مخزون متجرهم الخاص للبقاليّة قد بيع بسِعر بخس بعد وفاة جدِّه - أخذَ دشّاً في غرفة تغيير ملابس الفتيان وارتدى قميصاً

نظيفاً وبنطلوناً وانتعل حذاءً مُلمَّعاً كان قد جلبه معه داخل كيس من الورق. ثم قطع كامل مسافة جادّة تشانسلر سيراً على قدميه، حتى وصل أسفل التلّ حتى فالبيان بليس، حيث تُقيم عائلة ألان مايكلز. وعلى الرغم من مرض شلل الأطفال الذي يجتاح الحيّ، كان الشارع الرئيس المُدجَّج بالمتاجِر ممتلئاً بالناس الذين خرجوا من أجل تبضُّع بقالة يوم السبت وإحضار ملابسهم المُنظَّفة على الناشِف وأدويتهم الموصوفة لهم وكل ما يحتاجون من محل الأدوات الكهربائيّة ومن محل الملابس النسائيّة ومحل النظّارات ومحل الخردوات. وفي محل حلاقة فرينشي كانت المقاعد كلها مشغولة برجال من الحيّ في انتظار قصّ شعورهم أو حلاقة ذقونهم؛ وفي محل بيع الأحذية القريب، كان صاحب المحل الإيطاليّ – وهو صاحب المحل الوحيد غير اليهوديّ في الشارع، بالإضافة إلى فرينشي – منهمكاً في العثور على الأحذية المناسبة للزبائن داخل ركام منها على النضد المزدحِم بينما محطة الإذاعة الإيطاليّة تلعلع من خلال باب محلّه المفتوح. وكانت مظلات المحلات كلها قد أُنزِلَتْ باكراً لدرء أشعة الشمس الحارقة ومنعها من النفاذ من خلال زجاج الواجهات المُطلَّة على الشارع.

كان يوماً مُشرِقاً، صافياً، ودرجة الحرارة ترتفع مع مرور كل ساعة. وتحمَّسَ الأولاد من دروس الألعاب الرياضيّة ومن الملعب عندما لمحوه في جادة تشانسلر – لأنه كان يسكن في الحي نفسه ولكن في منطقة مدرسة ساوث سايد، كانوا متعودين على ألّا يروه إلّا في أثناء أداء وظيفته الرسميّة كأستاذ ألعاب رياضيّة وكمدير ملعب. لوَّحَ بيده عندما هتفوا «سيد كانتور!» وابتسمَ وأومأ برأسه لأولياء أمورهم، الذين تعرَّفَ على بعضٍ منهم من خلال حضور اجتماعات رابطة الأساتذة وأولياء الأمور. وقف أحد الآباء ليتحدث معه. قال للسيد كانتور «أريد أنْ أصافحك، أيّها الشاب، لأنكَ أمرتَ أولئك الغرباء بالرحيل. أولئك الكلاب القذرين. واحد في مواجهة عشرة. أنتَ شابٌ شجاع»، «شكراً لك، سيدي»، «أنا مَري روزنفيلد. أنا والد جوي»،

«شكراً لك، سيد روزنفيلد». بعد ذلك، توقفت امرأة كانت تتبضّع لتتحدث معه. ابتسمتْ بأدب، وقالت «أنا السيدة ليوي. أنا والدة برني. إنّ ابني مولع بك، يا سيد كانتور. ولكن لديّ سؤالاً واحداً لك. بالنظر إلى ما يحدث في المدينة، هل تعتقد أنَّ من الحِكمة أنْ ندع الأولاد يركضون هنا وهناك وسط مثل هذا الحرّ؟ إنَّ برني يعود إلى المنزل منقوعاً حتى جسمه. هل هذا يجوز؟ انظر إلى ما حدث لألان. كيف يمكن لأيّة عائلة أنْ تبرأ من محنة كهذه؟ لقد التحق أخواه بالحرب، والآن حدثَ هذا»، «إنني لا أترك الأولاد يُرهقون أنفسهم، يا سيدة ليوي. إنني أراقبهم». قالت «إنَّ برني لا يعلم متى يتوقف. إنَّ في استطاعته أنْ يركض طوال النهار وطوال الليل إذا لم يوقِفه أحد»، «سوف أحرص على إيقافه إذا ما ارتفعتْ حرارته. سوف أُبقي عيني عليه»، «أوه، شكراً لك، شكراً لك. إنَّ الجميع في غاية السعادة لأنكَ أنتَ الذي تعتني بالأولاد»، أجاب السيد كانتور «آمل أنْ أكون ذا عون». كان حشدٌ صغير قد اجتمعَ في أثناء حديثه مع والدة برني، والآن اقتربتِ امرأةٌ أخرى وأمسكتْ كمّه لكي تُلفت انتباهه. «وأين هيئة الصحّة من هذا كلّه؟»، قال السيد كانتور «أتسألينني أنا؟»، «نعم، أنت. إحدى عشرة حالة تظهر في القِطاع اليهودي بين ليلة وضُحاها! وطفل مات! أريد أنْ أعرف ماذا تفعل هيئة الصحّة لتحمي أولادنا»، أجاب «إنني لا أعمل لمصلحة هيئة الصحّة؛ أنا مدير ملعب في مدرسة تشانسلر»، اتّهمته قائلة «لقد قال أحدهم إنكَ كنتَ ضمن هيئة الصحّة»، «كلا، لستُ كذلك. أتمنى لو أستطيع أنْ أساعدكِ لكنني مُرتبط بالمدارس»، قالت «إننا نتصل بهيئة الصحة فنسمع إشارة مشغول. أعتقد أنهم يرفعون سمّاعة الهاتف عن عمد»، فتدخّلتِ امرأة أخرى «لقد جاءت هيئة الصحة إلى هنا. أنا رأيتهم. وضعوا شارة حجر صحّي على أحد المنازل في شارعنا»، كان صوتها مملوءاً بالحزن وهي تقول «هناك حالة شلل أطفال في شارعنا!»، قال شخص آخر بغضب «وهيئة الصحّة لا تفعل أيّ شيء!». قال آخر «ينبغي أنْ يتحققوا من الحليب الذي يشربه الأطفال – إنّ شلل الأطفال يأتي من الأبقار القذرة ومن حليبها

المُلوّث»، قال آخر «كلا، العِلّة ليست في الأبقار - بل في الزجاجات. إنّهم لا يُعقّمون الزجاجات كما ينبغي»، قال صوتٌ آخر «لِمَ لا يُطهّرونها بالبخار؟ لِمَ لا يستخدمون مُطهّراً؟ ويُطهّرون *كل شيء*»، «لِمَ لا يفعلون كما كانوا يفعلون عندما كنتُ طفلاً؟ كانوا يربطون كرات الكافور حول أعناقنا. كان لديهم شيء كريه الرائحة يسمّونه صمغ الراتينج - ربما هذا يفيد الآن»، «لِمَ لا يرشّون نوعاً من المادة الكيميائيّة في الشوارع ويقضون عليه بهذه الطريقة؟». قال أحدهم «دعكَ من المواد الكيميائيّة. أهمّ شيء بالنسبة إلى الأطفال هو غسل الأيدي. فليغسلوا أيديهم دائماً. النظافة! النظافة هي العلاج الوحيد!»، قال السيد كانتور «وثمة شيء آخر هام هو أنْ تهدؤوا جميعاً ولا تفقدوا سيطرتكم على أنفسكم وألّا تستسلموا للخوف. وألّا تنقلوا خوفكم إلى أولادكم. الأمر المهم هو أنْ تُحافظوا على كل شيء في حياتهم عادياً قدر استطاعتكم وأنْ تحاولوا جميعكم أنْ تبقوا عقلاء وهادئين في كل ما تقولونه لهم». قالت امرأة أخرى له «أليس من الأفضل أنْ يلزموا منازلهم إلى أنْ تزول هذه الظروف؟ أليس المنزل هو المكان الأكثر أماناً وسط أزمة كهذه؟ أنا والدة ريتشي تولين. إنَّ ريتشي مولع بك، يا سيد كانتور. كل الأولاد كذلك. ولكن أليس من الأفضل لريتشي، وللأولاد كلهم، إذا أقفلت الملعب ولزموا منازلهم؟»، «إنَّ أمر إغلاق الملعب، يا سيدة تولين، ليس مرهوناً بي، بل بالمُشرِف على المدارس كلها». قالت «لا تظن أنني أضعُ اللوم عليك فيما يحدث»، «كلا، كلا، أنا أعلم أنّكِ لا تقصدين هذا. أنتِ أمّ. وأنت قلقة. أنا أتفهّم قلق الجميع». قال شخص آخر «إنَّ أولادنا اليهود هم ثرواتنا، فلِم يُهاجم المرض أطفالنا اليهود الرائعين؟»، «أنا لستُ طبيباً. لست عالِماً. ولا أعلم لماذا يُهاجِم مَنْ يُهاجمه. ولا أُصدّق أنَّ أحداً يعلَم. لهذا السبب يُحاول الجميع أنْ يعرفوا مَنْ أو ما هو المُسبِّب. إنهم يُحاولون أنْ يعرفوا المسؤول لكي يزيلوه»، «ولكن ماذا عن الإيطاليين؟ لا بدّ أنّهم الإيطاليون!»، قال «كلا، كلا، لا أعتقد ذلك. كنتُ موجوداً عندما جاء الإيطاليون. وهم لم يتّصلوا بأيٍّ من

الأولاد. ليسوا الإيطاليين. اسمعوا، لا ينبغي أنْ تتركوا القلق أو الخوف ينهشكم. الأهمّ هو عدم نقل عدوى الخوف إلى الأطفال. سوف نجتاز هذه المحنة، صدّقوني. سوف نقوم جميعاً بدورنا ونلزم الهدوء ونبذل قُصارى جهدنا لحماية أطفالنا، وسوف نجتاز كلنا معاً هذه الأزمة». «أوه، شكراً لكَ، أيها الشاب. أنت شاب رائع»، «يجب أنْ أذهب، بعد إذنكم»، وجّه كلامه إليهم جميعاً، وهو يُلقي نظرة أخيرة إلى عيونهم القلقة التي تناشده وكأنّه مخلوق أقوى بكثير من مدير ملعب في الثالثة والعشرين من العمر.

كان فابيان بليس هو آخر شارع في نيوارك قبل بلوغ سكك القطار وفناء الأخشاب والحدود مع إرفنغتون. وعلى غرار الشوارع السكنيّة الأخرى المتفرّعة عن تشانسلر، كانت المنازل ذات الأُطُر الخشبيّة والأقواس الأماميّة من الآجر الأحمر والمؤلَّفة من طابقَين ونصف والأفنية الصغيرة ذات السياجات التي تفصل أحدها عن الآخر ممرّات سيارات ضيّقة من الإسمنت مرائب صغيرة تصطف على جانبيه. وعلى طرف الرصيف أمام كل قوس زرعتْ بلديّة المدينة شجرة ظليلة صغيرة خلال العقد الأخير وتبدو الآن جافّة بعد أسابيع من درجات الحرارة اللاهبة وانعدام المطر. ولا شيء في الشارع النظيف والهادئ كان يوحي باعتلال الصحة وتفشي العدوى. ففي كل منزل وفي كل طابق كانت المظلات إمّا مرخيّة أو الستائر مُسدلة درءاً للحرارة الشرسة. لم يكن يُرى أحد في أي مكان، وتساءلَ السيد كانتور إنْ كان السبب هو الحرارة المرتفعة أو أنَّ الجيران يُبقون أولادهم داخل المنازل احتراماً لمُصاب عائلة مايكلز – أو ربما من باب الإحساس بالرعب من عائلة مايكلز.

ثم ظهر شخص من منعطف جادّة ليونز، شاقاً طريقه وحيداً تحت الأشعة الساطعة والحارقة في شارع فابيان بليس التي بدأتْ تُذيب أسفلت الشارع. تعرَّفَ السيد كانتور على هويّته، حتى من بعيد، من مشيته المُميَّزة. إنّه هوراس. إنَّ كل رجل، وامرأة، وطفل في القِطاع اليهوديّ يعرف

هوراس، لسببٍ رئيس هو أنّ كل مَنْ يُصادفه في طريقه يضطرب لظهوره. وعندما يراه الأطفال الصِغار يهرعون إلى الجانب المقابل من الشارع؛ وعندما يراه البالغون يُطرقون أبصارهم. كان هوراس «مُغفّل» الحيّ، رجلاً نحيلاً في ثلاثينيات أو أربعينيات عمره- لا أحد يعرف بالضبط كم يبلغ عمره – توقّفَ تطوّره الفِكريّ عند حوالي سن السادسة وجديرٌ بطبيب نفسي أنْ يُصنّفه ضمن فئة الحمقى، أو حتى البلهاء، بالإضافة إلى لقب الأحمق الذي كان شبّان الحيّ قد خلعوه عليه بلا تحليل منطقيّ قبل سنين عديدة. كان يجرّ قدميه جرّاً، ورأسه الممدود إلى الأمام بدءاً بعُنقه كسُلحفاة، يهتزّ بارتخاء مع كل خطوة يخطوها، بحيث بدا أنه في العموم لا يمشي بل يتهادى متقدِّماً. كان اللعاب يتجمَّع عند زاويتيّ فمه في المناسبات النادرة حين يتكلَّم، وعندما يصمت كان يسيل لعابه أحياناً. كان ذا وجه نحيل، غير مُنتَظَم، كأنّه سُحِقَ والتوى داخل قناة الولادة الضيِّقة، ما عدا أنفه، الذي كان كبيراً ومُنتفخاً بصورة عجيبة وغريبة، إذا أخذنا بعين الاعتبار ضيق وجهه، وأوحى لبعض الأولاد بأنْ يهتفوا ساخرين «هيه، يا ذا الأنف المنتفخ!» عندما يجرّ قدميه مجتازاً قوس منزل أو ممر سيارة يتجمّعون عنده. كانت ملابسه تفوح منها رائحة عفنة في كل الفصول، وكان وجهه مُنقّطاً ببقع من الدم، بشقوق على بشرته تشهدُ على أنّه على الرغم من أنَّ هوراس كان ربما صاحب عقل طفل، فإنه كان أيضاً يحمل لحية رجل، ويحلق ذقنه، مُصادفة، أو يحلقها له أحد والديه قبل أنْ يخرج في كل يوم. لا بد أنّه غادر قبل دقائق الشقّة الصغيرة الكائنة خلف دكان الخيّاط عند الزاوية حيثُ يعيش مع والديه، العجوزَين اللذين يتكلّمان اليديّة مع بعضهما ويتكلّمان إنكليزيّة ثقيلة مع الزبائن في الدكان ويُقال إنَّ لديهما أطفالاً آخرين، طبيعيين، نموا وعاشوا في مكان آخر – والمُذهل في الأمر أنّه يُقال إنَّ أحد أخويّ هوراس هو طبيب والآخر رجل أعمال ناجح. كان هوراس هو الأصغر سناً في العائلة، وكان يخرج ليتمشّى في شوارع الحيّ في كل يوم من أيام السنة، في أسوأ أيام الصيف كما في أسوأ

أيام الشتاء، ويرتدي سترة سميكة ويرخي قلنسوتها على رأسه حتى أُذنيه ويتعل حذاءً من المطاط الأسود محلول الرباط وقفّازاً ليديه الكبيرتين موصولاً بسواريّ كُمّي قميصه بدبّوس، ويتدلّى هناك من دون استعمال مهما كانت درجة الحرارة. كان لباساً بدا فيه، وهو يجرّ قدميه قُدُماً، أشدّ غرابة مما يبدو في المعتاد وهو يقوم بجولاته وحده في الحيّ.

عثرَ السيد كانتور على منزل آل مايكلز على الجانب القصيّ من الشارع، وارتقى دَرَجاً تحت القوس، وعند ردهة صغيرة عليها صندوق بريد ضغط الجرس الموصول بشقّتهم الكائنة في الطابق الثاني وسمعه يرن في الطابق العُلويّ. هبطَ أحدهم الدَرَج الداخليّ بهدوء وفتح الباب الزجاجيّ المُبرغَل عند عتبة مطلع الدَرَج. والرجل الذي وقفَ هناك كان ضخم الجثّة وثقيل الوزن، والأزرار على قميصه ذي الكُمّين القصيرَين مشدودة عبر بطنه. كانت لديه بُقعٌ قاتمة ومُبرغلة تحت عينيه، وعندما رأى السيد كانتور لزم الصمت، وكأنّ الحزن تركه مشدوهاً حتى الخرس.

«أنا بَكي كانتور، مدير الملعب في مدرسة تشانسلر وأستاذ التربية البدنيّة هناك. لقد كان ألان أحد تلامذتي في درس الألعاب. كان أحد الأولاد الذين يلعبون الكرة في الملعب. وقد سمعتُ بما حدث وأتيتُ لأقدّم تعازيّ»

استغرقَ الرجل وقتاً طويلاً ليُجيب، وأخيراً قال «لقد تحدث ألان عنك»

«لقد كان ألان رياضيّاً بالفطرة. كان ولداً شديد الانتباه. وهذا النبأ مُريع، صاعِق. شيء غير مفهوم. وقد أتيتُ لأعبّر لكم جميعاً عن مبلغ انزعاجي»

كان الجو شديد الحرارة في الردهة، وكان الرجلان يتصبّبان بالعَرَق الكثيف.

قال السيد مايكلز «تعال إلى فوق. سوف نقدّم لك مشروباً بارداً»

أجاب السيد كانتور «لا أريد أنْ أزعجك. أريد أن أُقدِّم تعازيّ وأخبركم كم كان ابنكم فتى رائعاً. كان راشداً بكل المعاني»

«هناك شاي مُثلَّج. بنت حمي صنعتْ بعضاً منه. لقد اضطررنا إلى استدعاء الطبيب من أجل زوجتي. لقد لزمت السرير منذ الحادث. واضطرّوا إلى إعطائها مُخدِّراً. تعال وتناول بعض الشاي المُثلَّج»

«لا أريد أنْ أكون دخيلاً»

«تعال. لقد أخبرنا ألان كل شيء عن السيد كانتور وعن عضلاته. كان يُحبّ الملعب». ثم قال، بصوتٍ مُتهدِّج، «لقد أحبَّ الحياة»

تَبعَ السيد كانتور الرجلَ الضخم، الحزين، وهو يرتقي الدَرَج إلى الشقّة. كانت الستائر كلّها مُسدلة ولا أضواء مُنارة. وثمة جهاز راديو على نضد بجوار الأريكة وقبالته كرسيّا مُنتدى وثيران وكبيرَان. جلس السيد كانتور على الأريكة بينما ذهب السيد مايكلز إلى المطبخ وعادَ مع كأسٍ من الشاي المُثلَّج من أجل الضيف. أومأ للسيد كانتور لكي يجلس بالقُرب منه على أحد كرسيّي المُنتدى ومن ثم، تنهّدَ بصوتٍ مسموع، وبألم، جلسَ على الكرسيّ الآخر، حيثُ كان هناك مسنَد للقدمَين عند أسفله. وحالما مدَّ ساقيه على مسند القَدَمَين وتمدَّد على الكرسيّ، بدا كأنّه هو أيضاً، على غرار زوجته، يستلقي على سرير، مُخدّراً وعاجزاً عن الحركة. لقد جعلت الصدمة وجهه خالياً من أي تعبير. ووسط الظلام شبه التامّ، بدت البشرة المُبقّعة تحت عينيه قاتمة، وكأنّها دُهِنَتْ بالحبر برمزين توأمين للحِداد. إنَّ شعائر الموت اليهوديّة القديمة تستدعي تمزيق المرء ملابسه لدى عِلمه بموت شخص حبيب على قلبه – وبدل ذلك، قام السيد مايكلز برسم بقعتين داكنتين على وجهه الشاحب.

قال، متكلّماً بهدوء لكيلا يسمعه أحد في الغرفة الأخرى، وببطء، كأنّما من فرط التعب، «لدينا أولاد في الجيش. ومنذ أنْ رحلوا إلى ما وراء البحار، لم يمرّ عليّ يوم لم أتوقّع فيه أنْ أسمع أسوأ خبر عنهم. وحتى الآن نجوا من أسوأ قِتال، ومع ذلك استيقظَ أخوهم الصغير قبل بضعة أيام مع

عنقٍ متيبِّسة وحرارة مرتفعة، وبعدها بثلاثة أيام مات. كيف سنُخبر إخوته؟ كيف سننقل إليهم كتابةً هذا النبأ وهم يُقاتلون؟ إنّه ولد صغير في الثانية عشرة، أفضل ما يمكن أنْ يكون للمرء من أولاد، ومات. في الليلة الأولى كان في حالة شديدة البؤس بحيث إنّني في الصباح ظننتُ أنّ الأسوأ قد انقضى وأنَّ الأزمة مرَّتْ. لكنَّ الأسوأ كان فقط قد بدأ. وما أصعبه من يوم مرَّ على الفتى! كان الفتى يشتعل بالحُمّى. تقرأ مؤشِّر ميزان الحرارة ولا تُصدِّق عينيك – لقد تجاوزتْ درجة الحرارة الأربعين! وحالما وصل الطبيب استدعى سيارة الإسعاف في الحال، وفي المستشفى أبعدوه عنّا – وكانت النهاية. لم نرَ بعد ذلك ولدنا حيّاً قط. لقد مات وحيداً. لم تُتَح لنا الفرصة لوداعه. كل ما حصلنا منه كان خزانة تحتوي ملابسه وكتبه المدرسيّة وأغراضه الرياضيّة، وهناك، بعيداً، يوجد سَمكَة»

للمرّة الأولى، لاحظَ السيد كانتور حوض سمك زجاجيّاً عند الجدار القصيّ، حيث أُخفضت ليس المظلات فقط، بل وأُسدِلَتْ أيضاً الستائر القاتمة على النافذة التي يبدو أنّها كانت تواجه ممر السيارات والمنزل المُجاوِر. وفي أسفل الحوض أُضيء مصباح نيون، ورأى في الداخل مجموعة من الأسماك الصغيرة، المتعددة الألوان، حفنة منها كانت إمّا تختفي داخل غار صغير، أخضر اللون بفعل أعشاب مُنمنمة، أو تنساب عبر القعر المكسو بالرمل سعياً وراء الطعام، أو تندفع إلى أعلى لكي تمتصّ شيئاً على السطح، أو فقط تقفُ جامدة بالقرب من أسطوانة فضّيّة تبقبقُ الهواء في إحدى زوايا الحوض. قال السيد كانتور في نفسه، إنّ هذا الحوض الأنيق الذي تلقّى عناية فائقة ودقيقة هو من صُنع ألان.

قال السيد مايكلز، مُشيراً نحو الخلف عبر كتفيه إلى الحوض، «في صباح هذا اليوم، تذكّرتُ أنني يجب أنْ أُطعمها. انتفضتُ في سريري وتذكّرت»

قال السيد كانتور، مائلاً عبر الكرسي لكي يسمعه بينما يُحافِظ على انخفاض صوته، «كان أفضل الفتيان»

قال السيد مايكلز «كان دائماً يؤدي وظائفه المدرسيّة، ودائماً يُساعد أمّه. كان أبعد ما يمكن عن الأنانيّة. وكان ينوي أنْ يبدأ في شهر أيلول الاستعداد لحفل وصوله سنّ البلوغ. كان مُهذَّباً ومُرتّباً. ويكتب لكلٍ من أخويه رسائل في كل أسبوع، رسائل مملوءة بأخبارٍ كان يقرؤها علينا على مائدة العشاء. كان دائماً يُدخِل البهجة إلى قلب أمّه عندما تنتابها الهواجس بشأنِ ابنيها الأكبر سنّاً. كان دائماً يدفعها إلى الضحك. وحتى وهو صبي صغير كنتَ تقضي وقتاً ممتعاً وأنتَ تضحك مع ألان. كان يجتمع في بيتنا أصدقاؤه كلهم لقضاء وقت ممتع. كان المنزل دائماً ممتلئاً بالأولاد. لماذا أُصيبَ ألان بشلل الأطفال؟ لماذا كان ينبغي أنْ يمرض ويموت؟»

قبَض السيد كانتور بيده على كأس الشاي المُثلّج ولم يشرب منه، بل لم يُدرِك أنّه يُمسك به.

قال السيد مايكلز «إنَّ أصدقاءه كلهم فزعون. فزعون من أنْ يكونوا قد أُصيبوا بالعدوى منه وأنّه قد حان دورهم الآن ليموتوا من شلل الأطفال. وأُصيبَ أولياء أمورهم بالهوس. لا أحد يعلم ما ينبغي فعله. ما الذي يمكن فعله؟ ما الذي كان ينبغي أنْ نفعله؟ إنني لا أكفّ عن التفكير. أيمكن أنْ يكون هناك منزل أشدّ نظافة من هذا؟ أيمكن أنْ تكون هناك امرأة أشدّ عناية بنظافة بيتها أكثر من زوجتي؟ أيمكن أنْ تكون هناك أُمّ تعمل أكثر منها من أجل خير أولادها. أيمكن أنْ يكون هناك فتى يعتني بغرفته وبملابسه وبنفسه أفضل مما كان ألان يفعل؟ كان يفعل كل شيء، وكان يُحسِن العمل منذ المرّة الأولى. وكان دائماً سعيداً. ودائماً يُلقي النكات. فلماذا مات؟ أين العدل في هذا؟»

قال السيد كانتور «ليس هناك عدل»

«إنَّ المرء لا يقوم إلّا بالعمل الصحيح، العمل الصحيح والعمل الصحيح والعمل الصحيح، ويتراجع طوال الوقت. يُحاول أنْ يُحسِن التفكير، أنْ يكون عاقلاً، وشخصاً مُجاملاً، ومن ثم يحدث هذا. ما معنى الحياة؟»

أجاب السيد كانتور «يبدو أنّه ليس لها أيّ معنى»
سأل الرجل المسكين «أين ميزان العدل؟»
«لا أعلم، يا سيد مايكلز»
«لماذا تضرب المأساة دائماً الأشخاص الذين لا يستحقونها؟»
أجاب السيد كانتور «لا أعرف الجواب»
«لماذا أنا وليس هو؟»

لم يكن لدى السيد كانتور أيّ جواب على كل تلك الأسئلة. كل ما استطاع أنْ يفعله هو أنْ يهزّ كتفيه.

قال السيد مايكلز، ضارباً ذراع الكرسي بيده المفتوحة، «صبي صغير - المأساة تضربُ *صبيّاً صغيراً*. يا لفظاعة هذا! يا لعبثه! ينزل مرضٌ خبيث علينا من السماء وإذا بشخص يموت بين ليلة وضحاها. طفل، لا أكثر!»

تمنّى السيد كانتور لو يعرف كلمة واحدة ينطقها وتُخفِّف، ولو للحظة، ألمَ الوالد المُضني. ولكن كل ما استطاع أنْ يفعل هو أنْ يومئ برأسه.

قال السيد مايكلز «في أمسية قريبة كنا جالسين في الخارج، وألان معنا. كان قد عاد من العناية بقطعة أرضه في الحديقة المُخصّصة لزراعة الخضروات. كان ينفِّذ ذلك بعناية فائقة. وفي العام السابق أكلنا في الحقيقة من خضروات ألان التي رعاها طوال فصل الصيف. وهبَّ النسيم. هبَّ النسيم فجأة. أتتذكَّر تلك الليلة؟ عند حوالي الساعة الثامنة، كم كان الجو مُنعِشاً؟»

قال السيد كانتور «نعم»، لكنّه لم يكن يُصغي. كان يمدُّ نظره عبر الغرفة إلى السمك الاستوائي الذي يسبح في حوض الأسماك ويُفكِّر في أنّه من دون رعاية ألان لها، سوف تموت جوعاً أو تُعطى لشخصٍ آخر أو يرميها شخص وهو يبكي، في وقت مناسب، مع ماء المرحاض.

«بدا كأنّه النعيم بعد أنْ مررنا بذلك النهار اللاهب. انتظرنا وانتظرنا هبوب نسمة رقيقة. اعتقدنا أنَّ النسيم الرقيق سوف يجلب معه بعض

الراحة»، وسأل السيد مايكلز، «ولكن أتعلم ماذا فعل بدل ذلك في اعتقادي؟ أعتقد أنَّ النسيم بثّ جراثيم شلل الأطفال في الجوّ، في دورات متتالية، كما تهبّ أوراق النبات في دوامات. أعتقد أنَّ ألان كان جالساً هناك واستنشقَ تلك الجراثيم التي حملها النسيم...»، لم يستطع أنْ يُكمِل؛ وطفقَ يبكي، بشكلٍ أخرق، بلا خِبرة، كما يبكي الرجال الذين يحبّون في المعتاد أنْ يعتقدوا أنّهم قادرون على كل شيء.

هنا جاءت امرأة قادمة من غرفة نوم خلفيّة؛ كانت أخت زوجته التي تعتني بالسيدة مايكلز. وطئت الأرض بحذائها برفق، وكأنَّ في غرفة النوم طفلاً نام أخيراً بعد طول أرَق.

قالت بهدوء إنها تريد أنْ تعرف مع مَنْ تتحدَّث.

قال السيد مايكلز، وهو يمسح عينيه، «هذا السيد كانتور. أستاذ في مدرسة ألان»، وسأل أخت زوجته، «كيف حالها؟»

أجابتْ بصوتٍ منخفض، «ليست جيدة. الوضع على حاله. إنها تُردِّد: ليس طفلي، ليس طفلي»

قال «سوف أدخل في الحال»

قال السيد كانتور «يجب أنْ أذهب»، ونهضَ عن كرسيه ووضع كوب الشاي المُثلَّج الذي لم يشرب منه شيئاً على جانب الطاولة. «أردتُ فقط أنْ أُقدِّم تعازيَّ. هل لي أنْ أسأل متى ستجري الجنازة؟»

«غداً عند الساعة العاشرة. في كنيس شارع شلي. كان ألان الأثير عند حاخام المدرسة العِبريّة. كان أثيراً *عند الجميع*. لقد جاء الحاخام سلافين بنفسه إلى هنا وعرَضَ خدمات الكنيس حالما سمِعَ بما حدث. من باب تكريم ألان. كل الناس أحبّوا الفتى. كان فريداً من نوعه»

سألَتِ السيد كانتور «ماذا كنتَ تعلِّمه؟»

«الألعاب الرياضيّة»

قالت «لقد أحبَّ ألان كل ما يتّصل بالألعاب الرياضيّة. وكم كان تلميذاً متفوّقاً. كان قُرَّة عين الجميع»

قال السيد كانتور «أعلمُ هذا. رأيته بأمّ عيني. وأعجز عن التعبير لكم عن مدى أسفي»

في الطابق السُفليّ، حالما خرج إلى الشرفة الخارجيّة، اندفعَتِ امرأةٌ خارجة من شقّة الطابق الأول، وأمسكته من ذراعه بهياج وسألته «أين إشارة الحجر الصحيّ؟ إنَّ الناس يأتون ويُغادرون، إلى الطابق العلوي ومنه، داخلين خارجين، ولماذا لا توجد إشارة إلى حظر صحّي؟ أنا لديّ أطفال صغار. لماذا لا يوجد حظر صحّي يحمي أطفالي؟ أأنتَ خفير من الفرقة الصحيّة؟»

«لا أعرف أيّ شيء عن الفرقة الصحيّة. أنا من الملعب، وأُعلّم في المدرسة»

«مَن المسؤول إذن؟». كانت امرأة ضئيلة، سمراء، مُثقلة بالخوف، وقسمات وجهها ملتوية من الانفعال، وكأنَّ شلل الأطفال حطَّمَ حياتها وليس اضطرار أطفالها إلى عيش حياة محفوفة بالخطر في ظلّه. لم تبدُ أفضل حالاً من السيد مايكلز.

قال السيد كانتور «أعتقد أنَّ الهيئة الصحيّة هي المسؤولة»

ناشدته «وأين هم؟ أين الشخص المسؤول! إنَّ الناس يخشون حتى المرور من أمام منزلنا – يمشون على الجانب المقابل عن عمد»، ثم أضافتْ، بكلام غير مترابط من فرط اليأس، «لقد مات الولد وانتهى الأمر، وما زلتُ أنتظر إشارة الحجر الصحيّ!» وهنا أطلقَتْ صرخة حادة، لم يسمع السيد كانتور مثيلاً لها من قبل، إلّا في أفلام الرعب. كانت تختلف عن الزعيق. يمكن أنْ تكون قد صَدَرَتْ عن تيّار كهربائيّ. كان صوتاً حادّ النبرة ممدوداً لا يشبه أي ضجيج إنسانيّ يعرفه، والصدمة الغريبة التي سبّبها أشاعت القشعريرة في جسمه.

لم يكن قد تناول طعام الغداء، لذلك توجّه إلى محل سيدْ ليحصل على بعض السجق. وكان حريصاً على أنْ يمشي على الرصيف الظليل

من الشارع، على الجانب المقابل من ذاك غير المحمي من وهج أشعة الشمس وحيث اعتقد أنَّ في استطاعته أنْ يرى أمواج الحرارة تتحرّك فوق الرصيف. كان مُعظم المتسوقين قد اختفوا. كان ذاك أحد أيام الصيف اللاهبة التي يُسجّل فيها ميزان الحرارة درجة 38 مئويّة، والذي يقوم خلاله، إذا ما كان الملعب مفتوحاً، باختصار مباريات السوفتبول وتشجيع الأولاد على لعب الشطرنج والطاولة والبينغ-بونغ في الجزء الظليل من المدرسة. وكان العديد من تلاميذ المدرسة يتناولون أقراص الملح التي أعطتها لهم أمهاتهم لمكافحة الحرّ، ويرغبون في اللعب مهما ارتفعتْ درجات الحرارة، حتى عندما تصبح الطبقة العليا الأسفلتيّة من أرض الملعب ليّنة وتشعّ حرارة من تحت أحذيتهم الرياضيّة وتُصبح حرارة الشمس عالية حتى كنتَ تظنّ أنّها بدل أنْ تسفع بشرتك سوف تزيل لونها بالكامل قبل أنْ تحرقك في الحال. وبعد أنْ انتهى السيد كانتور من سماع ولُولَة والد ألان، تساءلَ إنْ لم يكن عليه أنْ يوقِف الألعاب الرياضيّة كلها عندما تقترب الحرارة من أربعين درجة مئويّة وحتى نهاية فصل الصيف. بهذه الطريقة سوف يقوم على الأقلّ بعملٍ ما، ولا يعلم إنْ كان ذلك العمل سيشكّل فرقاً أم لا في نشر مرض شلل الأطفال.

كان محل سيدْ خالياً تقريباً. كان هناك شخص يُكيل السباب على آلة لعبة الكرة والدبابيس وسط الجو الكئيب في الجزء الخلفي من المحل، وكان اثنان من طلاب المدرسة الثانوية يعرفهما يتسكّعان حول صندوق عزف الموسيقى الذي يبثّ أغنية «أراك لاحقاً»، إحدى أغاني الصيف المُفضّلة. كانت مارسيا تحب الاستماع إليها في المذياع وكانت رائجة بسبب كل الزوجات والصديقات الوحيدات بعد مغادرة أزواجهن وأحبّائهن للاشتراك في الحرب. والآن يتذكّر أنّه ومارسيا رقصا على أنغام الأغنية في شرفة منزلها الخلفيّة خلال الأسبوع الذي سبقَ رحيلها إلى إنديان هيل. وقد بدآ مع الرقص الهادئ وهما يتعانقان ويُصغيان إلى أغنية «أراك لاحقاً» يشتاق كلٌ منهما إلى الآخر حتى قبل رحيل مارسيا.

لم يكن هناك أحد جالس في أيٍ من المقصورات ولا على أيٍ من مقاعد البار عندما جلس بَكي على المقعد المُجاور للباب الحاجب ونافذة تقديم الطلبات المُطلّة على جادّة تشانسلر، في ممرّ أيّ تيار هواء يمكن أنْ يتدفّق قادماً من جهة الشارع. كانت هناك مروحة كبيرة على كلا طرفيّ البار، ولكن لم يكن لهما أي تأثير يُذكَر. كان المكان شديد الحرارة ويفوح برائحة منتشرة لمقليات فرنسيّة تُقلى بالشحم الحامي.

حصل على سجق وعلى بيرة جذور مُثلّجة وباشر بالأكل على نضد البار وحده. وخارج النافذة، عبر الطريق، ظهر هوراس من جديد، يجرّ قدميه ببطء جرّاً إلى أعلى التل وسط حرّ نيوارك الاستوائيّ القاتل، قاصداً بلا أدنى شك الملعب، غير مُدرك أنَّ هذا اليوم هو السبت وأنَّ الملعب، في الصيف، يُغلِق أبوابه عند ظهيرة أيام السبت. (لم يكن جليّاً إنْ كان يفهم كلمات «صيف» و«ملعب» و«مُغلَق» و«ظهيرة»، تماماً كما أنَّ فشله في الاجتياز إلى الجهة المقابلة من الشارع يعني عجزه عن التفكير البدائيّ لتمييز «الظلّ» أو حتى أنْ يسعى إليه غريزيّاً، كما يمكن لأي كلب أنْ يفعل في يومٍ كهذا). وعندما سيكتشف هوراس أنَّ أياً من الأولاد لم يعُد من المدرسة، ماذا سيفعل بعد ذلك؟ هل سيجلس على مدى ساعات على المُدرَّج المكشوف في انتظار وصولهم، أم سيستأنف جولاته تلك في الحيّ التي تجعله يبدو كالسائر في نومه في منتصف النهار؟ نعم، لقد مات ألان وشلل الأطفال يُشكِّلُ تهديداً للأطفال كلهم، ومع ذلك لم يجد السيد كانتور في مراقبة هوراس وهو يجوب الشوارع وحده تحت شراسة أشعة الشمس، معزولاً وبلا عقل في عالمٍ يتلظّى، إلّا مشهداً يبثّ اليأس في النفس.

عندما كان الصِبية يلعبون الكرة كان هوراس إمّا يجلس بصمت على طرف المقعد حيث يجلس الفريق الضارب أو ينهض ويجتاز أرض الملعب، ويتوقف على مسافة قدم أو اثنين من أحد اللاعبين في الملعب ويبقى هناك لا يأتي بأيّة حركة. كان ذلك يحدث طوال الوقت، وكان الجميع يعلمون أنَّ الوسيلة الوحيدة ليتخلّص أحد اللاعبين من هوراس

– ومن ثم يعود ليُركِّز على المباراة – هي مُصافحة يد الأحمق الخالية من الحياة والقول له «كيف حالك، هوراس؟» وعلى الأثر سوف يبدو الرضا على هوراس ويمضي ليقف بجوار لاعب آخر. كان ذلك أقصى ما يطلبه من الحياة – أنْ يجد مَنْ يُصافحه. لم يكن أيٌّ من أولاد الملعب يضحك منه أو يزعجه – على الأقلّ ليس بوجود السيد كانتور – ما عدا الأولاد ذوي الحيويّة الجامحة أمثال آل كوفرمان، مايرون وداني. لقد كانوا فتية أقوياء، ضخام الجثث، بارعين في الألعاب الرياضية، مايرون المفرط في حماسه، المولع بالقتال وداني الخبيث، الكتوم. الأكبر سنّاً على وجه الخصوص، البالغ أحد عشر عاماً، مايرون كان يتمتَّع بكل مواصفات المُتنمِّر ويتدخّل كلما نشب خلاف بين الفتية في الملعب أو ينضمّ إلى الفتيات اللواتي يلعبن نط الحبل. لم يكن السيد كانتور يهدر أي قدر من وقته في محاولة غرس روح اللعب العادل في مايرون الجامح أو أيضاً لمنعه من مُضايقة هوراس.

يقول مايرون «انظر، انظر يا هوراس. انظر ماذا أفعل». وعندما يرى هوراس رأس حذاء مايرون الرياضيّ يربت بإيقاع مُنتظم على درج المُدرَّج، تبدأ أصابعه ترتعش ويتوهّج وجهه ويحمرّ وسرعان ما يلوِّح بذراعيه في الهواء وكأنّه يطرد سرباً من النحل. وخلال ذلك الصيف اضطر السيد كانتور أكثر من مرَّة إلى أنْ يردع مايرون كوفرمان ويُحذِّره من إعادة الكرَّة. ويسأل مايرون «ماذا فعلت؟ ماذا فعلت؟»، من دون أنْ يُقنِّع وقاحته بابتسامة عريضة، «إنني أربتُ بحذائي، يا سيد كانتور – أليس لي الحقّ في التربيت بحذائي؟»، فيجيب السيد كانتور «كفى، يا مايرون». وكان بحوزة الفتى كوفرمان، المعروف بلقب داني، مُسدس دمية من المعدن كأنّه مُسدّس حقيقيّ، يحمله في جيبه، حتى وهو في الملعب في مركز القاعدة الثانية. وكان المُسدّس الدمية يُصدر صوت انفجار ضعيف وينبعث منه دخان عندما يضغط الزناد. كان داني يُحب أنْ يقترب من وراء الأولاد ويُحاول أنْ يُخيفهم به. وكان السيد كانتور يتحمّل ذلك المُزاح الصاخب فقط لأنَّ الأولاد الآخرين لم يكونوا يُخافون حقاً. ولكن ذات

يوم شهر داني السلاح الدمية ولوَّحَ به في وجه هوراس وأمره برفع يديه في الهواء، فلم يفعل هوراس ذلك، فأطلقَ داني صوت السلاح خمس مرات وهو يضحك. فدفع الضجيج والدخان هوراس إلى العويل، بطريقته الخرقاء، البلهاء، وانطلقَ هارباً من وجه مُعذِّبه في الملعب. فصادرَ السيد كانتور المُسدَّس - وبعد ذلك احتفظَ به في درج مكتبه، مع أصفاد «الشريف» الدمية التي كان داني قد استخدمها في وقت باكر من الصيف لإخافة أولاد الملعب الأصغر سنّاً. ولم تكن تلك المرة الأولى التي يُرسِل فيها داني كوفرمان إلى منزله بقيّة النهار مع رسالة يُخبر فيها أمّه عمّا فعله ابنها الأصغر. وكان يشكُّ في أنّها تقرأها.

قال يشي، الرجل ذو المئزر المُلطَّخ بالمستردة، الذي يعمل منذ سنين خلف نُضد في مطعم سِيدْ، للسيد كانتور «الحركة متوقفة هنا»

قال السيد كانتور «الجو حارّ. إنّه الصيف. وهذه عطلة نهاية الأسبوع. والجميع ذهبوا إلى الشاطئ أو لزموا بيوتهم»

«كلا، لا أحد يأتي بسبب ذلك الفتى»

«ألان مايكلز؟»

قال يشي «نعم. لقد أكل السجق هنا، وعاد إلى المنزل وأُصيبَ بشلل الأطفال ومات، والآن أصبح الجميع يخشون المجيء إلى هنا. هذا هراء. إنَّ المرء لا يُصاب بالمرض من السجق. إننا نبيع الآلاف منه ولا أحد يُصاب بشلل الأطفال. ثم يُصاب طفل به فيقول الجميع: (إنَّ السبب هو السجق الذي يبيعه سيد، السجق الذي يبيعه سيد!). إنّه سجق مطبوخ - كيف يمكن أنْ تُصاب بالعدوى من سجق مطبوخ؟»

قال السيد كانتور «الناس خائفون. خائفون حتى الموت، ولهذا يقلقون بشأنِ كل شيء»

قال يشي «إنَّ الذين جلبوا المرض هم أولاد الحرام الإيطاليّون»

قال السيد كانتور «هذا مُستبعَد»

«بل فعلوا. لقد بصقوا في كل مكان»

«أنا كنتُ حاضراً. وأزلنا البُصاق كلّه وغسلنا المكان بالنشادر»

«أنتم أزلتم البصاق لكنكم لم تُزيلوا شلل الأطفال. لا يمكن إزالة شلل الأطفال. فهو لا يُرى. إنّه ينتشر في الهواء ويفتح الناس أفواههم ويستنشقونه وبعد ذلك يُصابون به. وليس له أيّة صِلة بالسجق»

لم يُدلِ السيد كانتور بأي جواب، وبينما كان يُصغي إلى الأغنية المألوفة التي يبثّها صندوق الموسيقى - وفجأة اشتاقَ إلى مارسيا - انتهى من تناول وجبته.

أراك لاحقاً
في كل يوم من أيام الصيف الممتعة
في كل ما هو رشيق ومرِح،
سأفكِّر فيك دائماً على هذه الصورة...

قال يشي «لنفترِض أنَّ الصبي تناول المثلجات في محل هاليم، فهل كان الناس سيمتنعون عن تناول المثلجات في محل هاليم. لنفترِض أنّه تناول وجبة خفيفة في المطعم الصيني - فهل كان الناس سيمتنعون عن التردُّد على ذلك المطعم؟»

قال السيد كانتور «ربما»

سألَ يشي «وماذا عن الولد الآخر الذي مات؟»

«أي ولد آخر؟»

«الولد الذي توفيَ في صباح هذا اليوم»

«أي ولد توفي؟ هيربي شتاينمارك مات؟»

«نعم. هو لم يأكل أي سجق هنا»

«أمتأكّد من أنه مات؟ مَنْ أخبرك أنّه هيربي شتاينمارك؟»

«شخص. شخص جاء قبل قليل وأخبرني. هناك شخصان أخبراني»

دفعَ السيد كانتور ثمن الطعام ليشي ومن ثم هرع، على الرغم من الحرّ الشديد - وغير خائف من ذلك الحرّ - مُغادراً مطعم سيد واجتاز شارع تشانسلر وعاد إلى الملعب، وأسرعَ هابطاً الدَّرَج إلى باب الطابق التحتيّ، وفتحه، متوجّهاً إلى غرفة مكتبه. وهناك رفعَ سمّاعة الهاتف وطلب رقم مستشفى بيت إسرائيل، وهو أحد أرقام الطوارئ المُدوّنة على بطاقة مُثبّتة بدبّوس إلى لوحة الإعلانات التي فوق جهاز هاتفه. وفوقه مباشرة كانت بطاقة أخرى، تحمل مُقتَطَفاً كان قد كَتَبَه بقلم حبر نقله عن جوزيف لي، المسؤول عن نشاط الملعب، كان قد قرأ عنه في كليّة باترز؛ كانت مُعلَّقة هناك منذ أول يوم وصل فيه لاستلام عمله. «إنَّ اللعب بالنسبة إلى البالغ هو استجمام، تجديد للحياة؛ واللعب بالنسبة إلى الطفل هو نموّ، واكتسابٌ للحياة». وفوق هذا ثُبِّتَتْ رسالة وصلَتْ بالبريد قبل ذلك بيوم من رئيس إدارة الاستجمام موجّهة إلى مديري الملاعب:

نظراً للخطر المُحدِق بأطفال نيوارك وسط وباء شلل الأطفال المُستشري حاليّاً، نرجو منكم أنْ تولوا انتباهاً خاصاً جداً لِما يلي. إذا لم يتوفر لديكم ما يكفي من معدّات النظافة، اطلبوها في الحال. رشّوا يوميّاً أحواض الاغتسال، وأحواض المراحيض، والأرضيّات والجدران بمُبيد مُطهِّر، واحرصوا على نظافة كل شيء نظافة تامة. يجب أنْ تُنظَّف المراحيض بدقّة في كل أنحاء المُنشأة وتحت إشرافكم. وأولوا ما سبق اهتمامكم الشخصي والمتواصل ما دام الوباء الحالي يُهدِّد المُجتمع.

عندما وصل إلى المستشفى، سألَ المدير عن استعلامات المرضى ثم سأل عن حالة هربرت شتاينمارك، فقيل له إنَّ المريض لم يعُد موجوداً في المستشفى. قال السيد كانتور مُحتجّاً «لكنّه يضع رئة معدنيّة»، فقال المدير «المريض مات»

مات؟ ما صِلة هذه الكلمة بهيربي البدين، والممتلئ والمُبتسِم؟ لقد كان الأقلّ تناسُقاً بين فتية الملعب كلهم، والأكثر تملُّقاً. كان دائماً من بين الفتية الذين ساعدوه في إخراج المُعدّات منذ الصباح الباكر. وفي درس الرياضة في مدرسة تشانسلر، كان لا يُرجى منه أمل في تمارين الحصان الثابت والمتوازي وعلى الحلقات وارتقاء الحبل، ولكنْ لأنه كان يُجرِّب باجتهاد وكان ودوداً على الدوام، لم يكن السيد كانتور يمنحه أقلّ من علامة متوسطة. وألان الرياضي بالفِطرة وهيربي الرياضي الميؤوس منه، والمُفتقِر بالكامل إلى الرشاقة البدنيّة - كلاهما كانا يلعبان في الملعب يوم حاول الإيطاليون أنْ يقتحموا الملعب، وكلاهما ماتا، أصبحا من ضحايا شلل الأطفال وهما في سن الثانية عشرة.

اندفعَ السيد كانتور على طول رواق الطابق التحتيّ إلى غرفة الغسل التي كان فتية الملعب يستخدمونها وانتزعَ، وهو تحت رحمة حزنه، ولا يعرف كيف يتصرَّف مع بؤسه، ممسحة البوّاب، وحمل دلواً من الماء، ووعاءً مملوءاً بالمبيد المُطهِّر ومسح كامل الأرضيّة القرميديّة، وهو يتصبَّب عرقاً بغزارة أثناء عمله. بعد ذلك ولجَ غرفة غسل الفتيات، وقام بنشاط، وبحنقٍ مجنون، بتنظيف الأرضيّة هناك. ثم، عاد إلى المنزل، وملابسه ويداه تفوح برائحة المبيد.

في صباح اليوم التالي، وبعد أنْ حلقَ ذقنه، وأخذ دشّاً، وتناول طعام إفطاره، أعاد تلميع حذائه الجيد، وارتدى بذلته، وقميصه الأبيض، ووضع الربطة الأشدّ قتامة بين ربطات عنقه، واستقلّ الحافلة إلى شارع شلي. كان الكنيس أشبه بعلبة منخفضة من الآجر الأصفر الموحِش في مبنى يقع على الطرف المقابل من أرضٍ نما عليها العشب حُوِّلَتْ إلى حديقة للخضروات المنزليّة في الحيّ، ربما هي الحديقة التي كان ألان يوليها عنايته الفائقة، البقعة الخاصة به التي زرعها بالخضروات. رأى السيد كانتور بضع نساء، يعتمرن قبعات من القش عريضة الحواف

لتقيهنّ حرارة شمس الصباح، منحنيات ينزعن الأعشاب الضارة عن بقع من الأرض مُجاورة للوحة إعلانات. وأمام الكنيس توقّفَ صفٌ من السيارات، إحداها كانت سيارة دفن موتى سوداء، وقفَ سائقها على حافة الرصيف وأخذ يرفع الغطاء عن الحاجز الأمامي. وداخل السيارة رأى السيد كانتور النعش. كان مُستحيلاً عليه أنْ يُصدِّق أنَّ ألان مُسجّى داخل ذلك الصندوق البسيط، الشاحب، المصنوع من خشب الصنوبر لمجرّد أنّه أُصيبَ بمرض صيفيّ. ذلك الصندوق الذي لا يمكن تجنّبه. ذلك الصندوق الذي سيبقى فتى في الثانية عشرة داخله في عُمر الثانية عشرة إلى الأبد. بقيّتنا سوف تتقدَّم في السن يوماً بعد يوم، أما هو فسوف يبقى في الثانية عشرة. سوف تمرّ ملايين السنين، ويبقى هو في الثانية عشرة.

أخرجَ السيد كانتور القلنسوة التقليديّة المطويّة من جيب بنطلونه، ووضعها على رأسه، وانتقلَ إلى الداخل، حيث عثر على مقعدٍ خالٍ بالقرب من الجزء الخلفيّ. تبع المصلّين في قراءة كتاب الصلوات وانضمَّ إلى الجوقة في الترتيل. وفي منتصف الصلاة، سُمِعَ صوت امرأة يصرخ، «لقد فقدتِ الوعي! ساعدونا!». توقف الحاخام سلافين قليلاً عن متابعة المراسم بينما اندفعَ أحدهم، طبيبٌ في الغالب، على طول الممر بين المقاعد وارتقى الدَّرَج إلى الشرفة، لكي يعتني بالمرأة التي فقدَت الوعي في قسم النساء. كانت درجة الحرارة في الكنيس قد تجاوزت الثلاثين على الأقلّ، وكانت ربما أعلى من ذلك على الشرفة. ولا عجب في أنَّ إحداهن قد فقدتِ الوعي. ولو لم تتوقف شعائر الصلاة، لبدأ الناس يفقدون الوعي في كل مكان. حتى السيد كانتور شعر بقليل من الدوار وهو داخل بذلته الصوفيّة التي من المُفترَض أنْ يرتديها في فصل الشتاء.

كان المقعد المُجاور له خالياً. ظلَّ يودّ لو أنَّ ألان يدخل ويشغله. ودَّ لو أنَّ ألان يدخل حاملاً قفّاز لعبة البيسبول ويجلس إلى جواره ويأكل الشطيرة التي يُخرجها من كيس الغداء الموضوع إلى جوار السيد كانتور، كما كان يفعل دائماً عند الظهيرة وهو جالس على المُدرَّج.

ألقى كلمة التأبين عمّ ألان، إيزادور مايكلز، الذي كانت صيدليّته تقوم عند مُلتقى شارعي وينرايت وتشانسلر والذي كان الزبائن كلهم يُخاطبونه بلقب دكتور. كان رجلاً يبدو عليه المرح، ممتلئ الجسم، وأسمر البشرة كوالد ألان، ولديه البقع المُبرغلة نفسها تحت جفنيّ عينيه. كان وحده يتكلَّم لأنه لم يشعر أي عضو آخر في العائلة بأنّه قادر على ضبط انفعالاته بالقدر الكافي ليقوم بالمهمة. كان هناك الكثير من الأشخاص يجهشون بالبكاء، وليس في القسم الخاصّ بالنساء فقط.

قال عمّه إيزادور، مُبتسماً بشجاعة «لقد أنعم الله علينا بألان أفرام مايكلز طوال اثني عشر عاماً، وأنعمَ علينا بابن أخٍ أحببته كابنٍ لي منذ أنْ وُلِد. كان ألان، وهو في طريقه كل يوم عائداً من المدرسة إلى المنزل، دائماً يتوقّف عند المحل ويجلس عند النضد ويطلب مشروب الشوكولاتة المملّتة. ومع بداية تردّده على المدرسة كان أنحل طفل في العالم، وفكّرتُ في أنْ أُسمِّنه. وعندما أكون بلا عمل، أرافقه إلى نافورة الصودا وأصنع له المشروب بنفسي وأُزيد في الملت لكي أزيد وزنه. وبعد بداية ذلك النظام، استمرَّ على مدار الأعوام. كم كنتُ أستمتع بتلك الزيارات بعد انتهاء الدوام المدرسيّ التي قام بها ابن أخي الاستثنائيّ!»

هنا اضطرَّ إلى السكوت برهة لكي يستجمع شتات نفسه.

استأنفَ قائلاً «لقد كان ألان مرجِعاً في مجال السمك الاستوائيّ. كان في وسعه أنْ يتكلَّم كخبير حول كل ما تقوم به للعناية بالأنواع المختلفة من الأسماك الاستوائيّة. لا شيء كان أشدّ إثارة من زيارة المنزل والجلوس مع ألان بجوار حوض السمك وتركه يشرح لك كل شيء عن السمك وكيف يُنجِب الأطفال وما إلى ذلك. وفي وسعك أنْ تجلس هناك معه طوال ساعة ولا ينتهي من الإفضاء إليك بكل ما يعرف. وتُغادر ألان وعلى وجهك ابتسامة ومعنوياتك مرتفعة، إلى جانب أنك تتعلَّم شيئاً. كيف فعل ذلك؟ كيف استطاع ذلك الولد أنْ يفعل ما فعله من أجلنا نحن الراشدين؟ ما الذي كانه سرّ ألان الخاصّ؟ كان أنّه يعيش كل يوم من حياته، ويرى

أعجوبة في كل شيء ويبتهج بكل شيء، سواء بالمشروب المُملَّتِ الذي يتناوله بعد انتهاء الدوام المدرسيّ، أو بالسمك الاستوائيّ، أو بالألعاب الرياضيّة التي يتفوَّق فيها، أو بمساهمته بالمجهود الحربيّ في رعايته حديقة الخضروات، أو بما تلقّاه من دروس في المدرسة في ذلك اليوم. لقد ملأ ألان سنواته الاثنتي عشرة بالاستمتاع الصحيّ بأكثر مما يفعله معظم الناس في حياتهم كلّها. ومنح ألان من السرور للآخرين أكثر مما يفعله معظم الناس طوال حياتهم. لقد انتهتْ حياة ألان...»

هنا اضطر إلى التوقف من جديد، وعندما استأنف فعل ذلك بصوت أجشّ وهو على شفا البكاء.

ردَّدَ قائلاً «لقد انتهتْ حياة ألان، ومع ذلك، ووسط حُزننا، ينبغي أنْ نتذكَّر أنه بينما كان يعيشها، كانت حياةً بلا نهاية. كل يومٍ كان بلا نهاية بالنسبة إلى ألان بسبب فضوله. كل يوم كان بلا نهاية بالنسبة إلى ألان بسبب كياسته. وبقيَ طفلاً سعيداً طوال حياته، ومع كل أمر قام به الطفل، كان دائماً يبذل فيه أقصى جهده. إنَّ في هذا العالم مصائر أسوأ بكثير من مصيره»

بعد ذلك، وقفَ السيد كانتور في الخارج على دَرَج الكنيس لكي يُقدِّم عزاءه لعائلة ألان ولكي يشكر عمّ ألان على كل ما قال. مَنْ كان يظنّ، وهو يُراقبه واقفاً بمعطفه الأبيض في صيدليّته، يحصي عدد الأقراص المذكورة في الوصفة الطبيّة لشخص ما، أنَّ الدكتور مايكلز يمكن أنْ يكون خطيباً مُفوّهاً، خاصة بينما الناس المنتشرون في كل أرجاء مكان الصلاة، فوق وتحت، ينوحون من شدَّة تأثير كلماته؟ وشاهد السيد كانتور أربعة من فتية الملعب يخرجون معاً بعد انتهاء الشعائر: سبكتور، وسوبلسون، وتاباك، وفينكلستاين. كانوا كلهم يرتدون بذلات ليست على مقاسهم وقمصاناً بيضاء ويضعون ربطات عنق وينتعلون أحذية قاسية، والعَرَق يسيل على وجوههم. ولم يكن مُستحيلاً أنَّ أكبر صعوبة في ذلك اليوم كانت كونهم اختنقوا وسط كل ذلك الحرّ بالياقة المُنشّاة وربطة العنق وليس نتيجة

لقائهم الأول مع الموت. ومع ذلك، ارتدوا أفضل ما لديهم من ملابس وحضروا إلى الكنيس على الرغم من الجوّ، واقتربَ السيد كانتور منهم وأمسك كلاً منهم من كتفيه ومن ثم أخذ يربت على ظهره مُطمئِناً. قال لهم بهدوء «سوف يسعد ألان بحضوركم. وعملكم هذا حكيم جداً»

ثم لمسَ أحدهم ظَهره هو. «مع مَنْ أنتَ ذاهب؟»

«ماذا؟»

«هناك -» وأشار الشخص إلى سيارة على مسافة من سيارة الموتى. «هناك، اذهب مع آل بكرمان» واندفع نحو سيارة بليموث متوقفة عند حافة الرصيف.

لم يكن في نيّته أنْ يخرج إلى المقبرة. بعد انتهاء المراسم في الكنيس، كان في نيّته أنْ يعود لكي يُساعد جدَّته في إنهاء أعمال نهاية الأسبوع الروتينيّة. لكنه ركب السيارة التي كان بابها مفتوحاً لأجله وجلس على المقعد الخلفي بجوار امرأة تعتمر قبّعة ذات خِمار أسود كانت تجلب الهواء إلى وجهها بتحريك منديل أمامه، وكانت البودرة التي تضعها مُخطّطة بتأثير العرَق. وعلى مقعد السائق جلس رجل ضئيل مُكتنز يرتدي بذلة قاتمة اللون، ذو أنف مكسور كأنف جدِّه وربما للسبب نفسه: مُعاداة الساميّة. وإلى جواره جلست فتاة بسيطة، سوداء الشعر في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، قدَّمها إليه على أنها ابنة عم ألان ميريل. وأكبر آل بكرمان سناً كانت خالة ألان وخاله من جانب أمّه. وعرَّفَ السيد كانتور عن نفسه بأنّه أحد أساتذة ألان.

كانوا مُضطرين إلى الجلوس حوالي عشر دقائق داخل السيارة الحارَّة، في انتظار أنْ يتشكَّل موكب الجنازة خلف سيارة الموتى. حاول السيد كانتور أنْ يتذكَّر ما قاله إيزادور مايكلز في التأبين عن كيف أنَّ حياة ألان بدتْ للفتى، في أثناء حياته، بلا نهاية، ولكن كان ينتهي به الأمر بدل ذلك إلى تخيُّل ألان يُشوى كقطعة من اللحم داخل النعش.

تقدّموا على طول شارع شلي ثم إلى جادَّة تشانسلر، حيث انعطفوا يساراً

وبدأوا المسير الوئيد على طول تشانسلر، عبوراً من أمام صيدليّة عمّ ألان ونحو المدرسة الابتدائيّة ثم المدرسة الثانويّة على قمّة التلّ. لم تكد تُلحظ أيّة حركة مرور أخرى - كانت مُعظم المتاجر تُغلق أبوابها ما عدا متجر تبانتشنيك، الذي يقدِّم في صباح يوم الأحد وجبة السمك المُدخّن، وزوايا بيع الحلوى التي تبيع صحف يوم الأحد، والخبّاز الذي يبيع كعكة القهوة وخبز اليهود لوجبة إفطار يوم الأحد. وخلال سنوات عمره الاثنتي عشرة، خرجَ ألان إلى هذا الشارع ألف مرّة، متردِّداً جيئة وذهاباً إلى المدرسة وإلى الملعب، خرج ليُحضِر شيئاً لأمّه، وليُقابل أصدقاءه في محل هاليم، ومشى صاعداً هابطاً التل إلى المتنزّه اليهودي ليصطاد السمك ويتزلّج على الجليد ويُمارس التجذيف في البحيرة. والآن هو يجتاز جادة تشانسلر للمرّة الأخيرة، على رأس موكب جنازة داخل نعش. قال السيد كانتور في نفسه، إنْ كانت هذه السيارة أشبه بفرن، فتخيّل كيف يكون داخل النعش.

رانَ الصمت على كل مَنْ في السيارة إلى أنْ كادوا يصلون إلى قمّة التل وكانوا يمرّون من أمام محل سيد لبيع السجق.

قالت السيدة بكرمان «لماذا أكل في هذه البؤرة القذرة؟ لِمَ لمْ ينتظر إلى أنْ يصل إلى المنزل ويتناول شيئاً من البرّاد؟ لماذا يسمحون لهذا المحل بالاستمرار في فتح أبوابه أمام المدرسة؟ وفي فصل الصيف، أيضاً»

قال بكرمان «إديث، اهدئي»

قالت ميريل ابنة عم ألان «ماما، كل الأولاد يأكلون هناك. إنّه مكان للالتقاء»

قالت السيدة بكرمان «إنّه حمأة. في موسم مرض شلل الأطفال، وبالنسبة إلى فتى بذكاء ألان إنَّ التردُّد على محل كهذا، وفي هذا الحرّ -»

«يكفي، إديث. الجو حارّ. كلّنا نعلم أنّه حارّ»

قالت السيدة بكرمان مع وصولهم قمّة التل وكانوا يمرّون من أمام الواجهة الحجريّة الباهتة للمدرسة الابتدائيّة حيث كان السيد كانتور

يُدرِّس، «ها هي مدرسته. كم فتى أحبَّ المدرسة كما أحبّها ألان؟ منذ أول يوم دراسيّ أحبّها»

لعلَّ الملاحظة كانت موجَّهة إليه، بوصفِهِ مُمثّلاً للمدرسة. قال السيد كانتور «لقد كان طالباً ممتازاً»

«وفي المدرسة اليهوديّة. كان سيُصبح طالب شرف في المدرسة اليهوديّة. كان ينوي أنْ يتلقى دروساً في اللاتينيّة. اللاتينيّة! ولديّ لقبٌ له. كنتُ أُطلق عليه لقب اللامع»

قال السيد كانتور «وهكذا كان»، مُفكِّراً في والد ألان في المنزل وعمّه في الكنيس والآن عمّته في السيارة – كلّهم يُغدقون عليه المديح للسبب الجيد نفسه: لأنَّ ألان لا يستحق أقلّ من ذلك. سوف يظلون ينوحون حتى مماتهم لفقدانهم هذا الفتى الرائع.

قالت السيدة بكرمان «كان ينوي أنْ يدرس العلوم في الجامعة. أراد أنْ يُصبح عالِماً وأنْ يُشفي من الأمراض. قرأ كتاباً عن لوي باستور وعرِفَ كلّ شيء عن الطريقة التي اكتشفَ بها لوي باستور أنَّ الجراثيم لا تُرى بالعين المُجرَّدة، لقد أراد أنْ يُصبح لوي باستور آخر» وأخذتْ تُحدّد معالم المُستقبل الذي لن يأتي أبداً. وختمتْ قائلة «وبدل ذلك، اضطرَّ إلى أنْ يأكل في مكان يعجّ بالجراثيم»

قال السيد بكرمان «إديث، يكفي. نحن لا نعلم كيف أُصيبَ بالمرض أو من أين. إنَّ شلل الأطفال ينتشر في المدينة كلّها. هناك وباء. ترينه كيفما نظرتِ. لقد كانت إصابته قوية ومات. هذا كل ما في الأمر. وكل ما عدا هذا ثرثرة لا تُفضي بك إلى أيّة نتيجة. نحن لا نعلم إلى أين كان سيؤول مستقبله»

قالتْ بغضب «بل نعلم! ذلك الفتى كان يمكن أنْ يُصبح أيّ شيء!»

«حسنٌ، أنتِ على صواب. لن أجادلك. فلنذهب إلى المقبرة ونُجري له دفناً لائقاً. هذا أقصى ما في وسعنا أنْ نفعله الآن»

قالت السيدة بكرمان «والصبيّان الآخران. ندعو الله ألّا يحدث لهما أي شيء»

قال السيد بكرمان «إنهما بخير حتى الآن، وسوف ينجوان. قريباً سوف تنتهي الحرب وسوف يعود لاري ولبني إلى الوطن سالمَين»

قالتْ «ولن يريا أخاهما الأصغر أبداً. سيبقى ألان غائباً، ولا سبيل إلى عودته»

قال «إديث، نحن *نعلم* هذا. إديث، أنتِ تتكلَّمين ولا تقولين أيّ شيء لا يعرفه الجميع»

قالت ميريل «دعها تتكلَّم، بابا»

سألَ السيد بكرمان «ولكن ما فائدته، هذا الكلام المتواصل؟»

قالت الفتاة «إنّه يفيد. إنّه يُفيدها»

قالت السيدة بكرمان «شكراً لك، يا عزيزتي»

كانت النوافذ كلها مُغلقة، لكنَّ السيد كانتور شعر كأنّه متدثِّر ليس ببذلة بل بغطاء سرير. كان موكب الجنازة قد وصل إلى المتنزّه وانعطفَ يميناً إلى جادة إليزابيث وكان يجتاز هيلسايد ويعبر سكّة الحديد التي تدخل بلدة إليزابيث، وأمِلَ في أن يصلوا بسرعة إلى المقبرة. وتخيَّل أنّه لو بقي ألان يُشوى داخل ذلك النعش مدَّة أطول، فسوف يشتعل النعش بصورة ما وينفجر، وسوف تنفجر بقايا الفتى وتتناثر في كل أرجاء سيارة الموتى وفي الشارع، كأنَّ قنبلة يدويّة انفجرت في الداخل.

لماذا لا يضرب مرض شلل الأطفال إلّا في فصل الصيف؟ كان عليه أنْ يتساءل، وهو في المقبرة، واقفاً عاري الرأس إلّا من القلنسوة التقليديّة، إنْ لم تكن أشعّة الشمس نفسها هي التي تُسبب شلل الأطفال. وعند منتصف النهار، وفي ذروة ضراوتها، بدا كأنّها قويّة إلى درجة تسبب الإعاقة أو الموت، وأنَّ من المُرجَّح أنْ تفعل هذا أكثر مما يفعله جرثوم مِجهريّ داخل قطعة سجق.

كان قد حُفِرَ قبر لاحتواء نعش ألان. كان القبر المحفور الثاني الذي يراه السيد كانتور في حياته، الأول كان قبر جدِّه، قبل ذلك بثلاث سنوات،

قُبيل بداية الحرب. حينئذٍ أثقلَ كاهله الاعتناء بجدَّته والإمساك بها طوال فترة شعائر الدفن في المقبرة لكيلا تنهار ساقاها. بعد ذلك، انهمكَ بالاعتناء بها وأصبحَ يُلازمها في كل ليلة وأخيراً يخرج معها مرّة في الأسبوع لحضور فيلم سينمائيّ ولتناول المُثلّجات ولم يتوفّر له الوقت للتأمُّل فيما خسره هو نفسه إلّا بعد فترة من الزمن. ولكن بينما كان نعش ألان يُدلّى إلى بطن الأرض - واندفعت السيدة مايكلز نحو القبر، وهي تصرخ «كلا! ليس طفلي!» - تكشَّفَ الموتُ أمامه بقوّة لا تقلّ عن قوة لسع أشعة الشمس المتواصلة لقمّة رأسه والقلنسوة.

انضمّوا جميعاً إلى الحاخام في تلاوة صلاة الجنازة، مُسبّحين بعظمة الله، تسبيحاً فائضاً، غير محدود، الله نفسه الذي سمحَ للموت بتدمير كل شيء، حتى الأطفال. وقد توفَّرَ لعائلة ألان، بين موت ألان مايكلز والترتيل الجماعيّ للصلوات المُمجِّدة لله، فاصل من الوقت مُدَّته أربعٌ وعشرون ساعة لكراهيّة الله والاشمئزاز منه لِما أنزله عليهم - طبعاً، هذا لا يعني أنّه خطر لها أنْ تكون هذه إجابتها على موت ألان، وطبعاً ليس من دون الخوف من إثارة غضب الله، وحثّه على انتزاع لاري وليني مايكلز من بينهم بعد ذلك.

ولكن ما لم يخطر ربما على بال عائلة مايكلز خطر للسيد كانتور. في الحقيقة، هو نفسه لم يجرؤ على الانقلاب ضد الله بسبب أخذه جدّه عندما حان وقت وفاة الرجل العجوز. ولكنْ ماذا عن قتل ألان بمرض شلل الأطفال في سن الثانية عشرة؟ وماذا عن وجود مرض شلل الأطفال نفسه؟ هل يمكن أنْ يكون هناك غفران - ناهيك عن التمجيد - في وجه تلك القسوة المجنونة؟ كان سيبدو هذا الكلام للسيد كانتور أقلّ إهانة لو أنَّ أفراد المجموعة المجتمعة في الحِداد أعلنوا أنّهم مُشاركون في احتفاليّة شمسيّة فخمة، وأنّهم أبناء إلهة شمسيّة راسخة، وانغمسوا بالأسلوب المتّقد لحضاراتنا الوثنيّة القديمة في نصفنا من الكرة الأرضيّة، في رقصةٍ شمسيّة شعائريّة حول قبر الفتى الميت - هذا أفضل. من الأفضل تقديس

واسترضاء الأشعّة الثابتة للإلهة العُظمى الشمس على الرضوخ لكيانٍ سامٍ لارتكابه أيّة جريمة وحشيّة تُرضيه. نعم، من الأفضل بما لا يُقاس التسبيحُ بحمد مصدر الطاقة التي لا يُستعاض عنها، ودعمتْ وجودنا منذ بدايته - من الأفضل بما لا يُقاس أنْ يُبجِّل بالصلاة لقاءه اليوميّ الملموس بتلك العين الذهبيّة كليّة الوجود المعزولة في جسد السماء الأزرق وبطاقتها الثابتة على حرق الأرض وتحويلها إلى رماد - على تقبُّل الكذبة الرسميّة القائلة إنَّ الله طيِّب، والرضوخِ أمام قاتل للأطفال بدمٍ بارد. إنه الأفضل من أجل الحِفاظ على هيبة المرء، وإنسانيّته، واستحقاقه معاً، بالإضافة إلى فكرته اليوميّة عمّا يجري هنا.

Y'hei sh'mei m'vorakb l'olam ul'omei ol'mayoh.

فليتبارك اسمه العظيم إلى أبد الآبدين.

Yıs'borakh v'yıshi'tabach v'yis'po'ar v'yis'romam v'yis'nasei

فليتبارك، ويُحمَد، ويُمجَّد، ويُعلَّى، ويُرفَع.

V'yis'hadar v'yis'aleh v'yis'halal sh'mei d'kud'shoh

فليُعظَّم، ويُرفَع ويُسبَّح اسم القدّوس،

B'rikh hu…

فليتبارك...

ردَّدَ المُعزّون في أثناء الصلاة، عند قبر الطفل، «آمين»

بعد أنْ غادر موكب الجنازة تاركاً خلفه امتداد شواهد القبور وخرج من البوابة إلى شارع مكليلان، تذكَّر السيد كانتور فجأة الزيارات التي كان يقوم بها وهو صغير إلى المقبرة اليهوديّة في شارع غروف حيث دُفِنَ كلٌّ من أمّه وجَدّه، وحيثُ ستُدفَن جدَّته وهو أيضاً بدوريهما. كان جدَّاه يأخذانه وهو طفل لزيارة قبر أمّه في كل عام في ذِكرى مولدها في

شهر أيار، على الرغم من أنّه منذ زيارته الأولى في طفولته لم يُصدِّق أنّها دخلتْ إلى هناك. كان وهو واقف بين جدّيه الباكيين يشعر دائماً بأنّه يُشارِكُ بلعبة التظاهُر بأنها هناك – وفقط في المقبرة كان يشعر بأنَّ القصّة القائلة إنّه كانت لديه أم هي قصّة مُلفّقة أصلاً. ومع ذلك، على الرغم من عِلمه أنَّ زيارته السنويّة هي أغرب شيء كان يُطالَب بالقيام به، لم يكن يرفض الذهاب. وإذا كان هذا الجزء من كونه ابناً صالحاً لأمّه مفقوداً من ذاكرته، فقد فعل ذلك، حتى عندما بدا عملاً أجوف.

كلما حاول وهو بجوار القبر أنْ يستدعي فكرةً تتلاءم مع المناسبة، تذكَّرَ القصّة التي كانت جدّته قد حكتها له عن أمّه والسمك. ومن بين قصصها كلها – وهي قصص مُلهِمة تدور حول دوريس الماهرة التي كانت تتردَّد على المدرسة وتساعد في أعمال المنزل وكانت تحب أنْ تجلس أمام آلة صرف النقود في المتجر وترن الجرس كلما باعت شيئاً، كما كان يفعل وهو صغير – بقيتْ هذه القصّة في ذهنه. وبدأت الحادثة التي لا تُنسى بعد ظهيرة يوم في الربيع قبل موتها وقبل ولادته بوقت طويل، عندما قطعتْ جدَّته سيراً على الأقدام جادّة أفون إلى متجر السمك لكي تنتقي سمكتَي شبّوط حيَّتين من حوض تاجر السمك، استعداداً لعيد الفصح، وجلبتهما إلى المنزل داخل دلو واحتفظتْ بهما حيَّتين في حوض القصدير الذي كانت العائلة تستخدمه للاستحمام. وملأت الحوض بالماء وتركت السمكتين فيه إلى أنْ حان وقت قطع رأسيهما وذيليهما، وإزالة الحراشِف عنهما، وطبخهما وحشوهما. وذات يوم عندما كانت والدة السيد كانتور في الخامسة، هرعت ترتقي الدَّرَج عائدة من روضة الأطفال، ووجدت السمكتين تسبحان في الحوض القصديريّ، وبعد أنْ خلعَتْ ملابسها بسرعة، دخلت الحوض لتلعب مع السمكتين. ورأتها جدَّته تفعل ذلك عندما عادتْ من المتجر لكي تُعدّ لها وجبة خفيفة بعد المدرسة. ولم يُخبِر أحدٌ الجَدَّة بما فعلته خشية أنْ تُعاقبها على ذلك. وحتى عندما أخبرت الجدَّة الصبي عن حكاية السمك – حينئذٍ كان هو نفسه في روضة

الأطفال – حرِصَ على كتمان السرّ لكيلا يُغضِب الجدّة التي كانت قادرة، خلال السنوات الأولى التي تلتْ وفاة ابنتها المحبوبة، على تجنُّب ألم فقدانها فقط بعدم التكلّم عنها.

ربما بدا غريباً بالنسبة إلى السيد كانتور أنْ يفكّر في تلك القصّة وهو إلى جوار قبر أمّه، ولكن ماذا غيرها يستحقّ التذكُّر؟

مع نهاية الأسبوع التالي. سُجِّلَ في القِطاع اليهوديّ أعلى رقم إصابات بشلل الأطفال خلال الصيف من أيّة منطقة مدرسيّة في المدينة. حتى الملعب نفسه كان مُحاطاً جغرافيّاً بحالات من المرض. فمقابل الملعب في شارع هوبسون أُصيبَتْ به الفتاة ليليان سوسمان البالغة عشر سنوات من العمر؛ ومقابل المدرسة في جادّة باي فيو أُصيبَتْ به الفتاة باربرة فريدمان البالغة ست سنوات – ولم تكن أيٌّ منهما ممّن يلعبن نط الحبل بانتظام على أرض الملعب، على الرغم من أنّ هناك الآن أقلّ من نصف عددهن منذ أنْ بدأ انتشار الخوف من شلل الأطفال. وننتقل من الملعب إلى جادّة فاسار، حيثُ أُصيبَ الأخوان كوفرمان، داني ومايرون. وفي مساء ذلك اليوم سمع نبأ عن الأخوين كوفرمان، فاتصل هاتفيّاً بمنزلهما. تكلَّم مع السيدة كوفرمان. عرَّفَ عن نفسه وشرح سبب اتّصاله.

صرخت السيدة كوفرمان «كيف تجرؤ يا هذا! كيف تجرؤ على الاتّصال؟»

قال السيد كانتور «عُذراً، لا أفهم»

«ما الذي لا تفهمه؟ ألا تفهم أنكَ في فصل الصيف ينبغي أنْ تستخدم عقلك مع أطفالٍ يركضون في المكان في الحرّ؟ وينبغي ألّا تسمح لهم بالشرب من النافورة العامة؟ وينبغي أنْ تنتبه إليهم عندما يتصببون عرقاً؟ ألا تعرف كيف تستخدم عينيك اللتين وهبك الله إياهما وتحرس الأولاد خلال موسم شلل الأطفال؟ كلا! لا تعرف أيّ شيء!»

«سيدة كوفرمان، أؤكد لكِ أنني حريص في التعامُل مع الأولاد»

«فلماذا إذن لديّ ولدان مشلولان؟ ولداي الاثنان! اللذان ليس لديّ غيرهما! اشرح هذا لي! لقد سمحت لهما بالركض كالحيوانات هناك – ثم تتساءل لماذا أُصيبا بشلل الأطفال! إنّه بسببك! بسبب أحمق متهوِّر، منعدم الإحساس بالمسؤوليّة، مثلك!» وأنهت المكالمة.

كان قد اتّصل بآل كوفرمان من المطبخ بعد أنْ أرسل جدَّته إلى الطابق السُفلي لتجلس في الخارج مع الجيران وأنهى غسيل أطباق العشاء. لم يكن حرّ النهار قد خفّ، والجو داخل المنزل لا يزال حاراً خانقاً. وبعد انتهاء المكالمة الهاتفيّة كان منقوعاً بالعَرَق، على الرغم من أنّه قبل الأكل كان قد أخذَ دشّاً وبدَّلَ ملابسه بأخرى نظيفة. كم تمنّى لو أنَّ جدَّه كان حاضراً لكي يتحدث معه. لقد علِمَ أنَّ السيدة كوفرمان هستيريّة؛ وعلِمَ أنّ الحزن يملؤها وتصبّ جام غضبها عليه؛ لكنّه كان يودّ لو كان جدُّه حاضراً ليُطمئنه بأنّه لا يُلام كما تدَّعي. هذه هي أولى مواجهاته المباشرة مع اتّهامٍ شرير وكراهيّة متطرّفة، وقد وتَّرَ أعصابه أكثر من التعامُل مع عشرة من الإيطاليِّين المُهدِّدين على أرض الملعب.

كانت الساعة السابعة ولا يزال الضوء سائداً في الخارج عندما هبط ثلاثة مطالع للدرج الخشبيّ الخارجيّ البالي ليقوم بزيارة سريعة للجيران قبل أنْ يتمشّى. كانت جدَّته جالسة معهم أمام المبنى، مستعينة بشمعة مُعطَّرة لطرد البعوض. كانوا جالسين على كراسي شاطئ قابلة للطيّ ويتحدثون عن شلل الأطفال. كانت العجائز منهن، اللواتي في عُمر جدَّته، قد عاصرن الوباء الذي ضرب المدينة في عام 1916 وكن يتحسّرن على أنّ العِلم منذ ذلك الحين لم يتمكّن من إيجاد علاج للمرض أو الخروج بفكرة لمنع انتشاره. قلن، انظر إلى المنطقة اليهوديّة، إنها نظيفة وتراعي الأساليب الصحيّة كأي قِطاع في المدينة، ومع ذلك نالتْ أسوأ الإصابات. وقالت إحداهن، هناك كلامٌ يدور حول منع عاملات التنظيف الملوّنات من المجيء إلى الحيّ خشية أنْ يكنَّ ناقلات جراثيم شلل

الأطفال من الأحياء القذرة. وقالت أخرى إنه في تقديرها أنَّ المرض انتشر عبر النقود، الأوراق النقديّة التي تنتقل من يدٍ إلى أخرى. وقالت، المهم غسل الأيدي دائماً بعد تداول الأوراق النقدية أو قطع النقود المعدنيّة. وسألت أخرى، وماذا عن البريد، ألا تعتقدين أنّه يمكن أنْ ينتشر عبر البريد؟ فردَّت أخرى، ماذا تنوين أنْ تفعلي، أنْ توقِفي تسليم البريد؟ سوف تتعطَّل المدينة برمّتها.

قبل ستة أسابيع أو سبعة كنّ يتحدثن عن أخبار الحرب.

سمعَ رنين جرس الهاتف وأدركَ أنّه اتصال من شقّتهم ولا بدّ أنها مارسيا وتتصل من المعسكر. كانا يتقابلان في كل يوم من أيام المدرسة على امتداد العام السابق على الأقلّ مرة واحدة أو مرّتين في الأروقة خلال ساعات الدوام الدراسيّ ومن ثم يقضيان عطل نهاية الأسبوع معاً، وكانت تلك الفترة الممتدة الأولى التي تقابلا خلالها منذ افتراقهما. لقد اشتاق إليها، واشتاق إلى عائلة ستاينبرغ، التي عاملته بكياسة وترحاب منذ البداية. كان والدها طبيباً وكانت أمّها في السابق مُدرّسة لغة إنكليزيّة، وكانوا يعيشون، مع أُختَي مارسيا الأصغر سنّاً – توأم في الصف السادس في مدرسة جادّة ميبل – في منزلٍ كبيرٍ، ومريح في جادّة غولدسميث، على مسافة قصيرة من مكتب الدكتور كوفرمان في جادّة إليزابيث. وبعد أن اتّهمت السيدة كوفرمان السيد كانتور بالإهمال المُجرِم، فكَّر في اللجوء إلى الدكتور ستاينبرغ ليتحدّث معه عن الوباء ويعرف المزيد عن المرض. كان الدكتور ستاينبرغ رجلاً مُثقّفاً (ويختلف عن جَدِّه من هذه الناحية، الذي لم يقرأ أي كتاب في حياته)، وعندما يتكلَّم كان السيد كانتور دائماً يشعر بأنّه واثق ممّا يتحدَّث عنه. لم يكن بديلاً لجدِّه – وحتماً ليس بديلاً لوالده هو – لكنّه الآن الرجل الأشدّ إثارة للإعجاب وجدارة بالاعتماد عليه. وفي لقائه الأول بمارسيا، عندما سألها عن عائلتها، قالت عن والدها إنه لم يكن فقط رائعاً في تعامله مع مرضاه لكنّه كان موهوباً في إرضاء كل أفراد عائلتهم وفي الاعتناء بأختيها الصغيرتين. كان أفضل مَنْ عرِفَتْ في

حكمه على أي شخص. كانت تقول «أمي تُسمّيه الميزان الدقيق الذي تُقاس به درجة حرارة العائلة العاطفيّة»، ثم تقول «لا أعرف أي طبيب آخر أشدّ إنسانيّة من والدي»

بعد أنْ هرع السيد كانتور يرتقي الدَرَج لكي يُجيب على الهاتف، قال «هذا أنتِ! الجو يغلي هنا. الساعة تجاوزت السابعة وما زال الجو حاراً كما لو أننا عند الظهيرة. وكأنَّ درجات الحرارة توقفتْ. كيف حالك؟»

قالتْ مارسيا «لديّ خبر لك. لقد تلقّى إرف شلانغر إشعارَ سَحْبِهِ للخدمة العسكريّة، وسوف يُغادر المعسكر. إنهم في حاجة إلى بديل، وفي أمسّ الحاجة إلى مدير عام حتى آخر الموسم. وقد أخبرت بلومباك عنك، قدَّمتُ له كل مؤهلاتك، ويريد أنْ يُعيّنك، بغضّ النظر عن حالة عينيك»

كان السيد بلومباك هو المالك والمدير للإنديان هيل وصديقاً قديماً لآل ستاينبرغ. وقبل أنْ ينخرط في مجال المعسكر، كان نائب مدير مدرسة ثانويّة شاباً في نيوارك ورئيس السيدة ستاينبرغ عندما بدأتْ كمُعلِّمة جديدة.

قال السيد كانتور لها «مارسيا، أنا لديّ عمل»

«ولكن في استطاعتك أنْ تهرب من الوباء. إنني شديدة القلق عليك، يا بَكي. بوجودك في المدينة الحارّة وبوجود كل أولئك الأولاد، والاتّصال المباشر بكل أولئك الأولاد – وفي مركز الوباء. وتلك الحرارة العالية، التي لا تنتهي»

«لديّ حوالي تسعين طفلاً في الملعب، وبين أولئك الأولاد لم تظهر، حتى الآن، أكثر من أربع إصابات بشلل الأطفال»

«نعم، وحالتا *وفاة*»

«ليس هناك وباء في الملعب، يا مارسيا»

«أعني في القِطاع اليهودي كله. إنه القِطاع الأشدّ تأثراً في المدينة. ولم يحلّ شهر آب بعد، الشهر الأسوأ بينها. وبحلوله قد يزداد عدد

الإصابات عشرة أضعاف. بَكي، أرجوك، اترك عملك. في وسعك أنْ تُصبح المُشرِف العام على الأولاد في إنديان هيل. إنَّ الأولاد رائعون، وهيئة الإدارة رائعة، والسيد بلومباك عظيم - سوف يُعجبك هذا المكان. يمكنكَ أنْ تبقى مديراً عاماً على مدى سنين عديدة قادمة. يمكننا أنْ نعمل في كل فصل صيف. يمكننا أنْ نشكِّل معاً ثُنائياً وتكون آمناً»

«أنا آمن هنا»

«كلا *لستَ* كذلك»

«لا أستطيع أنْ أترك عملي. إنها سنتي الأولى. كيف أترك كل أولئك الأولاد؟ لا أستطيع أنْ أتركهم. إنهم في حاجة إليّ أكثر من أي وقت مضى. وهذا ما ينبغي عليّ أنْ أفعل»

«حبيبي، أنت أستاذ رائع ومتفانٍ، ولكن هذا لا يعني أنّه لا غِنى عنك بالنسبة إلى برنامج الملعب الصيفيّ. *أنا* التي أحتاج إليك أكثر من أي وقتٍ مضى. إنّني أحبّك حبّاً جمّاً، وأشتاقُ إليك كثيراً، ويُرعبني التفكير في أن يحدث لك مكروه. أي خيرٍ يُرجى لمُستقبلنا إذا وقفتَ في وجه الأذى؟»

«إنَّ والدكِ يتعامل مع المرضى طوال الوقت، ويقفُ في وجه الأذى طوال الوقت. فهل تقلقين عليه بهذا القدر؟»

«في هذا الصيف؟ نعم. شكراً لله لأنَّ أختيّ موجودتان هنا في المعسكر. نعم، إنني أقلقُ على والدي وعلى والدتي وعلى كل الذين أحبّهم»

«وهل تتوقّعين من والدك أنْ يتّخذ قراراً بترك مرضاه بسبب مرض شلل الأطفال؟»

«أبي طبيب. لقد اختارَ أنْ يكون طبيباً، والتعامُل مع المرضى هو عمله، وليس عملك. إنَّ عملك هو التعامل مع *الأصحّاء* من الناس، مع الأطفال الأصحّاء الذين يستطيعون أنْ يركضوا ويُمارسوا الألعاب ويستمتعوا. سوف تكون مديراً عاماً رائعاً. سوف يُحبّك الجميع هنا. أنت

سبّاح ممتاز، وغطّاس ممتاز، ومُعلّم ممتاز. أوه، بَكي، إنها فرصة لا تأتي إلّا مرة في العمر»، ثم أضافت، بصوت منخفض «ويمكننا أنْ ننفرد معاً هنا. هناك جزيرة في البحيرة. ويمكننا أنْ نركب القارب هناك ليلاً بعد إطفاء الأنوار. ولن نُضطر إلى القلق حول تطفُّل جدّتكَ أو والديّ أو أُختيّ علينا. نستطيع أخيراً، أخيراً أنْ نكون وحدنا»

قال في نفسه، يستطيع أنْ يُجرّدها من ملابسها كلها، ويراها عارية تماماً. يستطيعان أنْ يكونا وحدهما على جزيرة مُظلمة من دون ملابس. وبغياب أي متطفِّل عليهما، يستطيع أنْ يُداعبها بهدوء وبشبق كما يشاء. ويستطيع أنْ يتحرَّر من عائلة كوفرمان. لن تكون هناك السيدة كوفرمان لتتّهمه بهستيرية بأنّه يتسبَّب بإصابة أولادها بشلل الأطفال. ويمكن أن يكفّ عن كراهيّة الله، التي تشوِّش انفعالاته وتُجعل شعوراً شديد الغرابة ينتابه. وعلى جزيرتهما سوف ينأى بنفسه عن كل ما يُصبح تحمّله لا يُطاق باطّراد.

قال السيد كانتور «لا أستطيع أنْ أترك جدَّتي. كيف ستحمل بقالتها بارتقاء ثلاثة مطالع دَرَج؟ إنَّ ألماً ينتابها في صدرها جرّاء حمل الأشياء وارتقاء الدرج. يجب أنْ أبقى هنا. يجب أنْ أغسل الملابس، وأقوم بالتسوُّق، وأعتني بها»

«يمكن لآل أينمان أنْ يعتنوا بها حتى آخر الصيف. يمكن أنْ يذهبوا إلى محل البقالة بالنيابة عنها. ويمكن أنْ يغسلوا لها بضع قطع من الملابس. سوف يُرحّبون بتقديم المُساعدة لها. إنها تُجالس أطفالهم، وهم مولعون بها»

«إنَّ آل أينمان جيران رائعون، لكنَّ ذلك ليس عملهم. إنّه عملي أنا. لا أستطيع مغادرة نيوارك»

«وماذا سأخبر السيد بلومباك؟»

«عبِّري له عن شكري ولكن لا أستطيع أنْ أغادر نيوارك، ليس في هذه الظروف»

أجابتْ مارسيا «لن أقول له أيّ شيء. سوف أنتظر. سوف أمنحك يوماً أو يومين لكي تفكّر في الأمر. سوف أتصل من جديد في ليل الغد. بَكي، أنت حتماً لن تتهرَّب من أداء واجباتك. ليس في مغادرتك نيوارك في مثل هذه الظروف أيّ تقاعُس، أنا أعرفكَ جيّداً. أعرفُ ما تفكّر فيه. لكنّك شجاع جداً كما أنت، يا حبيبي. إنَّ مفاصلي ترتعد عندما أفكّر في مدى شجاعتك. إذا أتيتَ إلى إنديان هيل، فإنكَ فقط ستؤدي عملاً آخر وليس بتفانٍ أقلّ. وسوف تقوم بواجبٍ آخر تتبنّاه - وتكون سعيداً. بَكي، إنَّ هذا ببساطة هو التصرُّف الحكيم في وجه الخطر - إنّه الحسّ السليم!»

«لن أغيِّر من عزمي. أريد أنْ أكونَ معك، إنني أشتاق إليكِ في كل يوم، ولكن لا يمكنني أنْ أغادر هذا المكان»

«ولكن يجب أنْ تفكّر في مصلحتك أيضاً. فكّر في الأمر، يا حبيبي، أرجوك، أرجوك فكِّر»

كانت جدَّته تُجالس أطفال آل أينمان وآل فيشر. وكان لآل فيشر، الكهربائيّ وزوجته اللذين في أواخر أربعينيات عمريهما، ابن في الثامنة عشرة، جندي في سلاح البحريّة، وينتظر أنْ يُبحِر من كاليفورنيا إلى المحيط الهادئ، وابنة تعمل بائعة في المتجر العمومي في المدينة الذي كان والده قد اختلسَ منه، وهذه حقيقة لا مفرَّ منها سوف تلوح في ذاكرة السيد كانتور كلما تصادف والتقيا عند الذهاب إلى العمل في الصباح. وكان آل أينمان زوجين شابين لديهما صبي صغير ويُقيمون تحت منزل آل كانتور مباشرة. وكان الطفل يخرج معهما، وينام في عربته؛ ومنذ ولادته وجدَّة السيد كانتور تُساعد في رعايته.

كانوا لا يزالون يتحدثون عن مرض شلل الأطفال، وهذه المرّة بتذكُّر بوادره المُخيفة. كانت جدَّته تتذكّر عندما كان ضحاياه بسعالهم الديكيّ يضطرون إلى وضع أشرطة على أذرعهم وكيف كان المرض الأشدّ بثّاً للرعب في المدينة، قبل اختراع اللقاح، هو الخنّاق. وتذكّرت أنّها تلقّت أحد تلك اللقاحات المُبكِّرة ضد الجُدري. وتلوّثَ موقع اللقاح بشكلٍ

خطِر وظهرت نتيجة لذلك على اللحم في الجزء العُلويّ من ذراعها ندبة دائريّة كبيرة، غير مُنتَظَمة. ورفعتْ كُمّ ثوبها المنزليّ إلى منتصفه ومدّتْ ذراعها لتُريها للجميع.

بعد قليل أخبرهم السيد كانتور بأنّه سوف يتمشّى قليلاً، وانطلقَ أولاً إلى الصيدليّة في جادّة أفون واشترى كوزاً من المُثلّجات عند نافورة الصودا. وانتقى مقعداً بلا ظهر تحت إحدى المراوح الدائرة وجلس هناك ليأكل مثلجاته - وليفكّر. إنَّ عليه أنْ يُنفِّذ كل مطلب مسؤول عنه، والمطلب الواجب عليه تنفيذه الآن هو أنْ يعتني بأولاده المُعرَّضين للخطر على أرض الملعب. وعليه أنْ يُنفِّذه ليس من أجل الأولاد فقط، بل بدافع احترامه لذكرى البقّال العنيد الذي نفّذَ، بكل عِناده الفظّ وعلى الرغم من كل إمكاناته المحدودة، كل مطلب واجهه. لقد أخطأتْ مارسيا تماماً - من الصعب تجنّب مسؤوليات عمله ببغض يفوق بغضه، بالفرار والانضمام إليها في جبال بوكونو.

كان يسمع عن بُعد صفّارات. أصبح يسمعها الآن باستمرار، ليلاً ونهاراً. إنها ليست صفارات إنذار الغارات الجويّة - فتلك تُطلَق فقط مرة واحدة في الأسبوع، عند الظهيرة في أيام السبت، وهي لا تُخيفُ بقدر ما تبثّ السكينة في النفس بإعلان أن المدينة مُستعدّة لأي طارئ، بل كانت صفارات سيارات الإسعاف ذاهبة لتُحضِر ضحايا شلل الأطفال وتنقلهم إلى المستشفى، صفّارات تزعقُ بقوة «أفسحوا الطريق - ثمة حياة اختُطِفَتْ!». ومؤخراً كانت الرئات الحديديّة قد نفدَتْ من عدد من مستشفيات المدينة، والمرضى المُحتاجون إليها أُخِذوا إلى بيلفيل، في كيرني، وإلى بلدة إليزابيث إلى أنْ تصل شحنة جديدة من عبوات التنفّس الصناعي إلى نيوارك. ليس أمامه إلّا أنْ يأمل في ألّا تكون سيارة الإسعاف متوجهة إلى القِطاع اليهوديّ لتنتقي ولداً آخر من أولاده.

كان قد بدأ يسمع إشاعات تقول إنه إذا ما ازداد الوباء سوءاً، فقد تُغلَق ملاعب المدينة كلّها لمنع الأولاد من التلامُس عن قُرب. في المعتاد مثل

هذا القرار منوط بالهيئة الصحّيّة، لكنَّ المحافظ عارضَ كل تشتيت غير ضروري لحياة فتية وفتيات نيوارك في الصيف وأراد أنْ يصدر القرار النهائي عنه شخصياً. كان يبذل أقصى جهده لتهدئة أهالي المدينة وقد ظهر، وَفق ما ورد في الصحف، في كل الأحياء لكي يُخبر المواطنين عن كل السُبُل التي تحرَص بها المدينة على إزالة القذارة والوساخة والنفايات بانتظام من الممتلكات العامة والخاصّة. وذكَّرهم بضرورة إبقاء حاويات القمامة مُحكمة الإغلاق والانضمام إلى حملة «القضاء على الذباب» بإبقاء حاجب الباب في حالة سليمة والقضاء وقتل الذباب الناقل للمرض الذي يتكاثر في القذارة ومن ثم يلج البيوت من خلال الأبواب المفتوحة والنوافذ غير المُغلقة. وازدادت مرّات جمع القمامة حتى أضحت مرّة كل يومين، والتحريض على القيام بحملة للقضاء على الذباب، وتم توزيع مضارب الذباب مجاناً عبر «مفتشي الصحّة» الذين يزورون الأحياء السكنيّة ليتيقّنوا من إزالة كل النفايات من الشوارع. وفي محاولة المُحافِظ ليُطمئن الأهالي بأنَّ كل شيء تحت السيطرة وآمن بشكلٍ عامّ، حرص على إبلاغهم أنِّ «الملاعب سوف تبقى مفتوحة، لأنَّ أولاد المدينة يحتاجون إلى ملاعبهم في الصيف. إنَّ الشركة الاقتصاديّة للتأمين على الحياة في نيوارك وشركة الحياة المدنيّة في نيويورك تُخبرانا بأنَّ الهواء النقيّ وأشعة الشمس من الأسلحة الضروريّة للقضاء على المرض. امنحوا الأطفال الكثير من أشعة الشمس ومن الهواء النقيّ في الملاعب ولن تتحمَّل الجراثيم كليهما»، وقال لجمهوره، «وفوق ذلك كلّه، أبقوا أفنية منازلكم وأقبيتكم نظيفة، ولا تتشتتوا، وقريباً سوف نلاحظ التراجُع في انتشار هذا البلاء. ولا تتهاونوا في القضاء على الذباب. لا تستخفوا بالأذى الذي يتسبَّب به الذباب»

انطلقَ السيد كانتور على جادّة أفون نحو بلمونت مُسربلاً بالحرّ الخانق وبالرائحة الخانقة. وفي الأيام التي تهب الرياح الجنوبيّة، من جهة معامل التكرير في راهواي وليندن، تنتشر رائحة حرق حادة في الهواء، ولكن

في هذه الليلة تهب التيارات من الشمال، وفي الهواء رائحة كريهة مُميَّزة تأتي من مزارع خنازير سيكوكوس، التي تبعد بضعة أميال على طول نهر هاكنساك. ولم يعرف السيد كانتور شارعاً آخر رائحته كريهة أكثر من هذا الشارع. وخلال موجة الحرّ، عندما بدت نيوارك كأنّها تخلو تماماً من الهواء النقيّ، كان يمكن لرائحة البراز أحياناً أنْ تُسبِّب المرض إلى درجة أنَّ هبّة قويّة منها تدفع إلى التقيُّؤ والإسراع إلى داخل المنزل. وكان الناس قد بدأوا يضعون اللوم في تفشّي حالات الإصابة بشلل الأطفال على قُرب المدينة من سيكوكوس - المعروفة بامتعاض بـ«عاصمة الخنازير في مقاطعة هدسن» - وعلى الممتلكات المُعدية المجاورة في ذلك المُستنقع العفن الممتد الذي كان، بالنسبة إلى الموجودين في وجه رياحه، مزيجاً سامّاً من عناصر غامضة فاسدة، ضارة ومُهلِكة. فإذا كانوا على صواب، فإنَّ التنفُّس كان نشاطاً خطِراً في نيوارك - خُذ نَفَساً عميقاً وتموت.

ولكن على الرغم من كل شيء كريه في الليل، كان هناك عدد من الصِبية على متن دراجات هوائيّة قديمة وبالية ينطلقون بأقصى سرعة على بلاط رُصف بشكل غير متساوٍ بين خطوط حافلات التروللي على جادّة أفون ويصرخون «جيرونيمو!» بأعلى أصواتهم. كان هناك أولاد يثبون من المرح في المكان ويشدّ أحدهم الآخر أمام محلات بيع السكاكر. وهناك أولاد يجلسون على شرفات المنازل الخارجيّة، يُدخّنون ويتبادلون الأحاديث. وهناك أولاد في وسط الشارع يرمي أحدهم إلى الآخر بكسل كرات عالية تحت أضواء الشارع. وعند أرض خالية في الزاوية رُفِعَ طوقٌ فوق جدارٍ جانبيّ من بناءٍ مهجور، وعلى ضوء متجر المشروبات على الطرف المقابل من الشارع، حيث يترنح المتسكعون داخلين خارجين، أخذ بعض الأولاد يتدرّبون على ضربات الفاول السُفليّة. واجتاز ركناً آخر حيث تجمَّعَ بعض الأولاد حول صندوق بريد جثمَ على قمته أحد رفاقهم، وأخذ يُغني ليُسلّيهم. وكانت هناك عائلات تُعسكرُ في الخارج

على سلالم الحريق، يُصغون إلى أجهزة الراديو جارّين كابلات ممدودة وموصولة بمآخذ على جدار في الداخل، وعائلات أخرى مجتمعة في الأزقّة المُعتِمة التي بين الأبنية. ولدى مروره بساكني المنازل في أثناء سيره، شاهد نساءً يُهوّين أنفسهنّ بمراوح من ورق كان بائع المُنظّفات الجافة يمنحها مجّاناً لزبائنه، وشاهد عمّالاً عادوا إلى منازلهم من مراكز أعمالهم، جالسين ويتحدثون مُرتدين قمصانهم الداخليّة التي من دون أكمام، والعبارة التي سمعها تتكرّر في أطراف حديثهم كانت، طبعاً، «شلل الأطفال». وحدهم الأطفال بدوا قادرين على التفكير في أيّ شيء آخر. وحدهم الأطفال (الأطفال!) كانوا يتصرّفون وكأنّ وقت الصيف، خارج القِطاع اليهوديّ على الأقلّ، كان لا يزال مُغامرة خالية من الهمّ.

لا في شوارع الحيّ ولا هناك على نُضُد بيع المثلجات في الدكان صادفَ أياً من الأولاد الذين ترعرعَ معهم ولعبَ الكرة معهم وتردَّد على المدرسة معهم. الآن هناك شبّانٌ، باستثناء عدد قليل مُعفى لأسباب طبيّة مثقلة – مُصابون بخفقان في القلب أو بانخفاض في قوس القدم أو عيونهم ضعيفة كعينيه وكانوا يعملون في مصانع الحرب – سُحِبوا كلّهم للخدمة العسكريّة.

في شارع بلمونت، اخترقَ السيد كانتور حركةَ المرور في جادّة هوثورن، حيث كانت أضواء اثنين من متاجر بيع السكاكر ما تزال مُنارة وسمعَ أصوات أولاد يتسكعون على طول الشارع يهتف كلٌّ منهم للآخر. ومن هناك توجّه إلى شارع برغن ومنه إلى الشوارع الجانبيّة السكنيّة لأشد سكان القِطاع اليهودي ثراءً، على سفح التل المنحدر إلى المتنزّه اليهودي. وأخيراً وصل إلى جادة غولدسميث. ولم يُدرِك إلّا بعد أنْ أصبح هناك فعلاً أنّه لم يخرج ليتمشّى بلا هُدى عبر المدينة في ليلة صيفٍ حارّة بل خرج بالتحديد قاصداً منزل مارسيا. ربما كانت نيّته ببساطة أنْ ينظر إلى المنزل الكبير المبني من الآجرّ القائم وسط منازل أخرى كبيرة من الآجرّ تحدّه ويُفكّر فيها ومن ثم يستدير ويعود من حيث أتى. ولكن

بعد أنْ دار مرة حول المبنى، وجدَ نفسه على بُعد خطوات من باب منزل آل ستاينبرغ، وتقدَّم بعزم على الممشى المُبلَّط ليقرع الجرس. الشرفة الخارجيّة المحجوبة مع الجزء المنحدر الذي يواجه المرج الأمامي كانت الموقع حيث جلس هو ومارسيا وتبادلا القُبل بعد عودتهما من مشاهدة السينما، إلى أنْ نادتْ عليها أمّها من الطابق العُلويّ لتسألها بلطف إنْ لم يكن الوقت قد حان ليذهب بَكي إلى منزله.

جاء الدكتور ستاينبرغ ليفتح الباب. والآن بات يعرف لماذا كان يحوم بعيداً عن مساكن شارع باركلي، ويتنفّس هذا الهواء الفاسد.

قال الدكتور ستاينبرغ، فاتحاً ذراعيه ومُبتسماً، «بَكي، ولدي. يا لها من مفاجأة سارّة. تفضّل، تفضَّل»

شرح السيد كانتور قائلاً «لقد خرجتُ لأشتري مُثلجات وأكملتُ مشواري إلى هنا»

قال الدكتور ستاينبرغ، ضاحكاً، «أنتَ اشتقتَ إلى الفتاة. وأنا كذلك. أشتاق إلى بناتي الثلاث كلهن»

دخلا من المنزل إلى الشرفة المكشوفة في الخلف، التي تُشرِف على حديقة السيدة ستاينبرغ. كانت السيدة ستاينبرغ تقيم في منزلهما الصيفيّ على الشاطئ، حيث، كما قال الدكتور، ينضم إليها في عُطل نهاية الأسبوع. سأله الدكتور ستاينبرغ إنْ كان يرغب في مشروب بارد. هناك ليمونادة منعشة في البرّاد، ويستطيع أنْ يجلب له كوباً منها.

كان منزل آل ستاينبرغ من النوع الذي حلم السيد كانتور بالعيش فيه عندما كان طفلاً صغيراً يترعرع في كنف جدَّيه في شقّتهما الكائنة في الطابق الثالث وتتكوّن من ثلاث غرف: منزل كبير لعائلة واحدة بقاعات فسيحة ومطلع دَرَج مركزيّ والعديد من غرف النوم وأكثر من حمّام وشرفتان داخليتان مُسترتان وسجّاد يُغطي الأرضيّات من الجدار إلى الجدار في الغرف كلها وستائر خشبيّة من البندقيّة تغطي النوافذ بدل مظلات وولوورث التي تُعتِم المكان. وفي مؤخَّرة المنزل، حديقة

للأزهار. لم يكن قد شاهد من قبل حديقة للأزهار في كاملِ ازدهارها، ما عدا حديقة الورد الشهيرة في المتنزّه اليهوديّ، التي كان جدُّه قد أخذه معه إليها وهو طفل. تلك كانت حديقة عامّة تُحافِظُ عليها دائرة المتنزّهات؛ وحسب عِلمه، كانت الحدائق *كلّها* عامّة. وقد أذهله وجود حديقة أزهار خاصّة بكامل رونقها في فناءِ منزلٍ خلفيّ في نيوارك. كان فناء منزله ذو الأرضيّة الإسمنتيّة مملوءاً بالتشققات، وثمة مساحات منه مُجرَّدة من قِطع مُفتّتة قام أولاد الحيّ على امتداد العقود بنهبها ليستخدموها كقذائف يرمونها بشكلٍ إجراميّ على قِطط الزقاق أو مزاحاً على سيارة عابرة أو غَضَباً على سيارة أخرى. وكانت الفتيات يلعبن الحجلة هناك إلى أنْ يطردهنّ الفتية ليلعبوا النرد؛ وكان هناك خليط من حاويات قمامة المبنى المصنوعة من المعدن المتهرِّئ؛ وفوق الرؤوس كانت تمتد حبال الغسيل المتقاطعة، التي تتدلّى منها شبكة من الملابس، حبل مُعلَّق من بَكَرات من نافذة خلفيّة من كل شقّة في المُجمَّع إلى عمود هاتف أبلته تحولات الطقس عند الطرف القصيّ من فناء خرِب. وخلال فترة الطفولة المُبكّرة، كان كلما مالت جدَّته من النافذة لكي تنشر غسيل الأسبوع، يقفُ هو بجوارها لكي يُناولها مشابك الغسيل. أحياناً كان يستيقظ وهو يصرخ من كوابيس تراءى له فيها أنّها تبالغ في الميلان عبر حافة النافذة لكي تنشر مفرش السرير وتسقط من نافذة الطابق الثالث. وقبل أنْ يُقرِّر جدَّاه كيف ومتى يُبيّنان له أنَّ والدته قد توفيت وهي تلده، كان يتخيَّل أنّها ماتت نتيجة مثل ذلك السقوط. وكان هذا هو معنى وجود فناء خلفي بالنسبة إليه إلى أنْ بلغ من السن ما يؤهّله ليفهم الحقيقة ويتعامل معها – إنّه موقع الموت، مستطيل صغير من المقبرة من أجل النساء اللائي أحببنه.

أما الآن، فمجرد التفكير في حديقة السيدة ستاينبرغ يملؤه بالسرور ويُذكّره بأشدّ ما يُقدِّره عند آل ستاينبرغ وبأسلوب حياتهما، وبكل ما لم يتمكَّن جدّاه العطوفان من توفيره له وما تاق إليه دائماً سرّاً. لم يكن مُتعوّداً قط على التبذير بحيث إنّه اعتبر وجوده في منزلٍ يحتوي أكثر من حمّام

هو قمّة العيش المرفّه. ولطالما تمتّعَ بحسّ قويّ بروح العائلة من دون أنْ تكون لديه عائلة بالمفهوم التقليديّ للكلمة، ولذلك كان عندما ينفرد أحياناً مع مارسيا في المنزل – وهو أمر كان نادر الحدوث بسبب الوجود الحيويّ لأختيها الصغيرتين – يتخيَّل أنهما متزوجان وأنَّ المنزل والحديقة ونظام المنزل ووفرة غرف الاستحمام هي ملكهما. كم كان يشعر بالارتياح في منزلهما – ومع ذلك بدا له أنَّ من قبيل المُعجزة أنّه وصل إلى هناك.

عاد الدكتور ستاينبرغ إلى الشرفة مع الليمونادة. كانت الشرفة ستكون مُعتِمة لولا مصباح مُنار بجوار الكرسي الذي كان الدكتور ستاينبرغ جالساً عليه يقرأ صحيفة المساء ويُدخّن الغليون. تناول الغليون وقَدَحَ عود ثقاب، وأخذ يُكرِّر سحب الدخان ونفثه، ويعالجه إلى أنْ اشتعل من جديد. وقد عمل عبق تبغ الدكتور ستاينبرغ القويّ والعذب على التخفيف قليلاً من الرائحة الكريهة المنبعثة من سيكوكوس وتعمّ المدينة كلها.

كان الدكتور ستاينبرغ نحيلاً، خفيف الحركة، ويميل إلى قِصَر القامة؛ وله شارب كبير ويضع نظارات، على الرغم من سماكتها، لم تبلغ في ذلك سماكة نظارات السيد كانتور. كان أنفه هو السِمة الأبرز: معقوفاً كأعلى السيف المعقوف لكنّه منبسِط عند طرفه، وعظْمة الجسر حادّة الحافة كحجر كريم – باختصار، كأنّه أنف أُخِذَ من إحدى الحكايات الشعبيّة، من النوع الضخم، المعقوف، والمنحني بشكلٍ مُعقّد لم يتوقف اليهود، على امتداد قرونٍ عديدة، وعلى الرغم من مواجهتهم كل ما يمكن تصوّره من مصاعِب، عن إنتاجه. وكان انعدام انتظام شكل الأنف يتجلّى أكثر عندما يضحك، أي كثيراً. كان ودوداً دائماً، وأحد أطباء العائلة الجذّابين الذين حالما يلجون غرفة الانتظار مع ملفّ أحدهم الخاصّ، يجعل وجوه مرضاه كلهم تشرق – حالما يُقبِل عليهم مع سمّاعته، يشعرون بأنه يُسعدهم كثيراً أنْ يكونوا تحت رعايته. وكانت مارسيا تحبّ أنْ يُشير والدها، ذو الخبرة الفطريّة، البسيطة، مازحاً وصادقاً إلى مرضاه بأنهم «سادته»

«لقد أخبرتني مارسيا أنكَ فقدت بعضاً من تلامذتك. إنني شديد

الأسف لسماعي هذا، يا بَكي. إنَّ الموت ليس شائعاً بين المُصابين بشلل الأطفال»

«حتى الآن، أُصيبَ أربعة بالمرض ومات اثنان. صبيّان. من تلامذة المرحلة الابتدائيّة. كلاهما بسن الثانية عشرة»

قال الدكتور ستاينبرغ «إنَّ العناية بأولئك الأولاد، خاصة في مثل هذا الظرف تُعتبَر مسؤوليّة ثقيلة على كاهلك. إنني أمارس الطبّ منذ خمسة وعشرين عاماً، وما زلتُ كلما فقدتُ أحد مرضاي، حتى وإنْ كان طاعناً في السن، يهتزّ كياني. لا بد أنَّ هذا الوباء يرزح ثقيلاً على كاهلك»

«إنّ المشكلة هي أنني لا أعلم إنْ كنتُ أُحسِنُ التصرُّف بسماحي لهم بلعب الكرة»

«هل قال أحدٌ أنكَ تُسيء التصرُّف؟»

«نعم، والدة الصبيَّين، الأخوين، اللذين أُصيبا بالمرض. أنا أعلم أنها كانت في حالة هيستيريّة. وأعلم أنها كانت تصرخ بدافع خيبة الأمل، لكنَّ العِلم وحده لا يُفيد»

«إنَّ الطبيب أيضاً يمرّ بمثل هذا الظرف. أنت على صواب – إنَّ الذين يُعانون من الألم المُبرّح تُصيبهم الهيستيريا ويكيلون الاتّهامات عندما يواجهون جور المرض. لكنَّ لعب الأولاد بالكرة لا يُصيبهم بشلل الأطفال. الفيروس هو الذي يفعل. ربما نحن لا نعرف الكثير عن المرض، لكننا نعلم هذا. إنَّ الأولاد في كل مكان يلعبون كثيراً خارج المنازل وطوال فصل الصيف، وحتى في أثناء انتشار الوباء ثمة نسبة مئويّة ضئيلة جداً هي التي تُصاب بعدوى المرض. ونسبة ضئيلة جداً من هؤلاء يبلغ مرضهم مرحلة الخطر الشديد. ونسبة ضئيلة جداً من هؤلاء يموتون – الموت ينتج عن عجز التنفُّس، وهذا أمر نادر. والطفل الذي يُصاب بالصداع لا يمرض بشلل الأطفال. ولهذا من المهم عدم المُبالَغة في الخطر ومتابعة الحياة بصورة طبيعيّة. ليس هناك من مُبرِّر لتشعر بالذنب. أحياناً هذه ردَّة فعل طبيعيّة، ولكن في حالتكَ هذه ليست مُبرَّرة»، وأشار

إليه بحركة ذات مغزى بعنق غليونه وحذَّرَ الشاب قائلاً «قد نكون قُضاة قاسين مع أنفسنا حين لا يوجد مُبرِّر. إنَّ الحس بالمسؤوليّة في غير محلّه يمكن أنْ يكون شيئاً موهِناً»

«دكتور ستاينبرغ، أتعتقد أنَّ الأمر سوف يسوء؟»

«إنَّ الأوبئة تخرج عن السيطرة عفويّاً. وحاليّاً هناك الكثير من الأمور تجري. الآن علينا أنْ نكون على مستوى ما يجري بينما ننتظر ونرى إنْ كان وضعاً عابراً أم لا. في المعتاد العدد الأكبر من الإصابات تكون بين الأطفال تحت سن الخامسة. هذا ما حدث في عام 1916. والنمط الذي نشهده مع هذا الوباء، على الأقلّ هنا في نيوارك، مختلف نوعاً ما. لكنَّ هذا لا يُشير إلى أنَّ المرض سوف يستمر في هذه المدينة من دون عِلمنا. وحسب عِلمي ما زال الذُعر غير مُبرَّر»

لم يكن السيد كانتور قد شعر منذ أسابيع بمثل ذلك الارتياح وهو يتداول مع الدكتور ستاينبرغ. لم يحدث في أي مكان في نيوارك كلها، بما فيها شقّة العائلة - بالإضافة حتى إلى قاعة الألعاب الرياضيّة في مدرسة جادّة تشانسلر حيث كان يُعلِّم دروس التربية البدنيّة - أنْ شعرَ برضا أشدّ مما شعر وهو في الشُرفة المُسترة في خلفيّة منزل آل ستاينبرغ، والدكتور ستاينبرغ جالس على كرسيه المجدول الوثير ويُدخِّن غليونه المُبتذَل.

سأل السيد كانتور «لماذا كان وضع الوباء هو الأسوأ في القِطاع اليهوديّ؟ لماذا يحدث ذلك؟»

قال الدكتور ستاينبرغ «لا أعلم. لا أحد يعلم. ما زال شلل الأطفال مرضاً غامضاً. وهذه المرّة حلَّ ببطء. في أول الأمر تركَّز فقط في أيرونباوند، ومن ثم أخذ يظهر في أرجاء المدينة، وفجأة استقرَّ في القِطاع اليهوديّ وانتشر»

أخبر السيد كانتور الدكتور ستاينبرغ عن الحادثة التي جرتْ مع الإيطاليين في الحيّ الشرقيّ الأعلى الذين أتوا من أيرونباوند وتركوا الرصيف عند باب الملعب ملوّثاً ببصاقهم.

قال الدكتور ستاينبرغ له «لقد فعلتَ الصواب، ونظَّفتَه بالماء والنشادر. كان أفضل ما يمكن عمله»

«ولكن هل قضيتُ على جراثيم المرض، إنْ وُجِدَتْ؟»

قال الدكتور ستاينبرغ «نحن لا نعلم ما الذي يقضي على جراثيم شلل الأطفال. ولا نعلم مَنْ أو ما هو ناقل المرض، وما زال بعض الجدل قائماً حول الطريقة التي ينفذ فيها إلى الجسم. لكنَّ المُهمّ هو أنكَ نظَّفتَ اللطخة القذرة وأدخلتَ الطمأنينة إلى قلوب الأولاد بتصرُّفك ذاك. لقد أبديتَ مقدرتكَ، واتّزانك – وهذا ما كان على الأولاد أنْ يروه. بَكي، لقد اهتزَّ توازنك جرّاء ما يحدث الآن، لكنَّ الرجال الأقوياء أيضاً يهتزّون. ويجب أنْ تفهم أنَّ كثيرين من الأكبر سناً بيننا والأكثر خِبرة بالمرض منك يهتزّون أيضاً. وابتعادك كأنكَ طبيب عاجز عن إيقاف انتشار هذا المرض المرعب أمر مؤلِم لنا كلّنا. من الصعب لأي إنسان راشد أنْ يتقبَّل مَرَضاً مُعيقاً يُهاجِم الأطفال بشكل رئيسيّ ويقتل بعضهم. أنت صاحب ضمير، والضمير صِفة قيِّمة، ولكن ليس إذا بدأ يدفعكَ إلى لوم نفسك على شيء شديد البُعد عن مسؤوليتك»

فكَّر في أنْ يقول: أليس لدى الله ضمير؟ أين تقع مسؤوليته؟ أمْ أنّه لا يضع لنفسه حدوداً؟ لكنّه بدل ذلك سألَ «هل ينبغي إغلاق الملعب؟»

سأل الدكتور ستاينبرغ «أنتَ المدير، ألستَ كذلك؟»

«لا أعلم ماذا أعتقد»

«ماذا سيفعل الأولاد إذا لم يتردّدوا على الملعب؟ هل سيمكثون في المنزل؟ كلا، بل سيلعبون الكرة في مكان آخر – في الشوارع، وفي الأراضي البور، سوف يرتادون المتنزّه لكي يلعبوا الكرة. لا يمكنكَ منعهم من التجمُّع بمجرد طردهم من الملعب. لن يُلازموا منازلهم – بل سوف يتسكّعون معاً حول محل بيع السكاكر عند الزاوية، يلعبون على آلة الكرة والدبابيس ويتدافعون معاً من باب المرح. سوف يتناوبون على شرب الصودا كل واحد منهم من زجاجة الآخر مهما نصحتهم

بعدم فعل ذلك. بعضهم سوف يتململون ويضجرون بحيث يتمادون ويُثيرون المشكلات. إنهم ليسوا ملائكة – إنهم صِبية. بَكي، لا شيء مما تفعله يُفاقم الأوضاع. على العكس، أنتَ تُحسِّن الأمور. وتقوم بأعمال مُفيدة. إنك تُساهم في خير المجتمع. من المهمّ أنْ تستمر الحياة في الحي بمسارها المعتاد – وإلّا، فلن يكون المُصابون وعائلاتهم هم الضحايا فقط، بل القِطاع اليهوديّ نفسه سوف يُصبح ضحية أيضاً. وعلى أرض الملعب أنت تساعد على مُحاصرة الرعب بالإشراف على تلامذتك وهم يمارسون الألعاب التي يُحبونها. والبديل ليس إرسالهم إلى مكان آخر بعيداً عن إشرافك. البديل ليس في حبسهم في منازلهم وملئهم بالرعب. أنا ضد إخافة الأطفال اليهود. انتهى الكلام. حدثَ ذلك في أوروبا، ولهذا فرَّ اليهود. وهذه أمريكا. كلّما قَلَّ الخوف كان أفضل. إنَّ الخوف يُجرّدنا من رجولتنا. الخوف يحطُّ من قدرنا. أما مهمّتك ومهمّتي فهي التخفيف من الخوف»

سُمِعَ هدير صفارات الإسعاف عن بُعد، بعيداً ناحية الغرب حيث تقع المستشفى. وفي الحديقة لم يُسمع إلّا صرير الجداجد الحادّ والحشرات التي تنبض ضوءاً وتشكيلة واسعة من الأزهار العطِرة، التي تتكدَّسُ بتلاتها على الجانب المقابل من ستائر الشرفة، ومع وجود السيدة ستاينبرغ بعيداً على الشاطئ، كان من المُرجَّح أنَّ الدكتور ستاينبرغ هو الذي رواها بالماء بعد أنْ تناول وجبته. كان هناك وعاء كبير من الفاكهة على السطح الزجاجيّ من طاولة القهوة الموجودة أمام الأريكة المجدولة حيث يجلس السيد كانتور. مدَّ الدكتور ستاينبرغ يده ليتناول ثمرة فاكهة وطلب من السيد كانتور أنْ يتفضّل ويأكل أيضاً.

قضم قطعة من ثمرة الخوخ اللذيذة، الكبيرة والجميلة، كالثمرة التي تناولها الدكتور ستاينبرغ من الوعاء، وبمصاحبة هذا الرجل العقلاني بكل معنى الكلمة وحسّ الأمان الذي يُشيعه في النفس وينضح به، تمهَّلَ في أكلها، مُتلذّذاً بكل قضمة حلوة حتى بذرتها. ثم وضع البذرة في منفضة

السجائر، وهو غير مُستعد البتّة لتلك اللحظة لكنّه لم يستطع أنْ يتمالك نفسه، ومال إلى الأمام، وعصر يديه اللزجتين معاً بإحكام بين رُكبتيه، وقال «بعد إذنك، يا سيدي، أريد موافقتكَ على خطبتي لمارسيا»

انفجر الدكتور ستاينبرغ بالضحك، ثم رفع غليونه في الهواء وكأنّه وسام النصر، ونهضَ واقفاً واهتزَّ قليلاً. قال «لكَ ما تريد! لا شيء أكثر من هذا يُفرِحني. ولن تكون السيدة ستاينبرغ أقلّ مني سعادة. سوف أتّصل بها في الحال. وسوف تقوم أنتَ بنفسك بزفّ الخبر إليها. آه، بَكي، هذا رائع! طبعاً ستحصل على موافقتنا. لا يمكن لمارسيا أنْ ترتبط بشخص آخر أفضل منك. كم نحن عائلة محظوظة!»

أجفلَ السيد كانتور لسماعه الدكتور ستاينبرغ يصِفُ عائلته هو بالمحظوظة، وشعر بدفقٍ من السعادة، وقفز واقفاً بدوره وصافح بحرارة يد الدكتور ستاينبرغ. لم يكن حتى تلك اللحظة قد خطَّطَ لفتح موضوع الخطبة أمام أي شخص قبل بداية العام الجديد، حيث سيكون أكثر اطمئناناً من الناحية الماديّة. كان لا يزال يدّخر لكي يشتري موقداً يعملُ بالغاز من أجل جدَّته، لكي تستبدل به موقد الفحم الذي تطبخ عليه في المطبخ، ورأى أنّه سيجمع ما يكفي بحلول شهر كانون الأول، إذا لم يُضطر إلى شراء خاتم الخطبة قبل ذلك. لكنّ الارتياح الذي استمدَّه من والدها الودود، في ختام استمتاعهما بأكل ثمار الخوخ الممتازة تلك معاً في الشرفة الخلفيّة، هو الذي حفّزه لطلب موافقته في التوّ واللحظة. وما جعل الأمر ينجح كان معرفته أنَّ الدكتور ستاينبرغ بدا، بمجرّد حضوره، قادراً على الإجابة عن الأسئلة التي لا يستطيع غيره إعطاءها: ما الذي يجري بحقّ الله، وكيف حللنا هذه المشكلة؟ وثمة شيء آخر أيضاً أذهله: إنها صفارات سيارات الإسعاف التي تجتاز مدينة نيوارك خلال الليل.

كان صباح اليوم التالي هو الأسوأ حتى ذلك الحين. لقد أُصيبَ ثلاثة آخرون بشلل الأطفال – هم ليو فاينسووغ، وبول ليبْمان، وآرني

ميشْنيكوف. خلال الليل ارتفع العدد في الملعب من أربع حالات إلى سبع. كان يمكن للصفارات التي سمعها هو والدكتور ستاينبرغ في الليلة السابقة أنْ تكون صادرة عن سيارات الإسعاف التي تسرع في نقلهم إلى المستشفى. لقد سمِعَ عن الحالات الثلاث الجديدة من الأولاد الذين جاؤوا حاملين قفّازاتهم في صباح ذلك اليوم ومستعدين لقضاء النهار في لعب الكرة. في اليوم العادي من الأسبوع كان يُديرُ مباراتين، واحدة في كلٍ من الأشكال المُعيَّنة عند كل ركنٍ من الملعب، ولكن في صباح هذا اليوم لم يكن هناك عدد كافٍ من الأولاد متوفر لتشكيل أربع فِرق. وبعيداً عن الذين أُصيبوا بالمرض، يبدو أنَّ حوالي ستين أبعدهم أهاليهم بدافع الخوف. والذين تبقّوا جمعهم لكي يُحدّثهم في قسم المُدرَّج الخشبيّ الذي يتراجع حتى الجدار الخلفيّ للمدرسة.

«يُسعدني أنْ أراكم هنا، أيّها الأولاد. سوف يكون هذا اليوم أيضاً شديد الحرارة – كما تتبيَّنون هذا منذ الآن. لكنَّ هذا لا يعني أننا لن نخرج إلى الحقل ونلعب. بل يعني أننا سوف نتّخذ بعض الاحتياطات لكيلا يتمادى أيٌ منكم في هذا. سوف نستريح بعد كل جولتين ونصف الجولة في الظل، هنا على المُدرّجات، مدة خمس عشرة دقيقة. وخلال تلك الفترة ممنوع الجري. وهذا الكلام موجَّه إلى الجميع. وبين الظهيرة والساعة الثانية، خلال ذروة الحرارة، يُمنَع منعاً باتّاً لعب السوفتْبول. سوف تبقى ملاعب الكرة خالية. إذا رغبتم في لعب الضامة، أو الشطرنج، أو البينغ–بونغ، إذا رغبتم في التحدث على المدرّجات، أو قراءة كتاب أو مجلّة خلال ذلك الوقت... فلا بأس. هذا هو برنامجنا اليوميّ الجديد. سوف نؤدي كل شيء باعتدال في الأيام المُشابهة لهذا. لا أحد هنا سوف يُصاب بضربة شمس وسط هذه الحرارة الضارية». استخدم عبارة «ضربة شمس» في اللحظة الأخيرة، بدل عبارة «شلل الأطفال».

لم يتذمّر أحد. ولم يُعلّق أحد. بل أصغوا برصانة وهزّوا رؤوسهم موافقين. كانت المرة الأولى منذ بداية الوباء التي يشعر بها بخوفهم. كان

كل واحد منهم يعرف أكثر من معرفة عابرة أحد الذين أُصيبوا بالمرض في اليوم السابق، وبطريقةٍ لم يُدركوا بها من قبل طبيعة التهديد المُحدِق بهم، فهموا أخيراً الفرصة التي يواجهونها للإصابة هم أنفسهم بشلل الأطفال.

انتقى السيد كانتور فريقين من عشرة أفراد لبدء المباراة الأولى. وبقيَ هناك عشرة أولاد، قال لهم إنهم سيشكلون الاحتياط، خمسة على كل جانب، بعد استراحة الدقائق الخمس عشرة الأولى. واستمروا على هذا المنوال على امتداد النهار.

قال السيد كانتور، مُصفقاً بيديه بحماس، «اتّفقنا؟ إنه يوم عادي من أيام الصيف، وأريد منكم أنْ تخرجوا وتلعبوا الكرة»

بدل أنْ يلعب هو نفسه، قرَّرَ أنْ يبدأ صباحه بالجلوس مع الأولاد العشرة الذين كانوا في انتظار دورهم للانضمام إلى المباراة وبدا عليهم الكبت الشديد. وخلف الحقل المركزي حيث كانت الفتيات يجتمعن بانتظام في الشارع الذي تقع فيه المدرسة، لاحظَ السيد كانتور أنّ عدد اللواتي كنَّ يجتمعن هناك في صباح كل يوم من الأسبوع في أوائل الصيف، لم تحضر منهن اليوم إلّا ثلاث- فقط ثلاث سمح أهاليهن لهنَّ كما بدا بمغادرة جو منازلهن المُعقَّم خوفاً من تماسّهن مع أطفال الملعب الآخرين. ربما كانت الفتيات المفقودات من بين أطفال الحيّ اللواتي سمعَ عن أنهن أرسِلن لكي يحتمين في كنف أقرباء لهنّ يُقيمون على مسافة آمنة من المدينة، وبعضٌ من هؤلاء فرّوا من التهديد لكي يغوصوا، ويكسبوا المناعة، من هواء المُحيط الصحيّ على شاطئ جيرزي.

الآن هناك فتاتان تُديران الحبل وواحدة تقفز - ولا توجد أيّة فتاة بساقين نحيلتين ترتعشان، وتستعدّ للاندفاع خلفها. وكان في الإمكان سماع صوت القافزة الحادّ والمرتفع في صباح ذلك اليوم حتى في المُدرّجات، حيث من المعتاد أن يُطلق الفتيان النكات والتعليقات البارعة ولا يواجهون أيّة مشكلة في قضاء النهار بأكمله في الثرثرة ولكن هذه المرة لن يكون لديهم ما يقولون.

كاف، اسمي كيه
واسم زوجي كارل،
جئنا من كانساس
وجلبنا معنا حيوانات الكنغر!

أخيراً كسرَ السيد كانتور الصمت الطويل. سألهم «هل بينكم مَنْ لديه أصدقاء أُصيبوا بالمرض؟»

بعضهم هزّوا رؤوسهم إيجاباً وبعضهم قالوا بهدوء نعم.

«أعلمُ أنَّ هذا صعبٌ عليكم. صعب جداً. يجب أنْ نأمل في أنْ تتحسّن صحتهم ويعودوا إلى الملعب»

قال بوبي فينكلستاين، وهو فتى خجول ومن أشدهم هدوءاً، وأحد الذين رأى أنهم يرتدون بذلة على دَرَج الكنيس بعد تأبين ألان مايكلز، «يمكن للمرء أنْ ينتهي به الأمر بوضع رئة من حديد إلى الأبد»

قال السيد كانتور «هذا ممكن، لكنَّ ذلك يحدث جرّاء الإصابة بعجز عن التنفُّس، وهذا أمرٌ نادر. وفي الغالب سوف يبرأ. إنّه مرضٌ خطير، ويمكن أنْ يتسبَّب بوقوع أذى شديد، ولكن هناك حالات تُشفى. وأحياناً يكون الشِفاء جزئيّاً، ولكن في الغالب يكون تامّاً. إنَّ معظم الحالات خفيفة نسبيّاً». تكلَّمَ بثقة، لأنَّ مصدر معرفته هو الدكتور ستاينبرغ.

قال بوبي، مُتابعاً الموضوع بطريقة لم يلجأ إليها من قبل إلّا مع قِلّة آخرين، «ويمكن أنْ يؤدي إلى الموت». في الغالب كان يبدو أنّه يستمتع بترك أمر الكلام للمنفتحين، ولكن فيما يتصل بما حدث لأصدقائه لم يستطع أنْ ينأى بنفسه عن الاستمرار في الكلام. «لقد مات ألان وهيربي»

وافق السيد كانتور «يمكن أنْ يقع الموت، لكنَّ هذا أمر نادر الحدوث»

أجاب بوبي «لم يكن نادراً مع ألان وهيربي»

«أقصد أنَّ الفُرَص عموماً نادرة في المجتمع، في المدينة»

أصرَّ بوبي، بصوت مرتعش، «هذا الكلام لا يُفيد ألان وهيربي»

«أنت مُصيب، يا بوبي. أنت مُصيب. لا يُفيد. إنَّ ما وقع لهما فظيع. ما حدث للأولاد كلهم فظيع»

هنا تكلَّم أحد الأولاد الجالسين على المُدرَّج، واسمه كيني بلمنْفيلد، على الرغم من أنَّ ما قاله لم يكن مفهوماً بسبب الحالة التي كان عليها. كان طويل القامة، قوياً، ذكيّاً، سليم النُطق، وبلغ سن الرابعة عشرة في عامه الثاني في المدرسة الثانوية اليهوديّة، وخِلافاً لغالبيّة الفتية الآخرين، كان راشداً في مقدرته على تخطّي العاطفة في مسائل الربح والخسارة. وكان، مع ألان، يقوم بدور القائد في الملعب، الفتى الذي دائماً يُنتقى ليكون قائد الفريق، وصاحب الذراعين والساقَين الطِّول ويُنفِّذ الضربات الطولى - ومع ذلك كان كيني، الأكبر سناً والأضخم جثّة والأكثر نُضجاً بينهم جميعاً، هو الأشدّ ثباتاً عاطفيّاً كما كان جسديّاً، وكان يضرب قبضتيه على فخذَيه بينما الدموع تسيل على وجهه.

تقدَّم السيد كانتور من مقعده وجلس إلى جواره.

قال كيني، من خلال دموعه، متكلِّماً بصوتٍ أجشّ، «إنَّ أصدقائي كلّهم يُصابون بشلل الأطفال! كل أصدقائي سوف يُصبحون مُعاقين أو سوف يموتون!»

إجابةً على كلامه وضعَ السيد كانتور يده على كتف كيني ولم يقُل شيئاً. مدَّ بصره بعيداً على امتداد الميدان حيث كان هناك فريقان منهمكان في لعب المباراة، غير عارفين بما يجري خارج حدود الملعب. وتذكَّرَ تحذير الدكتور ستاينبرغ له بعدم المُبالغة في تقدير حجم الخطر، ومع ذلك قال في نفسه: إنَّ كيني على صواب. كلهم على صواب. الذين في الميدان والذين على المُدرّجات. والفتيات اللائي يلعبن نط الحبل. كلهم أطفال، والمرض يُلاحق الأطفال، وسوف يجتاح هذا المكان ويبيدهم جميعاً. وعندما أحضر في صباح كل يوم ستكون حفنة أخرى قد رحلتْ. لا شيء يمكن أنْ يوقِفه إلّا إذا أغلقوا الملعب. وحتى إذا أغلقوه فهذا لن يُفيد - في

النهاية سوف ينال منهم حتى آخر طفل. إنَّ الحيّ محكومٌ عليه بالموت. لن يتبقّى طفلٌ واحدٌ على قيد الحياة سليماً، هذا إنْ نجا أحد أصلاً.

ومن ثم، فجأة، فكَّرَ في ثمرة الخوخ تلك التي أكلها على شرفة منزل الدكتور ستاينبرغ الخلفيّة في الليلة السابقة. لم يسعه إلّا أنْ يشعر بعصيرها يسيل على يده، وللمرة الأولى شعر بالخوف على نفسه. والمُذهِل هو المدَّة الطويلة التي كبح خلالها الإحساس بالخوف.

راقبَ كيني بلمنفلد يبكي على أصدقائه الذين حاصرهم شلل الأطفال، وفجأة تمنّى لو يهرب من العمل بين هؤلاء الأولاد - لو يهرب من الوعي المستمر بالخطر المُلِحّ. رغبَ في الهرب، كما أرادتْ مارسيا منه أنْ يفعل.

لكنّه بدل ذلك جلس بهدوء بجوار كيني إلى أنْ خمد البكاء. ثم قال له «سوف أعود - أنا ذاهب لألعبَ قليلاً». ونزل عن المُدرَّجات وانتقل إلى الملعب، حيث قال لباري ميتلمان، لاعب القاعدة الثالث، «ابتعد عن أشعة الشمس الآن، والجأ إلى الظل، اشرب ماءً»، وأخذ قفّاز باري، وتمركَزَ في الموقع الثالث، وهو يُسوّي جيب القفّاز ببراجمه بنشاط.

مع نهاية النهار، كان السيد كانتور قد لعب في المواقع كلّها في الملعب، مانحاً فرصة للأولاد من الفريقين للجلوس والاستراحة من اللعب في الظل لكيلا ترتفع حرارتهم أكثر من اللازم. لم يعرف ماذا يفعل أيضاً لمنع المرض من الانتشار. كان في أثناء اللعب، يُضطر إلى رفع القفّاز عالياً فوق قبعة لعبة البيسبول لكيلا تُبهِره أشعة الشمس، لأنَّ شمس الساعة الرابعة عصراً لا تقلّ أذى عن شمس منتصف الظهيرة الضاربة. والذي أدهشه أنّه كان يسمع خلفه في شارع المدرسة الفتيات الثلاث اللائي تلسعهنّ أشعة الشمس، لا يزلن يلعبن بكل حماس، ولا يزلن في ذروة نشاطهن.

سين، اسمي سالي
واسم زوجي سام...

عند حوالي الساعة الخامسة، عندما كان الأولاد يلعبون الجولة الختاميّة من المباراة الأخيرة في ذلك النهار - تنحّى لاعبو الميدان جانباً بقمصانهم التي تحمل شِعار لعبة البولو والأولاد الضاربون أيضاً بنطلوناتهم الفضفاضة وبلا قمصان - سمعَ السيد كانتور صياحاً مرتفعاً من قلب الملعب. كان صوت كيني بلمنْفيلد غاضباً من هوراس، دون الناس جميعاً. وكان السيد كانتور قد لاحظَ وجود هوراس جالساً على طرف المقعد في وقتٍ مُبكّر من بعد الظهيرة لكنّه سرعان ما أضاعَ أثره ولم يتذكَّر أنّه رآه بعد ذلك. ربما انطلقَ لكي يهيم على وجهه في الحيّ وعاد تواً إلى الملعب وقرَّر، رغبةً منه في الدخول إلى ميدان اللعب والوقوف بصمت ومن دون أنْ يأتي بأيّة حركة بجوار أحد اللاعبين، أنْ يقترب من كيني ليكون قريباً من أضخم الأولاد من بين الفريقَين. وفي وقتٍ مُبكّر من النهار كان كيني، بصورة غير معهودة منه، يجهش بالبكاء على فقدان أصدقائه، والآن كان كيني، أيضاً بصورة غير معهودة منه، هو الذي يصرخ في وجه هوراس مُلوِّحاً له مُهدِّداً بقفّازه كي يبتعد. ولم يكن كيني فقط أضخم الأولاد، بل كان جليّاً وهو لا يرتدي قميصاً أنّه الأقوى أيضاً. وبالمقارنة، بدا هوراس، الذي يرتدي بذلته الصيفيّة المعتادة وقميصاً فضفاضاً بنصف كُم وبنطلوناً منفوخاً من القطن مع حزام من المطّاط وينتعل حذاءً مُخرَّماً قديم الطراز، أبيض وبنيّاً، بدا أنّه يُعاني من نقصٍ في التغذية إلى درجة الهزال. كان صدره غائراً، وساقاه نحيلتين، وذراعاه العجفاوان الجديرتان بدمية، تتدليان بوهن على جنبيه، وكأنَّ في استطاعتك أنْ تكسرهما إلى نصفَين كما تكسر عصا على رُكبتك. بدا كأنَّ نوبة خوف شديدة يمكن أنْ تقتله، فما بالك بضربة من فتى بحجم كيني.

في الحال، قفز السيد كانتور عن مقعده وهرع بأقصى سرعة خارج الملعب وهرع كل الأولاد المشتركون في المباراة والجالسون على المدرّجات معه وتوقفت الفتيات الثلاث في الشارع عن نط الحبل، ربما للمرة الأولى طوال فصل الصيف.

«أبعدوه عني!» هكذا كان كيني نفسه - الفتى الذي كان قُدوة في النضج بالنسبة إلى الآخرين، الذي لم يكن لدى السيد كانتور سبب للومه بسبب فشله في ضبط نفسه - يجأر الآن، «أبعدوه عني وإلّا سأقتله!»

سأل السيد كانتور «ما الأمر؟ ما الذي يجري؟». وقفَ هوراس في مكانه منكّس الرأس والدموع تسيل على وجهه ويعول، مُصدِراً ما يُشبه إشارة إذاعيّة من عمق حنجرته - صوتاً رفيعاً، مُتذبذباً، يُعبرِّ عن البؤس.

صرخ كيني «شُمَّ رائحته! إنَّ البراز يُغطّيه! أبعدوه عني! إنّه هو! هو الذي ينقل عدوى شلل الأطفال!»

قال السيد كانتور، مُحاولاً أنْ يُسيطر على الفتى، الذي كان يُحرِّر نفسه منه بعنف، «اهدأ، يا كِن». كان اللاعبون من كلا الفريقين يُحيطون عندئذٍ بهما، وعندما اندفعَ عددٌ من الأولاد إلى الأمام للإمساك بكيني من ذراعيه وإبعاده عن المكان الذي كان يُعنِّف فيه هوراس، استدار لكي يضربهم بقبضتيّ يديه، فقفزوا جميعاً مُبتعدين.

صرخ كيني «لن أهدأ! إنَّ البراز يُغطي ملابسه الداخليّة كلها! والبراز يُغطي يديه! إنّه لا يغتسل وهو ليس نظيفاً، ومن ثم يراد منا أنْ نُمسك يده، ونُصافحها، وهكذا ينشر عدوى شلل الأطفال! هو الذي يُصيب الناس بالإعاقة! هو الذي يقتل الناس! ابتعد من هنا، يا هذا! ابتعد! اذهب!» ومرة أخرى لوّحَ بقفّازه بعنف في الهواء وكأنّه يتفادى هجوم كلب مسعور.

في تلك الأثناء، تمكّنَ السيد كانتور، بعد أنْ نجح في تجنّب ضربات ذراعيّ كيني، من حشر نفسه بين الفتى المهستر والمخلوق المذعور الذي كان يصبُّ عليه جام غضبه.

قال له السيد كانتور بهدوء «يجب أنْ تذهب إلى البيت، يا هوراس. اذهب إلى والديك. لقد حان وقت تناول الطعام. حان وقت الأكل»

لقد كان هوراس حقاً تفوح منه رائحة كريهة - رائحة فظيعة. وعلى الرغم من أنَّ السيد كانتور كرّر الكلمات للمرة الثانية، ظلَّ هوراس يبكي ويعول ولا يقول شيئاً.

قال السيد كانتور «خُذ، يا هوراس»، ومدَّ يده إليه. ومن دون أنْ يرفع نظره، أمسك هوراس اليد بارتخاء بيده وصافحه السيد كانتور بحرارة كما كان قد صافحَ يد الدكتور ستاينبرغ بعد أنْ تلقّى موافقته على أنْ يكون خطيب مارسيا في الليلة السابقة.

همس السيد كانتور «كيف حالك، يا هوراس؟» وهو يهزّ يد هوراس إلى أعلى وإلى أسفل، «كيف حالك، يا بنيّ؟»، ومرَّ وقتٌ أطول من المعتاد، ولكن بعد ذلك، كما كان يحدث دائماً في الماضي عندما يمشي ببطء لكي يقف بجوار أحد اللاعبين في الملعب، نجحتْ خدعة أداء شعيرة المُصافحة، وهدأ هوراس، ثم استدار نحو باب الخروج من الملعب لكي يُغادر، إمّا إلى المنزل أو إلى أي مكان آخر، لا أحد يعلم، ولا حتى هوراس نفسه. وتراجع كل الأولاد الذين سمعوا صراخ كيني بعيداً عن هوراس وهم يُراقبونه يبتعد وحيداً داخل قلب الحرارة، بينما الفتيات يصرخن بأصوات حادّة، «إنّه يُلاحقنا! الأبله يُلاحقنا!» وركضن مع حبال النط نحو حركة مرور بعد الظهيرة في جادّة تشانسلر، ركضنَ بأقصى سرعتهن مبتعدات عن مشهد المدى الذي يمكن أنْ تصل إليه البلوى الإنسانيّة.

لكي يُهدِّئ السيد كانتور من روع كيني، طلبَ منه أنْ يبقى بعد أنْ ابتعد باقي الأولاد لكي يُساعده في إعادة أدوات الملعب في مخزن الطابق التحتيّ. ثم، أخذ يتحدث إلى كيني بهدوء وهما يسيران، ورافقه السيد كانتور إلى منزله القائم في أسفل التل في جادّة هانسبري.

قال له «إنَّ الأمر يرزح ثقيلاً على كاهل الجميع، يا كن. لستَ الوحيد في الحيّ الذي يشعر بثقل وطأة شلل الأطفال. الجميع في أقصى حالات التوتُّر، بين حالة الطقس والمرض»

«لكنّه ينشره، سيد كانتور. أنا واثق من هذا. ما كان ينبغي أنْ أفقد صوابي، أنا أعلم أنّه أبله، لكنّه قذر وهو ينشر المرض. إنّه يتمشّى في كل مكان ويترك لعابه يسيل على كل شيء ويُصافح الجميع وهكذا ينشر الجراثيم في كل مكان»

«أولاً، يا كن، نحن لا نعلم ما الذي ينشره»

قال كيني «بل نعلم. إنها القذارة، والوساخة، والبراز» وقد احتدم غضبه من جديد. «وهو قذِر ووسِخ، وكله براز، وهو ينشره. أنا متأكّد»

على الرصيف وأمام منزل كيني، أمسك السيد كانتور به من كتفيه بحزم، وأخذ كيني يرتجف من فرط الاشمئزاز، وفي الحال تحرَّرَ من بين يديه وصرخ «لا تلمسني! أنتَ لمستَه تواً!»

قال السيد كانتور، ولا يزال متمالكاً نفسه لكنّه تراجع خطوة، «اذهب إلى الداخل. وخذْ دشّاً بارداً. واشرب شراباً بارداً. اهدأ يا كِن، وسوف أراك غداً في الملعب»

«لكنّكَ تتجاهل الذي ينشره لأنه إنسان ضعيف! لكنّه ليس ضعيفاً فقط – إنه خطِر! ألا تفهم، يا سيد كانتور؟ إنه لا يعرف كيف ينظّف نفسه من البراز، ولذلك تراه يتركه على كل شخص آخر!»

في مساء ذلك اليوم، وبينما كان يُراقب جدَّته وهي تقدِّم له وجبة العشاء، وجدَ نفسه يتساءل إنْ كانت أمّه ستبدو هكذا لو أنَّ الحظَّ حالفها وعاشتْ خمسين سنة أخرى– ضعيفة، محنيّة الظهر، هشّة العِظام، بشَعرٍ فَقدَ قبل عقودٍ لونه الفاحم وأصبح خفيفاً حتى أضحى كتلة بيضاء، وببشرة رخوة عند منحنى ذراعيها مع لغدة سميكة تتدلّى من تحت ذقنها ومفاصل تؤلِمها في الصباح وكاحلين يتورّمان وينبضان مع هبوط الليل وبشرة رقيقة شفّافة تكسو يديها المُرقّشتين وإعتام في العينين حجب بصرها وأزال ألوانه. أما الوجه الذي يعلو حُطام عنقها، فأصبح خليطاً مشدوداً من التجاعيد، والأخاديد المُرتّبة بشكلٍ مرهف ودقيق وكأنما حفرتها أداة أقلّ فظاظة من هراوة التقدُّم في السِن – ربما إبرة حفر، أو أداة صنع التخريم، يستخدمها صانع بارع ليجعلها تبدو جدَّة طاعنة في السن كأيّة جدَّة على الأرض.

كان هناك تشابه شديد بين أمّه وجدَّته عندما كانت أمّه في طور النموّ.

لقد شاهد ذلك في الصور الفوتوغرافيّة، حيث لاحظ للمرة الأولى، طبعاً، الشبه الكبير بينه وبين أمّه، خاصّة في صورتها الشخصيّة المؤطّرة التي أُخِذَتْ عند المُصوِّر والموضوعة على خزانة الملابس في غرفة نوم جدّيه. كانت الصورة، التي أُخِذَتْ لها عند تخرّجها في المدرسة الثانويّة وهي في الثامنة عشرة، في السجل السنويّ في ثاوث سايد عام 1919 الذي كثيراً ما كان بَكي يتصفّحه وهو تلميذ مدرسة صغير يبدأ باكتشاف أنَّ الأولاد الآخرين في صفّه ليسوا أحفاداً يعيشون مع جدّين بل أبناء يعيشون مع أمّ وأبّ فيما توصّلَ إلى الاعتقاد أنّها «عائلات حقيقيّة». وقد أدركَ كم أنّ قدومه إلى العالم محفوف بالخطر عندما منحه البالغون السحنة التي مقتها، السحنة المُثيرة للشفقة التي يعرفها جيداً، بما أنّه كان يحصل عليها أحياناً من أساتذته أيضاً. السحنة التي ازدادتْ وضوحاً بحيث أنَّ تدخّل تقدُّم والدي أمّه في السن هو كل ما وقفَ عائقاً بينه وبين المبنى الكئيب المبني بحجر القرميد الأحمر والمؤلّف من أربعة طوابق الكائن بالقُرب من جادّة كليتون بسياجه الحديديّ الأسود ونوافذه ذات الزجاج الصخريّ المُغطّى بالقضبان الحديديّة وبابه الخشبيّ الثقيل المُزيَّن بالنجمة اليهوديّة البيضاء وتعلوه نافذة عريضة محفورة عليها الكلمات الثلاث الأشدّ بؤساً التي قرأها في حياته: **ملجأ الأيتام اليهود**.

على الرغم من أنَّ صورة التخرُّج التي على خزانة غرفة النوم تمثِّل، كما قالت جدَّته، تمثيلاً مثاليّاً الروح العطوف التي تبثّ الروح في أمّه، إلّا أنها لم تكن صورتها المُفضّلة لديه، بسبب رداء التخرُّج القاتم الذي ارتدته فوق ثوبها، وكأنَّ الرداء في الصورة كان يُنذِر بكَفَنها ويشير إليه. ومع ذلك، عندما يبقى وحده في المنزل بينما جدَّاه يعملان في مكان قريب في المتجر، كان يُغير على غرفة جدّيه لكي يُمرِّر أحد أصابعه على الزجاج الذي يحمي الصورة، مُقتفياً حدود وجه أمّه وكأنَّ الزجاج لا وجود له والوجه حاضر بذاته. كان يفعل ذلك على الرغم من أنّه يدفعه إلى الشعور بحِدَّة ليس بالحضور الذي يسعى إليه بل بغياب شخص لم

يره قط في أي مكان آخر غير الصور، ولم يسمع صوته ينطق اسمه، ولم يستمتع بترف دفئه الأموميّ، الأم التي لم تتمكن من الاعتناء به أو بإطعامه أو بوضعه في سريره أو بمساعدته في إنجاز الواجب المدرسيّ أو مراقبته وهو ينمو ليُصبح أول عضو في العائلة يلتحق بالجامعة. ومع ذلك هل في استطاعته حقاً أنْ يقول إنّه لم يتلقَّ ما يكفي من الرعاية وهو طفل؟ لماذا كان الحنان الحقيقي لجَدَّةٍ مُحِبّةٍ أقلّ إشباعاً من حنان الأم؟ لا ينبغي أنْ يكون كذلك، ومع ذلك شعرَ في سِرّه بأنّه كذلك - وشعرَ سرّاً بالخجل لحمله هذه الفكرة.

بعد مرور كل ذلك الوقت، تبدّى للسيد كانتور فجأة أنَ الله لم يكن فقط ببساطة يترك شلل الأطفال يفتك بالقِطاع اليهوديّ بل إنَّ الله، قبل ثلاثة وعشرين عاماً، سمحَ أيضاً لأمّه، التي لم يكن قد مرَّ على تخرّجها في المدرسة الثانويّة أكثر من سنتين وكانت أصغر سناً مما هو عليه الآن، بأنْ تموت وهي تضع مولودها. لم يكن قد فكّر في موتها هكذا من قبل. لطالما بدا له في السابق، بسبب العناية المُحبّة التي تلقّاها من جَدّيه، أنَّ فقدان أمّه عند الولادة كان شيئاً مُقدّراً حدوثه له وأنَّ تربية جَدّيه له كانت نتيجة طبيعيّة لموتها. كذلك كان موت والده المقامِر واللص مُقدَّراً حدوثه ولم يكن في الإمكان تجنّبه. أما الآن فلم يعُد طِفلاً وأصبحَ قادراً على فهم أنَّ سبب عدم إمكان أنْ تؤول الأمور إلى غير ما آلتْ إليه هو الله. ولولا الله، لولا *طبيعة* الله، *لكانوا* شيئاً آخر.

لم يكن في استطاعته أنْ يجهر بهذه الفكرة أمام جدّته، التي لم تكن أكثر تأمُّلاً من جَدّه، ولم يكن يميل إلى مناقشتها مع الدكتور ستاينبرغ. وعلى الرغم من أنَّ الدكتور ستاينبرغ كان رجلاً مُفكِراً بامتياز، فإنه كان أيضاً يهودياً مُحافِظاً وقد يشعر بالإهانة بسبب التحوُّل الفكري الذي أحدثه وباء شلل الأطفال في السيد كانتور. لم يرغب في إهانة أيّ من أفراد عائلة الدكتور ستاينبرغ، ومارسيا قبل أيٍّ منهم، التي كانت الأعياد الكبرى بالنسبة إليها مصدر احترام ووقتاً للصلاة عندما كانت تحضر

طائعةً طقوس الكنيس مع أفراد عائلتها خلال أيام الأعياد الثلاثة. أرادَ أنْ يُبدي احترامه لكل ما هو عزيز على آل ستاينبرغ، بما فيه، طبعاً، الدِين الذي يُشاركهم فيه، وإنْ كان، كجَدِّه - الذي كان الواجب بالنسبة إليه هو الدين، وليس العكس - لا يُبالي بالدفاع عنه. ولطالما كان إبداء الاحترام التامّ أمراً سهلاً حتى اللحظة التي ثار فيها غضبه بسبب كل الأولاد الذين فقدهم بسبب شلل الأطفال، بمَنْ فيهم أولاد كوفرمان الفاسدين. وقد ثار غضبه ليس على الإيطاليين أو ذباب المنازل أو البريد أو الحليب أو النقود أو سيكوكوس بروائحه الكريهة أو القلب الذي لا يعرف الرحمة أو على هوراس، ليس على أيّ دافع، مستبعَد، قد يتقدَّم الناس على أساسه، بدافع خوفهم واضطرابهم، ويشرحون أسباب انتشار الوباء، ولا حتى على فيروس شلل الأطفال، بل على المصدر، على المُسبِّب - على الله، الذي خلقَ الفيروس.

«ألا ترى أنكَ ترهق نفسك، يا يوجين؟». كانا قد انتهيا من تناول وجبة العشاء وأخذ يقوم بالتنظيف بينما جلستْ إلى الطاولة ترشف كوباً من الماء من الثلاجة. قالت «إنكَ تهرع إلى الملعب، وتسرع لتزور عائلات الأولاد، وفي أيام الآحاد تحضر الجنازة، وتعود مسرعاً إلى المنزل في المساء لكي تساعدني - لعل عليك في عطلة هذا الأسبوع أنْ تتوقف عن التنقُّل بسرعة هنا وهناك وسط هذا الحرّ وتستقلّ القطار وتبحث عن غرفة مع سرير تقضي فيها العطلة الأسبوعيّة على الشاطئ. خذ فترة استراحة من كل شيء. ابتعد عن الحرّ. ابتعد عن الملعب. اذهب للسباحة. سوف يفيدك ذلك أيَّما فائدة»

«هذه فكرة، يا جدّتي. وليست فكرة سيئة»

«يمكن لآل إينمان أنْ يعتنوا بي، وتعود أنت في ليل يوم الأحد إلى المنزل منتعشاً. إنَّ شلل الأطفال يُرهقك. إنّه ليس في مصلحة أحد»

كان قد أخبرها أثناء تناول العشاء عن الإصابات الثلاث الجديدة التي

ظهرت بين أولاد الملعب وقال إنّه كان ينوي أنْ يتصل هاتفياً بالعائلات لاحقاً، بعد أنْ تعود إلى المنازل من المستشفى.

في تلك الأثناء، عادت الصفّارات إلى العويل من جديد، وفي موقع قريب من المنزل، وهو أمر غير عادي، لأنه حسب عِلمه لم تكن هناك أكثر من ثلاث إصابات أو أربع في كامل المنطقة السكنيّة المُثلّثة المؤلّفة من الجادّات سبرينغفيلد، وكليتون، وبلمونت. والعدد هو الأدنى بين أحياء المدينة. وفي الطرف الجنوبيّ من المُثلّث، حيث كان يُقيم مع جَدَّته وحيث الإيجار هو نصف ما كانوا يدفعونه في القِطاع اليهوديّ، ولم تظهر إلّا حالة إصابة واحدة بشلل الأطفال - والضحية رجل بالغ في الثلاثين، حمّال في السفن يعمل في الميناء - بينما في القِطاع اليهوديّ، بمدارسه الابتدائيّة الخمس، كانت هناك أكثر من مئة وأربعين إصابة، كلها بين أطفال تحت سن الرابعة عشرة، خلال الأسابيع الأولى من شهر تموز فقط.

نعم، طبعاً - الشاطئ، حيث فرَّ بعضٌ من أولاد الملعب مُسبقاً مع أمهاتهم لقضاء ما تبقّى من فصل الصيف. كان يعرف منزلاً لتأجير الغرف بعيداً عن الشاطئ في برادلي يستطيع أنْ يحصل على أحد الأسرَّة الصغيرة في القبو مقابل دولار. في استطاعته أنْ يقوم بالغوص من فوق منصّة الممشى الخشبيّ العالية إلى بركة كبيرة من المياه المالحة، ويغوص طوال النهار ومن ثم يتمشّى في الليل على طول الرصيف حتى مُتنزّه آشبوري وينتقي تشكيلة من أصداف بطلينوس المقليّة ويشرب بيرة الجذور في الرواق المُقنطر ويجلس على أحد المقاعد المواجهة للمحيط ويأكل باستمتاع وهو يراقب أمواج الشاطئ تتكسّر عليه. أي شيء أبعد من هذا عن وباء شلل الأطفال في نيوارك، أي شيء مفيد له أكثر من الهدير الليليّ المُظلِم للمحيط الأطلسيّ؟ كان فصل الصيف ذاك هو الأول منذ بداية الحرب عندما اعتُبِرَ خطر الغواصات الألمانيّة في المياه القريبة أو خطر المُخرِّبين الألمان القادمين من البحر ليرسوا على الشاطئ بعد هبوط الليل قد انتهى، وعندما رُفِعَت حال التعتيم، وعندما عادت الأنوار لتُضاء

من جديد على طول شاطئ جيرزي – على الرغم من أن خفر السواحل كان لا يزال يقوم بدورياته على الشواطئ ويحمي المعاقل الصغيرة على طول الساحل. وكان هذا يعني أنَّ الألمان واليابانيين معاً كانوا يتكبّدون الهزائم الساحقة وأنَّ الحرب الأميركيّة، بعد قرابة ثلاث سنوات من بدايتها، بدأتْ تقترب من نهايتها. وكان يعني أنَّ أفضل صديقَين لديه في المدرسة، بيغ جيك غارنوزيك وديف جاكوبس، سوف يعودان إلى أرض الوطن سالمَين، إذا استطاعا أنْ ينجوا خلال أشهر القِتال المتبقّية في أوروبا. تذكّرَ أغنية كانت مارسيا تحبّها كثيراً: «سوف أراك في كل الأماكن المألوفة القديمة». قال في نفسه، سوف يكون يوماً عظيماً عندما يرى جيك وديف في الأماكن المألوفة القديمة!

لم يتمكن من تجاوز الإحساس بالخزي لأنه ليس معهما، ولا حيلة له في ذلك. لقد انتهى بهما الأمر إلى الانضمام إلى وحدة جويّة، يقفزان من الطائرات إلى أرض المعركة – وهو ما أراد أنْ يفعله، بل ما خُلِقَ ليفعله. وقبل ذلك بستة أسابيع، عند فجر يوم الاجتياح العسكري، كانا عضوين في قوى المظلات الضخمة التي حطّتْ خلف الخطوط الألمانيّة على شبه جزيرة نورماندي. وقد علِمَ السيد كانتور من التواصُل مع عائلتيهما أنّه على الرغم من الضحايا العديدين الذين سقطوا خلال الاجتياح، نجا الاثنان. ومن تتبُّع الخرائط في الصحف التي تعدُّ لتقدُّم الحلفاء، فهِمَ أنهما ربما وسط قِتالٍ ضارٍ لاحتلال شربور في أواخر شهر حزيران. وأول ما قام السيد كانتور بالبحث عنه في صحيفة *نيوارك نيوز* التي كانت جدّته تحصلُ عليها من آل أينمان في كل ليلة بعد أنْ ينتهوا من قراءتها هو كل ما استطاع العثور عليه عن حملة جيش الولايات المتحدة في فرنسا. بعد ذلك، قرأ الخبر الرئيس على الصفحة الأولى من الصحيفة الذي عنوانه «النشرة اليوميّة عن شلل الأطفال» وورد تحت صورة للافتة الحجر الصحيّ التي تقول «هيئة الصحة في نيوارك، نيو جيرزي. ابتعد. هذا المكان يضمّ حالة مُصابة بشلل الأطفال. إنَّ كل مَنْ يخرق قوانين وإجراءات العزل

والحجر الصحيّ للهيئة أو مَنْ يزيل عن عمد، أو يطمس أو يحجب هذه اللافتة من دون وجه حق يُعرِّض نفسه لدفع غرامة 50$». كانت نشرة أخبار شلل الأطفال، التي كانت تُبثّ أيضاً في كل يوم عبر أثير محطة الإذاعة المحليّة، تزوّد أهالي نيوارك بالمستجدات عن رقم وموقع كل حالة إصابة جديدة في المدينة. وكان كل ما يقرأه الناس ويسمعونه هناك، حتى ذلك الحين خلال فصل الصيف هذا، لا يتماشى مع ما كانوا يأملون في العثور عليه – أي أنَّ الوباء يتراجع – بل بالأحرى أنّ عدد الإصابات الجديدة قد ازداد من جديد عمّا كان عليه في اليوم السابق. وطبعاً، كان أثر الأعداد يبثّ الإحباط، والخوف والإرهاق. لأنَّ تلك الأرقام لم تكن مُجرَّدة يتعوّد المرء على سماعها عبر الإذاعة أو يقرأ عنها في الصحيفة، الأرقام التي تعمل على تحديد موقع منزل أو تسجّل عمر شخص أو تُعيِّن سِعر حذاء. تلك الأرقام كانت مُرعِبة تضع جدولاً حول تطور المرض المريع وتوازي في تأثيرها، في أجنحة مستشفيات نيوارك الستة عشر، أعداد الموتى، والجرحى والمفقودين في الحرب الحقيقيّة. لأنَّ هذه أيضاً كانت حرباً حقيقيّة، حرباً من الذبح، والدمار، والإبادة واللعنة، حرباً تتصِف بما تُحدِثه الحرب من خراب – حرباً على أطفال نيوارك.

نعم، كان في استطاعته أنْ يستغل بضعة أيام لنفسه يقضيها على الشاطئ. وهذا، في الحقيقة، ما كان يُخطِّط للقيام به مع بداية فصل الصيف – بعد رحيل مارسيا، سوف يتوجه إلى الشاطئ في عطلة كل أسبوع لكي يقضي اليوم كله في ممارسة الغوص ومن ثم يتمشى ليلاً على الرصيف حتى آشبوري ليأكل وجبته المُفضّلة من ثمار البحر. كان القبو الذي استأجر فيه سريراً شديد الرطوبة، والماء نادراً ما يكون حاراً في الدّش الذي يستخدمه الجميع وهناك رمل على أغطية السرير وعلى المناشِف، لكنَّ الغوص كان رياضته المُفضّلة، بعد رمي الرمح. سوف يُساعده يومان من ممارسة الغوص على التحرُّر، على الأقلّ مؤقّتاً، من

انشغاله بأولاده المبتلين ويُهدِّئ من توتره جرّاء نوبات كيني بلمنفلد الهيستيريّة وربما يُنقّي ذهنه من الحقد الذي يكنّه لله.

ثم، عندما كانت جدَّته في الخارج مع الجيران وانتهى هو تواً من أعمال التنظيف وجلسَ على الطاولة بقميصه الداخليّ الذي بلا كُمَّين والسروال الداخلي القصير لكي يشرب كوباً آخر من الماء المُثلَّج، اتصلتْ به مارسيا. كان الدكتور ستاينبرغ قد وافقَ على انتظار السيد كانتور لكي يتحدث مع مارسيا قبل أنْ يقول هو أو السيدة ستاينبرغ أي شيء لها عن الخطبة، لذلك اتصلتْ من دون أنْ تعلم بأمر الحديث الذي دار في الشرفة الخلفيّة في الليلة السابقة. اتّصلتْ لتُخبره بأنها تحبّه وتشتاق إليه ولتعرف قراره بشأنْ قدومه إلى المعسكر لكي يحلّ محل إرف شلانغر كمُدير الواجهة البحريّة.

سألته «ماذا أقول للسيد بلومْباك؟»

قال السيد كانتور «أخبريه أنني موافق»، وأدهشَ نفسه بما وافق عليه تواً بقدر ما أدهشها بطلب موافقة الدكتور ستاينبرغ على خطبته لابنته. قال «أخبريه أنني أوافقَ»

ومع ذلك كانت لديه نيّة كاملة في قبول اقتراح جدَّته وحشد طاقاته للعودة إلى عمله بنشاط متجدِّد. إذا استطاع جيك وديف أنْ يهبطا بالمظلة داخل فرنسا التي تحتلها ألمانيا في يوم الإنزال ويساعدا في إرساء رأس جسر ساحلي للحلفاء بالقتال لشقّ طريق داخل شربور في وجه أعتى مقاومة ألمانيّة بشريّة، ففي استطاعته أنْ يواجه أخطار إدارة ملعب في مدرسة جادّة تشانسلر وسط انتشار وباء شلل الأطفال.

هتفت مارسيا «أوه، بَكي، هذا رائع! لأنني أعرفك، كنتُ أخشى أنْ ترفض. أوه، سوف تأتي، سوف تأتي إلى إنديان هيل!»

«يجب أنْ أتّصل بأوغارا لأزفّ له الخبر، وسوف يُضطر إلى أنْ يجد مَنْ يحلّ محلي. أوغارا هو المسؤول عن الملعب في مكتب المُدير. وسوف يستغرق هذا يومَين»

«أوه، افعل ذلك بأسرع وقت ممكن!»

«سوف أُضطرّ إلى التحدُّث مع السيد بلومْباك نفسه، حول الراتب. يجب أنْ أدفع قيمة الإيجار وأُعيل جدَّتي»

«أنا واثقة من أنَّ الراتب لن يُشكِّل أيّة مشكلة»

قال «ويجب أنْ أتحدث معك حول خطبتنا»

«ماذا؟ تفعل ماذا؟»

«سوف نصبح خطيبَين، يا مارسيا. لهذا أقبل العمل. لقد طلبتُ موافقة والدك ليلة أمس هناك في منزلكم. سوف آتي إلى المعسكر وسوف أخطبك»

قالت، وهي تضحك «أحقاً؟ ألا تجري العادة أنْ يؤخَذ رأي الفتاة، حتى فتاة مُطيعة مثلي؟»

«صحيح؟ أنا لم أفعل هذا من قبل. هل تقبلين أنْ تكوني خطيبتي؟»

«طبعاً! أوه يا إلهي، بَكي، إنني غاية في السعادة!»

قال «وأنا كذلك، في أقصى حالات السعادة»، وكاد ينسى، لبرهة من الزمن، وبسبب هذه السعادة، خيانته لأولاد الملعب، كاد ينسى غضبه من الله بسبب حكمه المجرم على أطفال القِطاع اليهودي الأبرياء. كاد، وهو يتحدث مع مارسيا، يتجاهلهم ويندفع إلى أحضان الأمان وتوقُّع حياة طبيعيّة راضية تُعاش في زمن عاديّ. ولكن بعد أنْ أنهى المكالمة، وقفَ وجهاً لوجه مع مُثُله العليا - مُثُل الصِدق والقوة اللتين ربّاه عليهما جَدُّه، مُثُل الشجاعة والتضحية التي تقاسمها مع جيك وديف، مُثُل غذّاها وهو صبي لكي ينأى بنفسه عن وَلَع والدٍ مُنحرف بالخِداع - مُثُله كرجل تُطالبه بأنْ يعكس اتجاهه في الحال ويعود حتى آخر فصل الصيف إلى العمل الذي وقَّع عقداً لإنجازه.

كيف استطاع أنْ يفعل ما فعله تواً؟

* * *

في الصباح أخرجَ المعدّات من المخزن وشكّلَ فريقَين وأخذَ يُعدّ مباراة في السوفتبول من أجل الأولاد الذين يقلّ عددهم عن العشرين وحضروا للّعب. ثم عاد إلى الطابق التحتيّ ليتّصل بأوغارا من مكتبه ويُخبره بأنه سوف يترك عمله في نهاية الأسبوع لكي يستلم منصبه كمدير للواجهة البحريّة في معسكر صيفيّ في بوكونوس. وفي صباح ذلك اليوم وقبل أنْ يتوجّه إلى الملعب، سمعَ خبراً عبر المذياع مفاده أنَّه ظهرتْ تسعٌ وعشرون إصابة جديدة بشلل الأطفال في المدينة، ست عشرة منها في القِطاع اليهوديّ.

قال أوغارا «إنه الشخص الثاني في صباح هذا اليوم. لديّ شخص يهودي في ملعب جادّة بيشين سوف يتركني أيضاً». كان أوغارا رجلاً عجوزاً مُتعباً ذا بطن كبير وهيئة عِدائيّة ظلَّ يُدير ملاعب المدينة على مدى أعوام كثيرة، وما زالت براعته الفائقة كلاعب كرة قدم في السنترال هاي خلال الحرب العالميّة الأولى تشكِّلُ ذروة إنجازات حياته. ففظاظته لم تكن بالضرورة قاتلة، ومع ذلك شوَّشَت السيد كانتور وجعلته يشعر بأنه مُراوغ يفتّشُ بطريقة صبيانيّة عن الكلمات المناسبة لتبرير قراره. وفظاظة أوغارا كانت تشبه فظاظة جدِّه، ربما لأنه اكتسبها من شوارع «الحيّ الثالث» الخشنة نفسها. كان جَدُّه، طبعاً، آخر شخص أرادَ أنْ يُفكّر فيه وهو يفعل ذلك لكي يُحافظ على كيانه الحقيقيّ. لقد أرادَ أنْ يفكّر في مارسيا وفي آل ستاينبرغ وفي المستقبل، ولكنْ بدل ذلك كان هناك جَدُّه لكي يُصدر حكمه مع قليل من اللكنة الأيرلنديّة.

أجاب السيد كانتور «إنَّ الشخص الذي سأحلّ محلّه في المعسكر سُحِبَ إلى الخدمة العسكريّة. ويجب أنْ أُغادر إلى المعسكر يوم الجمعة»

«هذا ما أناله مقابل منحكَ عملاً مُجزياً بعد تخرُّجك في الجامعة بعام واحد. أنتَ تُدرك أنكَ لم تحظَ بالضبط بثقتي بقيامك بهذا العمل الأبله. وتُدرك أنَّ تركي وسط هذا الوضع الحرج في شهر تموز مثل هذا لن يجعلني راغباً في استخدامك مرة أخرى، يا كانسر»

«اسمي كانتور» صحَّحَ له، وكان دائماً يُضطر إلى فعل ذلك عندما يتحدثان.

قال أوغارا «لا يهمني كم عدد الأشخاص الذين يلتحقون بالجيش. أنا لا أحبّ أنْ يتخلّى عني أحد وأنا في وسط العمل»، ثم أضاف «خاصة الذين لا *يلتحقون* بالجيش»

قال، متكلّماً بنبرة صوت أكثر حِدّة مما كان في نيّته، «أنا آسف لأنني سأتركك، يا سيد أوغارا، وأنا آسف لأنني لستُ في الجيش – إنني أشدّ أسفاً مما تعتقد»، ولكي يزيد الطين بِلّة، أضاف «يجب أنْ أذهب. لا خيار أمامي»

ردَّ أوغارا بعنف «ماذا؟ تقول ليس لديك خَيار؟ بل لديك خَيار حتماً. إنَّ ما تفعله اسمه اصطناع خيار. أنتَ تصطنع مهربك من شلل الأطفال. توقِّع عقداً لتولّي عمل، ثم يظهر مرض شلل الأطفال، فليذهب العمل إلى الجحيم، وليذهب الالتزام إلى الجحيم، وتهرب بأقصى ما في استطاعتك. إنَّ كل ما تفعله هو أنكَ تهرب، يا كانسر، وأنتَ صاحب العضلات وبطل العالم. أنت انتهازيّ، يا كانسر. ويمكنني أنْ أقول عنكَ ما هو أسوأ، ولكن يكفي هذا». ثم كرَّر فجأة، «انتهازيّ»، وكأنَّ الكلمة تَصِفُ كل غريزة مُنحطّة يمكن أنْ تَصِم الرجل.

أجابَ السيد كانتور بضعف، «لديّ خطيبة في المعسكر»

«لقد كانت لديكَ خطيبة أيضاً عندما وقّعت عقدك في مدرسة تشانسلر»

أسرعَ يقول، وكأنَّ ذلك سيُشكّل أي فرق بالنسبة إلى أوغارا، «لا، لا، لم يكن لديّ. نحن لم نُصبح خطيبَين إلّا في هذا الأسبوع»

«حسنٌ، لديك إجابة لكل شيء. كذاك الشخص من بيشين. أنتم معشر اليهود لديكم كل الإجابات. كلا، أنت لست غبياً – *ولكن أوغارا أيضاً ليس كذلك، يا كانسر*. حسن، حسن، سوف أُحضِر شخصاً آخر إلى هنا لكي يحلّ محلك، إنْ كان هناك أحد في هذه المدينة يستطيع أنْ يحلّ

محلك. وحتى ذلك الحين، سوف تقضي وقتاً مرحاً في شيّ حلوى الخطمي مع خطيبتك في معسكر الأطفال خاصتكما»

لم يكن كلامه أقلّ مهانة مما اعتقد، لكنّه قاله وانتهى الأمر. كان لديه فقط ثلاثة أيام لحلّ المشكلة في الملعب من دون أنْ يُصاب بشلل الأطفال.



-2-

إنديان هيل

لم يكن قد زار جبال بوكونوس من قبل، أو ارتقى المقاطعات الشماليّة الغربيّة الريفيّة الممتدة من نيو جيرزي إلى بنسلفانيا. لقد جعلته الرحلة بالقطار، خلال الجبال والغابات والمزارع المفتوحة، يتخيَّل أنّه يقوم برحلة أطول بكثير من مجرّد السفر إلى الولاية المجاورة. كان هناك بُعدٌ ملحميّ في الانسياب عبر مشهد جديد تماماً عليه، إحساسٌ انتابه مرات عِدَّة وهو يركب القطار - بما فيه خط جيرزي الذي حمله إلى الشاطئ - بأنَّ ثمة مستقبلاً جديداً ومجهولاً لديه يوشك أنْ يتكشَّف أمامه. ومشاهدة فجوة ديلاوير المائيّة، حيث يخترق النهر الذي يفصل بين نيو جيرزي وبنسلفانيا سلسلة الجبال قبل توقفه بخمس عشرة دقيقة فقط في ستراودسبرغ، زادتْ من قوة تأثير الرحلة وطمأنته - بلا أي سبب واضح - بأنه ليس هناك أي شيء مُخرِّب يمكن أنْ يتجاوز حاجزاً طبيعيّاً عظيماً كهذا وينال منه.

تلك كانت المرّة الأولى منذ وفاة جدّه، قبل ذلك بثلاثة أعوام، التي يترك فيها جَدَّته في رعاية أيّ شخصٍ آخر لأكثر من مجرد عطلة أسبوعيّة، والمرة الأولى التي يُغادر فيها المدينة لأكثر من ليلة أو اثنتين، والمرة الأولى التي لا تجتاحه فيها أفكار عن شلل الأطفال. كان لا يزال حزيناً على الصبيين اللذين توفيا، ولا يزال يُحزنه التفكير في كل ولد من أولاده الآخرين المُصابين بالمرض المُعيق، لكنّه لم يشعر بأنّ مُقتضيات الكارثة تربكه أو

بأنَّ شخصاً آخر كان يمكن أنْ يقوم بعمله بحماس أكبر. لقد واجه بكل اندفاع تحدّياً مدمّراً، مُستخدماً كل ما لديه من طاقة وبراعة - إلى أنْ اختار أنْ يتخلّى عن التحدّي ويهرب من المدينة الملتهبة وهو يرتجف تحت تأثير الوباء الذي يعمّها ودوّي صفارات الإسعاف التي لا تتوقف أبداً.

في محطّة ستراودسبرغ، كان كارل، سائق معسكر إنديان هيل، الرجل الضخم الذي يحمل وجه طفل ورأساً أصلع وذو السلوك الحيّ، في انتظاره في عربة محطة المعسكر القديمة. وكان كارل قد جاء إلى المدينة لكيّ ينقل المؤن وينتظر وصول قطار بَكي. وعندما صافحَ يد كارل، انتابت بَكي فكرة واحدة طاغية: إنه لا يحمل المرض. وأدركَ أنَّ الجو بارد هنا. بارد حتى تحت أشعة الشمس!

بعد مغادرة البلدة وحقيبته المصنوعة من نسيج صوفي خشن حُشِرَتْ في خلفيّة العربة، مرّا على طول الشارع الرئيس البهيج المؤلّف من أبنية من حجر الآجر ذات الطابقَين أو الثلاثة - التي تحتوي صفاً من المتاجر بموازاة الشارع ومكاتب أعمال في الطوابق الأعلى - ومن ثم انعطفا شمالاً وبدآ صعوداً بطيئاً على طرقات متعرّجة نحو التلال. اجتازَ مَزارعَ، وشاهدَ أحصنة وأبقاراً في الحقول، وأحياناً كان يَلمحُ مُزارِعاً يقود جرّاره. كانت هناك أبراج لتخزين الحبوب وحظائر وسياجات منخفضة من الأسلاك وعلب بريد ريفيّة على أعلى سارية من الخشب ولا شلل أطفال في أي مكان هناك. وبعد ارتقاء طويل انعطفا بزاوية حادّة بعيداً عن الطريق المسفلت إلى درب تُرابيّ ضيّق مُحدَّد بإشارة عليها كلمات مُعسكر إنديان هيل محروقة داخل الخشب مع صورة تحتها تمثّل خيمة هنود حمر وسط دائرة من اللهب - وهو الشعار نفسه الذي كان على جانب عربة المحطة. وبعد قطع ميلين من السير المتخبِّط خلال الغابات فوق سلسلة الجبال الوعرة من الدرب القذرة - ثمة سيارة شاحنة متهرئة ومنقورة تركت عن عمد على ذلك الدرب، كما أخبرني كارل، لكي تُعيق بلوغ معسكر إنديان هيل بواسطة أي شيء خلاف وسائل نقل المعسكر

الأصليّة – وصلا إلى فسحة خضراء مفتوحة بيضاوية الشكل هي مدخل منطقة المعسكر. كان تأثير ذلك عليه يشبه كثيراً الأثر الذي تركه عليه ولوجه ملعب روبرت مع جيك وديف لكي يشاهدوا فريق نيوارك بيرز يلعب أول مباراتين في يوم الأحد لذلك الموسم وكذلك – بعد خروجه من أعماق الملعب المُعتمة إلى الممشى المُشرِق المؤدّي إلى المقاعد – ليستعرض الامتداد الفسيح للعشب المجزوز المُستتر في أحد أشد أنحاء المدينة قُبحاً. لكنه كان ملعباً مُغلقاً. وهذه مساحات مفتوحة. هنا المشهد العام بلا حدود والملاذ أكثر جمالاً من ملعب فريق البيرز الخاص.

كانت هناك سارية قائمة في مركز البقعة البيضاويّة يُرفرفُ عليها علمٌ أميركيّ، وتحته علمٌ يحمل رمز المعسكر. وهناك أيضاً خيمة هنود حمر في الجوار، تعلو حوالي اثني عشر أو خمسة عشر قدماً، مع سَوارٍ طويلة داعمة تبرز من الثقب الموجود عند القمة. كانت الخيمة مُزخرفة عند قمّتها بصفَّين من الأشكال المتعرجة الشبيهة بالبرق وفي الأسفل بخطٍ متموّج يبدو أنّ القصد منه أنْ يمثّل سلسلة من الجبال. وعلى كلا جانبيّ الخيمة قامتْ سارية طوطم بالية.

في أسفل المنحدَر الممتد من البقعة الخضراء البيضاويّة بحيرة شاسعة ذات بريق معدنيّ لامع. وعلى طول الشاطئ امتدت مِنصّة خشبيّة، وبرزت ثلاثة من الأرصفة الخشبية داخل البحيرة مسافة حوالي مائة قَدَم، يفصل بينها ما يُقارب الخمسين قَدَماً؛ وعند أسفل رصيفَين منها هناك مِنصّتان للغوص. لا بد أنها الواجهة المائيّة الخاصة بالأولاد التي ستكون من اختصاصه. وكانت مارسيا قد أخبرته بأنَّ البحيرة تُغذّيها ينابيع طبيعيّة. بدت الكلمتان أشبه باسم إحدى عجائب الدنيا: ينابيع طبيعيّة – لكنّها طريقة أخرى لقول «لا يوجد شلل أطفال». كان يرتدي قميصاً أبيض اللون بكُمَّين قصيرَين ويضع ربطة عنق، وحال ترجّله من العربة شعرَ على ذراعيه ووجهه، وعلى الرغم من أنّ الشمس كانت لا تزال قويّة، بأنَّ الهواء هنا أكثر برودة حتى مما هو في سترودسبرغ. وحالما رفع حقيبته القماشيّة

وحملها على ظهره بحزام، غمره فرح البدء من جديد، وثمالة التجدُّد المُنعِشة - بالشعور المتفجِّر بـ «أنا أحيا! أنا أحيا!»

سار على دربٍ قذرة نحو مبنى صغير من جذوع الأشجار يُشرف على البحيرة، حيث كانت غرفة مكتب السيد بلومباك. وكان كارل قد أصرَّ على أنْ يُريح بَكي من حقيبته الثقيلة ونقلها عالياً إلى الكوخ المُسمّى كومانشيه، حيثُ سيُقيم مع الفتية الأكبر سناً في المُعسكر، البالغين من العمر خمسة عشر عاماً، ومع مُستشارهم. وكان كل كوخ في معسكر الفتية والفتيات يحمل اسم إحدى القبائل الهنديّة.

قرع الباب الحاجب فرّحبَ مالكه به بحرارة، وكان طويل القامة، أشبه برجل عصابة، ذا عنق طويل وله تفاحة آدم كبيرة وجزّة خفيفة من الشعر الشائب تغطي بشكل عشوائيّ جمجمته التي لفحتها أشعة الشمس. لا بد أنّه كان في أواخر خمسينيات عمره، ومع ذلك بدا، ببنطلونه الكاكي القصير وقميص المعسكر الخاص بلعبة البولو، قويّ البنية ولائقاً جسديّاً. وقد علِمَ بَكي من مارسيا أنّه عندما أصبح السيد بلومباك أرملاً شاباً في عام 1926، تخلّى عن مسيرته العِلميّة الواعدة كنائب مُدير في مدرسة ويست سايد الثانوية في نيوارك واشترى المعسكر بمال عائلة زوجته ليكون مكاناً يُعلِّم فيه ولديه الصغيرَين تقاليد الهنود التي أصبحَ يُحبّها كرجل يعيش في العراء خلال فصل الصيف. والآن أصبحَ الولدان راشدَين والتحقا بالجيش، وكان عمل السيد بلومْباك هو إدارة المعسكر وتوجيه الهيئة الإداريّة والقيام بزيارات للعائلات اليهوديّة في نيو جيرزي وبنسلفانيا من أجل تجنيد الشبيبة في موسم المعسكر. وكان مكتبه البدائيّ - المبنيّ من جذوع أوّليّة من الشجر على غرار الجزء الخارجي من المبنى - يضمّ خمسة من أغطيّة الرأس المزخرفة الخاصة بالهنود، نُصِبَتْ على أوتاد، لتكون زينة للجدار خلف طاولة المكتب؛ وازدحمتْ على الجدران الأخرى صور فوتوغرافيّة جماعيّة للمعسكرين، ما عدا حيث توجد أرفف عِدَّة تملؤها الكتب التي تُعنى كلّها، كما قال السيد بلومْباك، بحياة الهنود وبتقاليدهم.

قال لبَكي «هذا هو الكتاب المقدّس»، وناوله مجلّداً ضَخماً عنوانه «*كتاب أعمال الخشب*»، «هذا الكتاب كان مصدر إلهامي. وهذا أيضاً»، وناوله كتاباً آخر أقلّ ضخامة، عنوانه «*المُعين في أعمال الخشب الهنديّة*». أخذ بَكي يُقلِّبُ طائعاً صفحات «*المُعين في أعمال الخشب الهنديّة*»، فشاهد رسوماً مطبوعة نُفِّذَتْ بقلم الحبر تمثِّل نبات الفِطر وطيوراً وأوراقاً لتشكيلة واسعة من الأشجار، لم يتعرَّف على أيٍ منها. ورأى فصلاً معنوناً «أربعون طائراً على كل فتى أنْ يعرفها»، وكان عليه أنْ يقبل أنه، وقد أضحى رجلاً بالغاً، لا يعرفُ أكثر من اثنين منها.

قال له السيد بلومْباك «هذان الكتابان كانا مصدر إلهام صاحب كل معسكر. إنَّ إرنست طومسون سيتون هو الذي وضعَ أساس الحركة الهنديّة في إقامة المعسكرات وحده. ويا له من مُعلِّم عظيم ومؤثِّر. يقول سيتون «إنَّ الرجولة هي أول أهداف التعليم. ونحن في العراء نتبع هذه المساعي التي، باختصار، تهدف إلى صنع الرجال». إنّهما كتابان لا غِنى عنهما. دائماً يدعمان مَثَلاً أعلى بطوليّاً. يقبلان الرجل الأحمر بوصفِهِ نبيّ الحياة المنطلقة وأعمال الخشب الأعظم ويستخدمان أساليبه أينما كانت مفيدة. وهما يقترحان اختبارات تحمُّل للانتساب، على خُطى الرجل الأحمر. ويعتبران أنَّ أساس كل قوّة هو ضبط النفس. ويقول سيتون «وفوق ذلك كلّه، أساس البطولة»»

أومأ برأسه، موافقاً على أنَّ تلك مسائل عظيمة الشأن، على الرغم من أنّه لم يسمع قط بسيتون.

«في الرابع عشر من كل شهر آب يحتفل المُعسكر بذكرى مولد سيتون بإقامة مهرجان هنديّ. وإرنست طومسون سيتون هو الذي جعل من إقامة المعسكرات في القرن العشرين واحداً من أعظم إنجازات وطننا»

مرة أخرى أومأ بَكي برأسه. قال «أحبّ أنْ أقرأ هذين الكتابَين»، وهو يُعيدهما إلى السيد بلومْباك. «يبدوان كتابين مهمّين، خاصّة من أجل تثقيف الفتية الصِغار»

قال «في معسكر إنديان هيل، نقوم بتثقيف الفتية والفتيات *أيضاً*. أريد منكَ أنْ تقرأهما. وحالما تستقرّ، في وسعكَ أنْ تأتي وتستعير نُسختي. إنهما كتابان لا نظير لهما، نُشِرا عندنا في أوائل القرن وكانت الأمّة بأكملها، بقيادة تيدي روزفلت، تتّجه نحو حياة الانطلاق»، ثم قال «إنكَ هِبة من عند الله، أيّها الشاب. إنني أعرفُ الدكتور ستاينبرغ وعائلة ستاينبرغ طوال حياتي. ويكفيني أنْ يُشيد آل ستاينبرغ بك. سوف أُرسِلُ في طلب أحد المُستشارين لكي يُرافقك في جولة في المعسكر، وسوف أقوم أنا نفسي بمرافقتك في جولة على الواجهة البحريّة وأُقدِّمك إلى كل شخص هناك. إنهم جميعاً يتلهّفون لوصولك. وفي الواجهة البحريّة لدينا هدفان: تعليم فتيتنا المهارات المائيّة وأساليب الأمان في الماء»

«لقد تلقّيتُ المبادئ من بانتزر ومن بلومْباك. وأعلِّم دروس التربية البدنيّة في مدرسة جادة تشانسلر واهتمامي الأول هو الأمان»

قال السيد بلومْباك «لقد وضع الأهالي أولادهم تحت رعايتنا خلال أشهر فصل الصيف. وعملنا هو ألّا نخذلهم. لم يقع معنا هنا في منطقة الواجهة البحريّة حادث واحد منذ أنْ اشتريتُ المعسكر قبل ثمانية عشر عاماً. ولا حادث واحد»

«يمكنكَ أنْ تثِقَ بي، يا سيدي، في جعل الأمان هو الأساس»

كرَّر السيد بلومْباك بصرامة «ولا حادث واحد. ومدير منطقة الواجهة البحريّة هو أحد أشدّ المراكز مسؤوليّة في المعسكر. وربما الأشدّ مسؤوليّة. يمكن للمعسكرِ أنْ يُدمَّر بسبب حادث مُهمل واحد في الماء. ولا حاجة لي إلى قول إنَّ كل فرد في المعسكر لديه رفيق في الماء من صفّه، ويجب أنْ يلجا الماء ويخرجا منه معاً. وقبل أنْ يسبح أيٌّ منهما وبعد كل سباحة وفي الفترات خلال السباحة يتمّ فحص الرفاق. قد تنتج عن السباحة الإفراديّة حوادث فاجعة»

«إنني أعتبر نفسي مسؤولاً، يا سيدي. وتستطيع أنْ تعتمد عليّ لتوطيد أمان كل فرد في المعسكر. اطمئنّ، أنا أعرف أهميّة نظام الرفيق»

قال السيد بلومْباك «حسنٌ، ما زالوا يُقدّمون وجبة الغداء. واليوم يُقدّمون المعكرونة والجبن. والعشاء لحم مشويّ. وليلة الجمعة هي ليلة اللحم المشويّ في إنديان هيل، بحصص ومن دون حصص. تعال معي إلى قاعة الطعام وسوف نقدّم لك شيئاً تأكله. خذ - خُذ قميص المعسكر الرياضيّ. انزع ربطة عنقك، ضعها فوق قميصك الآن، وسوف نذهب لتناول الغداء. لقد ترك إرف شلانغر أغطيته، وملاءاته، ومناشفه. تستطيع أنْ تستخدمها. وجمع الغسيل يكون في يوم الإثنين»

كان القميص شبيهاً بذاك الذي يرتديه السيد بلومْباك: على الصدر كُتِبَ اسم المعسكر وتحته رسمُ خيمة الهنود داخل دائرة اللهب.

كانت قاعة الطعام، وهي عبارة عن سرادق كبير من الخشب مفتوح الجانبَين ولا يبعد إلّا بمقدار خطوات على طول الممشى الخشبي عن مكتب السيد بلومْباك الكائن على شاطئ البحيرة، تعجُّ بأفراد المعسكر، تجلس الفتيات ومُستشاروهن حول طاولات مستديرة على أحد جانبي الممر الرئيس، والفتيان ومُستشاروهم على الجانب المُقابِل. وفي الخارج هناك الدفء المعتدل لأشعة الشمس - شمس بدتْ لطيفة وودوداً وغير شريرة، شمس مُغذّية، إلهة الأرض الأم الخصبة المُشرِقة الطيِّبة - وهي الثريّا الوامضة للبحيرة وللخليط الأخضر النضِر للنماء في شهر تموز، التي يكاد لا يَعرف عنها أيّ شيء إلّا بقدر ما يعرف الطيور. وفي الداخل كان ضجيج أصوات الأطفال الصاخب يتردد صداه داخل السرادق الشاسع، الصخب الذي ذكَّره بمدى استمتاعه بكونه مُحاطاً بالأطفال وبسبب حبّه لعمله. لقد كاد ينسى طبيعة تلك المتعة خلال الأسابيع الصعبة من الحذر من التهديد الذي عجز عن توفير الحماية منه. إنهم أولاد سعداء، يضجّون بالحيويّة ولا يهدّدهم عدوٌ قاسٍ وخفيّ - في الحقيقة يمكن حمايتهم من وقوع أي حادث مؤسِف بإيلائهم انتباه البالغين اليقظ. ولحُسن الحظ كان قد انتهى من أمر مشاهدة الرعب والموت بعجز وعاد للانخراط بين أولاد خالين من القلق ويفيضون بالصحّة. هنا كان العمل ضمن طاقته على الإنجاز.

كان السيد بلومْباك قد تركه وحده مع وجبة الغداء، قائلاً إنّه سوف يُقابله من جديد عندما ينتهي بَكي من الأكل. وفي قاعة الطعام، لم يكن أحد قد علِمَ بهويته أو اهتمَّ بمعرفتها - كان الأولاد والمُستشارون على قدَم المُساواة منهمكين في سُعرٍ سعيد من التواصُل الاجتماعيّ أثناء تناول الطعام، ورفاق الكبائن يتحدثون ويضحكون، وعلى بعض الموائد كانوا يصدحون بالغناء، وكأنهم لم يجتمعوا معاً هكذا قبل ساعات قليلة على مائدة الإفطار بل قبل سنين عديدة. كان يبحث عن مارسيا بين الموائد، التي ربما لم تبدأ بالبحث عنه. وكانا في حديثهما الهاتفيّ في الليلة السابقة قد افترضا أنّه حالما يستقرّ في كوخه ويبدأ عمله على الواجهة البحريّة، سوف يكون موعد الغداء قد فات منذ زمن طويل وأنّه لن يصل إلى قاعة الطعام إلّا على مائدة العشاء.

عندما عثر على مائدتها، غمره البِشر حتى اضطرَّ إلى منع نفسه من الوقوف والهتاف باسمها. وحقيقة الأمر هي أنّه خلال الأيام الثلاثة الأخيرة من وجوده في الملعب حسِبَ أنّه لن يراها بعد ذلك. ومنذ اللحظة التي قبِلَ فيها العمل في إنديان هيل، أصبحَ متيقّناً من أنّه سوف يُصاب بشلل الأطفال ويخسر كل شيء. ولكن ها هي، فتاة ذات عينين سوداوين ساحرتين وشَعر أسود اللون، كثيف ومُجعَّد كانت قد قصّته بمناسبة فصل الصيف - إنَّ في الطبيعة القليل من الأشياء السوداء الحقيقيّة، وشَعر أن مارسيا أحدها. عندما تقابلا للمرة الأولى في اجتماع للتعارُف في الجامعة للتعريف بالهيئة الإداريّة الجديدة في الخريف السابق كان شَعرها قد نما حتى بلغ بصورة رائعة كتفيها. وراقتْ له كثيراً في ذلك اليوم الأول إلى درجة أنّه مرّتْ فترة من الوقت قبل أنْ يتمكن، وجهاً لوجه، من النظر مباشرة في عينيها أو من منع نفسه من النظر إليها بهيام من بعيد. ثم رأى مشيتها الواثقة على رأس تلامذتها الصامتين، وهي تقودهم خلال الأروقة إلى أرض الملعب، ووقع صريع حبّها من جديد. وقد أذهله أنَّ الأولاد يُسمّونها الآنسة ستاينبرغ.

الآن لفحتها الشمس بلون قاتم وترتدي قميص المعسكر الرياضيّ

الذي يشبه قميصه، وهذا عزَّزَ جمالها القاتم، خاصة تينك العينين، اللتين فوجئ بأنَّ حدقتيهما ليستا فقط أشدّ سواداً بل وأشدّ استدارة من حدَقَتي أي شخص آخر، كدريئتين حالمتين، يميل لون دائرتيهما المركزيَّتين إلى الأسود مع لمسة بنّية. لم يكن قد رآها من قبل أشدّ جمالاً، على الرغم من أنها لم تبد واحدة من المُستشارين بل كأنها إحدى المُعسكِرات، ولا تكاد تُشبه معلِّمة صف أول حَسَنة الملبَس أصبحتْ منذ الآن، وهي في الثانية والعشرين، تحمل السيماء الهادئة لمُحترفة خبيرة. ولاحظَ أنَّ أنفها الصغير الجدير بفتاة صغيرة عليه لمسة من مرهم أبيض اللون وتساءلَ ما الذي تُعالجه، حرق الشمس أم التسمُّم بنبات اللبلاب. ثم خطرتْ في باله أشد الأفكار مرحاً: هذا *بالضبط* ما يُقلِقُ المرء هنا، هذا ما حذّرتَ الأطفال منه – اللبلاب السامّ.

كان مستحيلاً جذب انتباه مارسيا وسط هرج قاعة الطعام. قام مرات عِدَّة برفع ذراعه في الهواء، لكنّها لم تره، على الرغم من أنّه رفع يده عالياً ولوَّحَ بها. ثم شاهد أُختي مارسيا، توأم آل ستاينبرغ، شيلا وفيليس، جالستين جنباً إلى جنب على مسافة بضع موائد من مارسيا. إنهما في الحادية عشرة من العمر الآن ولا تُشبهان في أي شيء أختهما الأكبر سناً، ويُغطي وجهيهما النمش وشعرهما طويل مُجعّد ويميل لونه إلى الأحمرّ، وسيقانهما نحيلة بصورة مؤسفة وأنفاهما يُصبحان أشبه بأنف والدهما، وكلتاهما بطول مارسيا. لوَّح بيده باتجاههما، لكنهما كانتا منهمكتين بحيويّة بالحديث مع الفتيات اللواتي على طاولتهما وهما أيضاً لم ترياه. ومنذ اللحظة التي قابلهما فيها أسرتْه شيلا وفيليس، بحيويتهما وذكائهما، وحتى بالأسلوب الأخرق الذي بدأ يُغلّفهما. قال في نفسه، سوف أعرف هاتين الفتاتين حتى آخر حياتي، وملأه الأمل بسرور غامر. سوف نُصبح كلّنا عائلة واحدة. ومن ثم، فجأة، فكَّرَ في هيربي وألان، اللذين ماتا لأنهما أمضيا فصل الصيف في نيوارك، وفكّر في شيلا وفيليس، وهما في مثل عمريهما تقريباً اللتين ازدهرتا لأنهما أمضيتا فصل الصيف في معسكر

إنديان هيل. ومن ثم كان هناك جيك وديف، اللذان يُحاربان الألمان في مكان ما من فرنسا بينما هو يستكين وسط هذا المكان المرِح الصاخب من المعسكر الصيفيّ مع كل هؤلاء الأطفال الممتلئين نشاطاً وحيوية. لقد فوجئ بمدى اختلاف أنماط الحياة وبمدى عجزنا في مواجهة قوة الظرف. وأين هو الله من هذا كلّه؟ لماذا وضعَ شخصاً في أوروبا التي يحتلّها النازيّون يحمل بيديه بندقيّة ووضعَ آخرَ في قاعة طعام إنديان هيل أمام طبق من المعكرونة والجبن؟ لماذا وضعَ طفلاً من القِطاع اليهوديّ في نيوارك المبتلاة بشلل الأطفال خلال فصل الصيف ووضعَ آخر في ملاذٍ رائع في جبال بوكونوس؟ بالنسبة إلى شخصٍ وجد من قبل في الكدّ والعمل الشاقّ حلاً لمشكلاته كلّها، هناك الآن الكثير من الأشياء المُبهمة بالنسبة إليه فيما يخصّ ما يحدث.

لمحته التوأمان، فنادتا عليه عبر الضجيج «بَكي!». كانتا واقفتين بجوار مائدتهما وتلوّحان بأذرعهما. «بَكي! لقد وصلتَ! مرحبيبي!»

ردَّ على التوأم بالتلويح بيده وبدأ يُشير بحماس نحو مكان جلوس أختيهما.

ابتسمَ وقال «فهمت، فهمت» بينما هتفت التوأم لمارسيا «بَكي هنا!»

نهضَتْ مارسيا واقفة وأخذتْ تتلفّتُ حولها، فنهضَ بدوره واقفاً، وهنا رأته أخيراً، وأرسلتْ نحوه قُبلة بكلتيّ يديها. لقد نجا. لم ينل شلل الأطفال منه.

أمضى فترة بعد الظهر على الواجهة المائيّة، وأخذ يُراقب المُستشارين هناك – وهم فتية من المدرسة الثانويّة في السابعة عشرة من العمر، لم يبلغوا بعد سن التجنيد – يُعدّون المُعسكِرين لتدريب السباحة وللتمارين البدنيّة. لم يكن هناك شيء ليس مألوفاً لديهم من دروس السباحة ودورات الغطس التي كان يتلقّاها في بانتزر. لقد بدا أنّه ورثَ برنامجاً أُدير بصورة جيّدة وبيئة مثاليّة للعمل فيها – وبدا أنّ كل بوصة من الواجهة المائيّة قد

أُحسِنَ استغلالها، كل رصيف، وكل لسان ممتد في الماء، ومنصّة، ولوح قفز، وكلها في حالة ممتازة، وكان الماء صافياً بصورة مُذهلة؛ والتلال المُشجَّرة غزيرة الأشجار ترتفع بانحدارٍ شديد على طول حافة البحيرة. وكانت أكواخ المُعسكرين مدسوسة داخل تلالٍ منخفضة على الجانب القريب من البحيرة، ومُعسكر الفتيات يبدأ عند نهاية أحد أجنحة قاعة الطعام ومعسكر الفتيان على الجانب المقابل. وعلى مسافة مائة ياردة هناك كانت جزيرة صغيرة مُشجّرة مكسوّة بأشجارٍ مائلة بدا لحاؤها أبيض اللون. لا بد أنّها كانت الجزيرة التي قالتْ مارسيا إنَّ في وسعهما أنْ يكونا في أمان فيها وحدهما.

كانت قد نجحتْ في ترك رسالة قصيرة له عند سكرتيرة مكتب السيد بلومْباك تقول فيها: «كدتُ لا أُصدِّق عينيّ وأنا أرى زوجي في المستقبل هنا. يمكنني أنْ أخرج في الساعة التاسعة والنصف. سوف أقابلك خارج قاعة الطعام. وكما يحبّ الأولاد أنْ يقولوا «أنتَ ترسلني» م.»

بعد انتهاء آخر درس في السباحة، عاد المُعسكرون إلى أكواخهم استعداداً لوجبة عشاء ليلة الجمعة ومشاهدة السينما بعد ذلك، وبقيَ بَكي وحده على الواجهة المائيّة، مُبتهجاً لأنَّ الساعات الأولى من عمله قد انقَضَتْ، وفخوراً بمُصاحبة كل أولئك الأولاد الحيويين بصورة رائعة، والخالين من القلق. وقد نزل الماء لكي يتعرَّف على المُستشارين وعلى أسلوب عملهم ويُساعد الأولاد في تحريك أذرعهم وفي تنفّسهم، لذلك لم تتوفر له فرصة لكي يقف على لوح الخشب العالي ويغطس. لكنّه طوال فترة بعد الظهر كان يفكّر في ذلك، بحيث إنه عندما قام بالغطس أول مرّة كان مستعداً تماماً.

مشى على طول اللسان الخشبيّ الضيِّق المؤدّي إلى لوح الخشب العالي، ونزع نظارته، ووضعها عند أسفل السلَّم. ثم ارتقى، ولا يكاد يرى أمامه، إلى اللوح الخشبيّ. عندما نظر أمامه، استطاع أنْ يرى طريقه حتى حافة اللوح ولم يكد يُميِّز أيّ شيء أبعد من ذلك. اختفت التلال، والغابات،

والأرض البيضاء، وحتى البحيرة. كان وحده على اللوح الخشبيّ المُطلّ على البحيرة ولم يكد يرى شيئاً. كان الهواء دافئاً، وجسمه دافئاً، وكل ما استطاع سماعه كان وقع ضربات كرات التنس التي تُضرَب وقعقعة المعدن أحياناً على معدن آخر حيث كان بعض المُعسكرين عن بُعد يقذفون حدوات الأحصنة ويضربون الأوتاد. وعندما استنشق الهواء، لم يكن هناك أي أثر لروائح سيكوكوس، في نيو جيرزي. ملأ رئتيه بهواء جبال بوكونو النظيف وغير المؤذي، ثم قفز مقدار ثلاث خطوات إلى الأمام، وأقلعَ، وقام بأداء حركة غطس البجعة البسيطة، متحكِّماً بكل بوصة من جسمه طوال فترة التحليق الأعمى، ولم ير إلّا في اللحظة التي سبقَت اختراق ذراعيه بأناقة سطح الماء وغاص في النقاء البارد للبحيرة وحتى أعماقها.

عند الساعة السادسة إلّا ربعاً، كان قد وصل تقريباً إلى مدخل قاعة الطعام مع فتية كوخه عندما انفصلت اثنتان من المُعسكرات عن حشد من الفتيات المتحرك إلى الداخل مع مُستشاريهن وبدأتا تهتفان باسمه. كانتا توأمي آل ستاينبرغ، المتشابهتين إلى درجة أنّه، حتى عن قُرب، واجه صعوبة في التميز بينهما. هتفَ وهما تندفعان بين ذراعيه، «إنها شيلا! إنها فيليس!». ثم قال «تبدوان في أحسن حال. ما أشد سُمرتكما. وقد كبرتما من جديد. يا إلهي، أصبحتما بطولي»، وهتفتا، وهما تتلويان حوله، «بل أطول منك!»، قال بَكي، ضاحكاً، «أوه، لا تقولا هذا، أرجوكما، لم تبلغا هذا الطول بعد!»، قالتْ إحداهما «هل ستقوم باستعراض غطس؟». أجاب «لم يطلب مني أحد ذلك حتى الآن»، «ها نحن نطلب منكَ أنْ تفعل! استعراضاً للغطس للمعسكر كلّه! بكل تلك الالتواءات والحركات إلى الخلف التي تقوم بها في الهواء»

كانت الفتاتان قد شاهدتاه يغطس قبل ذلك بشهرَين، عندما دُعيَ إلى منزل آل ستاينبرغ الصيفيّ على الشاطئ خلال عطلة أسبوع «العرض التجاريّ بمناسبة يوم الذكرى»، وذهبوا كلّهم إلى نادي السباحة على

الشاطئ الذي كان أفراد عائلة ستاينبرغ أعضاءً فيه. وكانت تلك المرة الأولى التي ينزل فيها ضيفاً على آل ستاينبرغ لقضاء الليل، وبعد أنْ تخلَّصَ من توتّره الشديد حول ما يمكن لشخص من بيئته أنْ يتحدّث بشأنه مع أناسٍ مُثقّفين مثلهم، وجدَ أنَّ والدة مارسيا ووالدها هما من أشد الناس ودّاً وعِشرة. وتذكّرَ السرور الذي استمدَّه من إعطاء الفتاتين التوأمين الإرشادات الأوّليّة - وهما على لوح القفز المنخفض عند بركة السباحة - حول كيفيّة التوازن والقفز. في أول الأمر كانتا خائفتين، ولكن مع نهاية فترة بعد الظهيرة كان قد جعلهما تقومان بالغطس المباشَر عن لوح القفز. وحينئذٍ أصبحَ بطلهما الصباحي، وكانتا تتنزعانه من أختهما الأكبر سنّاً كلما سنحت لهما الفرصة. وهو أيضاً أولع بفتاتي الدكتور ستاينبرغ الذي كان يُشير إليهما بوصفهما «الثنائيّ المتطابق والمتلألئ»

قال للتوأم «لقد اشتقتُ إليكما»، فسألتاه «هل ستبقى حتى آخر فصل الصيف؟». «سوف أبقى حتماً»، «ألأنَّ السيد شلانغر التحق بالجيش؟»، «هذا صحيح»، «هذا ما قالته مارسيا، لكننا في أول الأمر حسِبنا أنّها تحلم»، أجابَ بَكي «أعتقد أنني أحلم، بوجودي هنا»، ثم أضاف «أراكما لاحقاً يا فتاتان»، وبعد أنْ لفتتا انتباه رفيقاتهما في المعسكر، رفعَتْ كلٌّ منهما وجهها لتُقبّلاه على شفتيه بحركة استعراضيّة. وعندما هرعتا نحو مدخل قاعة الطعام، فعلتا ذلك بحركات لا تقلّ استعراضيّة، وهتفتا «نحبّك، بَكي!»

جلس ليأكل بجوار مستشار خيمة الكومانشي، دونالد كابلو، ذي السبعة عشر عاماً المتحمِّس لألعاب القِوى وكان يمارس رمي القرص في المدرسة الثانويّة. وعندما أخبره أنّه يمارس رمي الرمح، قال دونالد إنّه جلبَ معه أدواته إلى المعسكر، وإنّه كلما توفّر له الوقت يمارس الرمي في حقل التبن المفتوح الذي يقع خلف معسكر الفتيات، حيثُ أُقيم أكبر مهرجان للطقوس الهنديّة في شهر آب. وسألَ بَكي إنْ كان يودّ أنْ يأتي في وقتٍ ما للمُشاهدة ولإعطائه بعض النقاط. قال بَكي «طبعاً، طبعاً».

قال دونالد «لقد شاهدتكَ بعد ظهيرة هذا اليوم. من شرفة كوخنا يمكن رؤية البحيرة. شاهدتك وأنت تغطس. هل أنتَ غطّاس متنافس؟»

«أستطيع أنْ أؤدي الغطس التنافسيّ الابتدائي، ولكن، كلا، لا أتنافس»

«أنا لم أنجح قط في أداء الغطس. إنني أُكرّر كل أنواع الأخطاء السخيفة»

قال بَكي «ربما أستطيع أنْ أساعدك»

«أحقّاً؟»

«طبعاً، إذا توفّر الوقت»

«أوه، هذا شيء عظيم. شكراً لك»

«سوف نتناولها واحدة إثر أخرى. وربما كل ما تحتاج إليه هو تصحيح بعض الأخطاء وسوف تُصبح بارعاً»

«ألن أستهلك وقتك؟»

«كلا. عندما يتوفّر لدي الوقت، هو لك»

«شكراً مرة أخرى، سيد كانتور»

عندما مدَّ نظره نحو جانب الفتيات من قاعة الطعام ليرى إنْ كان في استطاعته أنْ يعثر على مارسيا، قابلت عيناه عيني إحدى توأمي آل ستاينبرغ، فأخذت تلوِّح بذراعها له بحركة هيستيريّة. ابتسم ولوّح لها بذراعه في المقابل وأدركَ أنّه خلال أقلّ من يوم تخلّصَ من أفكاره حول شلل الأطفال، ما عدا بضع دقائق قبل ذلك، عندما ذكَّره دونالد بألان مايكلز. وعلى الرغم من أنَّ دونالد كان أكبر سناً بخمس سنوات ويبلغ من طول القامة منذ الآن ستة أقدام، فإنَّ كلاً منهما كان فتى وسيماً بكتفَين عريضَتين وقوام مرنٍ وساقَين طويلتين، قويّتين، وكلاهما يتوقان إلى التمسُّك بمُرشِد يمكنه أنْ يُساعدهما على تطوير نفسيهما في الألعاب الرياضيّة. إنَّ فتية على غرار ألان ودونالد يبدو أنَّ لديهما الحس الصحيح في تقدير عمق تفانيه في التعليم ومقدرته على منحهما الثقة عندما يحتاجان إليها، يمكن بسرعة جذبهما إلى مجال إرشاده. ولو أنّه كُتِبَ

لألان أنْ يعيش، لو أنَّ هيربي ستاينمارك عاش، لكان من المؤكَّد تقريباً أنْ بَكي ما كان قدِمَ إلى هنا ولما كان حدث في الوطن ما لا يمكن تخيّله.

قطع هو ومارسيا البحيرة بالقارب البدائي، لكنَّ مارسيا بيَّنتْ له كيفيّة التعامُل مع المجذاف، وراقبها، وحفِظَ الحركات بعد بضع ضربات فقط. وتحرّكا ببطء داخل الظلام، وعندما بلغا الجزيرة الصغيرة، التي كانت تبعد عن واجهة الفتية البحريّة أكثر مما توقَّع بكثير، انعطفا نحو الجهة النائية منها، حيث جرّا القارب البدائيّ إلى الشاطئ ووضعاه داخل دغلٍ صغير من الأشجار. ولم يتكلّما تقريباً منذ أنْ تلامست أيديهما خارج قاعة الطعام وهرعا إلى واجهة الفتيات البحريّة لكي يرفعا بصمت القارب البدائي من مكان مربطه هناك.

لم يكن هناك قمر، ولا نجوم، ولا ضوء ما عدا ما ينبعث من بضعة أكواخ على سفح التل هناك على الشاطئ. كانوا قد قدَّموا اللحم المشوي على العشاء في قاعة الطعام – حيث أخذ دونالد كابلو، بشهيّة فتى شرِه، يزدرد شريحة إثر أخرى من اللحم الأحمر الريّان – والآن يُعرَض فيلمٌ سينمائيٌ في قاعة الاستجمام من أجل الفتية الأكبر سناً، لذلك فإنَّ الصوت الوحيد الواصل من المعسكر كان الضجيج البعيد لموسيقى الفيلم. ومن مكان قريب سمعا نقيق ضفادع جماعياً، وعن بُعد كانا يسمعان بين فينة وأخرى هدير رعد طويل. ولم تُقلِّل دراما الرعد من زخم انفرادهما معاً على جزيرة تعجّ بالأشجار وهما ببنطلون الكاكي القصير وقميص المعسكر الرياضيّ أو تقضي على إثارة ملابسهما الخفيفة. وقفا، بأذرع وسيقان عارية، في بقعة صغيرة مكشوفة بين الأشجار، متقاربَين إلى درجة أنّه استطاع أنْ يراها بكل وضوح في الظلام. وكانت مارسيا، بدورها، قد خرجتْ بالقارب وأعدَّت الفسحة المكشوفة قبل ذلك ببضع ليالٍ، رتبت البقعة لتكون مكان لقائهما باستخدام يديها لإزالة أوراق النبات التي تراكمتْ منذ فصل الخريف السابق.

كانت الجزيرة من حولهما كثيفة الأشجار، ولم تكن بيضاء بالمعنى الواضح للكلمة، كما بدتْ له من الواجهة المائيّة، بل ثمة خطوط سوداء تُحيط بلحائها وكأنّها ندوب ضربات سوط. وكانت بعض جذوعها منحنية أو مكسورة، وبعضها يكاد يكون منكفئاً على نفسه، وبعضها الآخر مُمزّقاً ومُثلّماً عند منتصف المسافة من الأرض، أو مقطوعاً، أتلفته أحوال الطقس أو المرض. والأشجار التي ما تزال سليمة كانت نحيلة بأناقة حتى استطاع أنْ يُحيط بأصابعه جذع أيِّ واحدة منها بسهولة كما يفعل حين يقبض على فخذ مارسيا بأصابعه العشرة القويّة. وكانت الأغصان العُليا والأغصان الصغيرة المتدلّية للأشجار التي لم ينلها التلف تمتد فوق الفسحة المكشوفة، مُشكِّلة قبّة مُخرّمة من أوراق تشبه أسنان المنشار وأطرافاً ممتدّة، رقيقة مُرهفة. كان مخبأً مثاليّاً، عزلة كالتي لم يحلما بها إلّا وهما يُحاولان، في أثناء عناقهما الحميم على الشرفة الأماميّة لمنزل آل ستاينبرغ، أنْ يكتما الضجيج الذي يمكن التعرُّف عليه في الحال ويُميِّز الإثارة، والمتعة الفائقة، وفترات الذروة.

سألَها، مادّاً يده ليلمس إحدى الأشجار، «ماذا تسمّين هذا النوع من الأشجار؟». وفجأة، تولاّه حياء مُبهَم، كما حدث عندما تعارفا في حفلة التعارف في الكليّة وشعر بأنّه يتصَّرف بصورة خرقاء مع تعبير غريب سخيف على وجهه. وفاجأته بمدّ يدها الصغيرة ومُصافحته، وارتبكَ بشدّة حتى لم يعُد يعرف ماذا يفعل بتلك اليد – لقد جعلته غواية شكلها الصغير لا يعرف كيف يخاطبها. كان اللقاء مُربكاً كل الإرباك بالنسبة إلى شخص ربّاه جدُّه على الإيمان بأنَّه لا ينبغي أنْ يعتبر أنَّ هناك ما يعجز عن إنجازه، على الأقلّ ليس أنْ يقول مرحباً لفتاة لا يزيد وزنها ربما عن مائة رطل.

أجابتْ «البتولا. إنها بتولا بيضاء – أو بتولا فضيّة»

«بعض اللحاء يتقشَّر»، وأخذ ينزع بسهولة قطعة من اللحاء الفضيّ الرقيق عن جذع الشجرة تحت يده ويُريها إيّاها، هناك في الظلام، كأنهما طفلان في مسيرٍ ليليّ.

قالت له «كان الهنود يستخدمون لحاء البتولا لبناء القوارب»

قال «طبعاً، قوارب لحاء البتولا. لم يخطر في بالي أنّه اسم شجرة»

رانَ صمتٌ بينهما وهما يُصغيان لغمغمة أصوات الفيلم السينمائيّ تتناهى إليهما عبر المياه، والرعد البعيد ونقيق الضفادع القريب والوقع المكبوت لشيءٍ يقع عبر البحيرة يضرب على خشب منصّة السباحة أو لسان الرصيف الخشبيّ. تسارع نبض قلبه عندما أدركَ أنّه ربما السيد بلومْباك، قادم إليهما على متن قارب آخر.

أخيراً سألها «لماذا لا توجد عصافير هنا؟»

«بل توجد. لكنّها لا تغرِّد في الليل»

«لا تغرِّد أم تغرِّد؟»

همست مُناشِدةً «أوه، بَكي، أيجب أنْ نستمرّ هكذا. انزع عني ملابسي، أرجوك. انزع عني ملابسي الآن»

بعد مُضيّ أسابيع من الفراق، كان في حاجة إلى أنْ تقول له هذا. كان في حاجة إلى هذه الفتاة الذكيّة لكي تُخبره كل شيء، حقاً، عن الحياة بعيداً عن أرض الملعب وحقل الألعاب الرياضيّة والتمارين. كان في حاجة إلى عائلتها بأكملها لتُخبره كيف يعيش حياةَ رجلٍ ناضج بكلّ السُبل التي لم يلجأ إليها أحد، حتى جدّه.

وفي الحال فكَّ الحِزام وحلَّ أزرار البنطلون القصير وأنزله عبر ساقيها إلى الأرض. في تلك الأثناء، رفعتْ ذراعيها كما يفعل طفل، فأخذ أولاً مصباحاً كانت تحمله من يدها ومن ثم نزعَ برفق القميص الرياضيَ من فوق رأسها. مدَّتْ يدها إلى الخلف لكي تحلّ زرّ حمّالة صدرها بينما ركع هو وأنزلَ سروالها الداخليّ إلى ساقيها ومن ثم نزعه من قدميها، مع إحساسٍ غريب، ومُخجِل نوعاً ما بأنّه عاشَ من أجل تلك اللحظة.

قالتْ بعد أنْ خلعت حذاءها الرياضيّ، «الآن جوربي». نزع عنها جوربها وأقحمه داخل الحذاء. كان الجورب نظيفاً وأبيض اللون ويفوح

منه، بالإضافة إلى أشياء أخرى ترتديها، عبق خفيف لمادّة مُبيِّضة من غسيل المعسكر.

كانت، وهي مُجرَّدة من ملابسها، ضئيلة ونحيلة، جميلة التكوين، بساقين عضلاتهما خفيفة وذراعين نحيلتين ورسغين هشَّين وثديين صغيرَين، على الجزء العُلويّ من صدرها، وحلمتين ناعمتين، شاحبتين، وغير ناتئتين. وبدا الجسد الأنثويّ الفاتن والنحيل كأنّه لشخصٍ متآلِف مع ممارسة الجنس، ولم يكن ذلك بعيداً عن الحقيقة. فذات عطلة نهاية أسبوع في أواخر الخريف وفي أثناء غياب باقي أفراد عائلتها لحضور مهرجان التسوُّق، عند حوالي الساعة الرابعة من بعد ظهيرة يوم أحد، والمظلات مُسدلة على النوافذ في غرفة نومها في جادّة غولدسميث، فضَّ بكارتها – وفقدَ هو عُذريته – وبعد ذلك همست له، «بَكي، علِّمني كيف أمارس الجنس»، وكأنها كانت هي بينهما الأقلّ خِبرة. استلقيا معاً على السرير بعد ذلك على مدى ساعات – قال في نفسه، إنّه سريرها هي، ذو الأعمدة الأربعة العالية جداً نفسه مع قوائم منحنية وظِلَّة من الشيت المُزهَّر وأذيال مُكشكشة كانت تنام عليه منذ طفولتها – وحكَتْ في أثناء ذلك، بصوت ناعم وواثق، وكأنَّ هناك حقاً آخرين في المنزل الخالي، عن حظّها الحسن بدرجة لا تُصدَّق لأنها حظيتْ ليس بعائلة رائعة فقط بل ببَكي أيضاً لكي يُحبّها. ثم أخبرها أكثر مما فعل في أي وقتٍ مضى عن طفولته، مُعبِّراً عن نفسه معها بسهولة أكبر مما فعل مع أي فتاة أخرى عرفها، أو مع *أي* شخص عرفه في حياته، كاشِفاً عن كل ما يكنّه في المعتاد في داخله حول ما يُسعِده ويُحزِنه. اعترف قائلاً «كنتُ ابن لص» ووجدَ أنّه قادر على البوح لها بتلك الكلمات من دون أدنى إحساس بالخزي. «لقد أُودِعَ السجن لسرقته نقوداً. وهو محكوم سابق. أنا لم أره قط. ولا أعلم أين يعيش، أو حتى إنْ كان حيّاً أو ميتاً. ولو أنّه قام بتربيتي، فمَنْ يدري إنْ كنتُ أنا نفسي سأصبح لصّاً؟»، ثم قال «في بيئة كبيئتي، وأنا وحدي، من دون جَدَّين كجدَّيّ، لم يكن من الصعب أنْ ينتهي بي الأمر إلى أنْ أُصبح أفّاقاً»

استلقيا على السرير العالي القوائم وجهاً لوجه، وتابعا سرد حكاياتهما إلى أنْ حلَّ المساء، ثم ساد الظلام، إلى أنْ فرغَ وِفاضهما من كل شيء وباح كل منهما للآخر بما في داخله بوحاً كاملاً وتامّاً. ومن ثم، وكأنّه لم يُفتَن بالقدر الكافي بها، همستْ مارسيا في أُذنه بشيء عرفته في تلك اللحظة. «أليست هذه هي الطريقة المُثلى للحديث؟»

همستْ مارسيا بعد أنْ نزع عنها ملابسها، «الآن أنت. جاء دورك»

وبسرعة خلع ملابسه ووضعها بجوار ملابسها على حافة بقعتهما المكشوفة.

قالت «دعني أنظر إليك. أوه، شكراً لله»، وطفقَتْ تبكي. فأسرع بضمّها بين ذراعيه، لكنَّ ذلك لم يُخفِّف عنها. واستمرتْ في البكاء.

سألها «ما الأمر؟ ما بكِ؟»

شرحت له «حسِبتُ أنّكَ ستموت! حسِبتُ أنكَ سوف تُشلّ وتموت! لم أستطع النوم، كنتُ خائفة. كنتُ آتي إلى هنا كلما استطعتُ لأنفرد بنفسي وأدعو الله كي يُبقيكَ صحيحاً. لم أُصلِّ من قلبي هكذا في أي وقتٍ من حياتي. إنني أهتفُ «أرجوك ارحم بَكي!» بدافع من السعادة، يا حبيبي! سعادة عظيمة، غامرة! ها أنتَ هنا! ولم تُصَب بالمرض! أوه، بَكي، ضُمّني بقوة، ضُمّني بكل ما أوتيت من قوة! أنتَ سالم!»

بعد أنْ ارتديا ملابسهما واستعدا للعودة إلى المعسكر، لم يتمالك نفسه وبدل أنْ يُدوِّن كلماتها التي تعبِّر عن مدى ارتياحها وينساها، قال ما لا ينبغي أنْ يقول عن ابتهالها لله الذي كان قد أنكره. كان يعلم أنّه ليس هناك من سبب وجيه لاختتام هذا النهار الاستثنائيّ بالعودة إلى طرق موضوع شديد الإثارة، خاصّة أنّه لم يسمعها من قبل تتكلَّم هكذا وربما لن يسمعها مرة أخرى. كان موضوعاً شديد الجديّة بالنسبة لتلك اللحظة،

وغير مناسب، حقاً، بعد أنْ وصل إلى هنا. لكنّه لم يتمكّن من كبح جماح نفسه. لقد مرَّ بالكثير من المِحَن هناك في نيوارك بحيث لم يعُد يستطيع أنْ يُخمِد مشاعره - وقد غادر نيوارك ووباءها فقط قبل اثنتي عشرة ساعة.

سألها «أحقاً تؤمنين بأنَّ الله استجاب لصلواتك؟»

«ليس في استطاعتي أنْ أعلم، أليس كذلك؟ لكنّكَ هنا، ألستَ كذلك؟ وأنتَ صحيحٌ، ألستَ كذلك؟»

قال «هذا لا يُثبتُ أيَّ شيء. لِمَ لمْ يستجِب الله لصلوات والدَي ألان مايكلز؟ لا بد أنّهما صلّيا. ووالدا هيربي ستاينمارك صلّيا أيضاً. إنهم أناسٌ طيّبون. ويهودٌ صالحون. فلِمَ لم يتدخَّل الله لمصلحتهم؟ لِمَ لم يُنقِذ ولديهم؟»

أجابتْ مارسيا «إنني بكل صِدق لا أعلم»

«ولا أنا. لا أعلم لِمَ أوجدَ الله شلل الأطفال أصلاً. ما الذي كان يُحاول أنْ يُثبته؟ أننا في حاجة إلى المعاقين على الأرض؟»

قالتْ «إنَّ الله لم يوجِد مرض شلل الأطفال»

«ألا تعتقدين ذلك؟»

قالت بجِدَّة «نعم، لا أعتقد ذلك»

«ولكنْ أليس الله هو خالق كلّ شيء؟»

«الأمر ليس نفسه»

«لماذا؟»

«لماذا تجادلني، يا بَكي؟ ما الهدف؟ إنَّ كل ما قُلتُه هو أنني صلّيتُ لله لأنني كنتُ خائفة عليك. والآن ها أنتَ هنا وأنا سعيدة سعادة صافية، وأنتَ تُثير جَدَلاً حول هذا! لماذا ترغب في مشاجرتي مع أننا لن نتقابل من جديد طوال أسابيع؟»

قال «لا أرغبُ في التشاجُر»

قالت، بحيرة وليس بغضب، «إذنْ لا تتشاجر»

حدثَ ذلك كلّه بينما الرعد يهدر بانتظام والبرق يومض في مكانٍ قريب.

قالتْ «يجب أنْ نغادر. يجب أنْ نعود بينما العاصفة ما زالتْ بعيدة»

«ولكنْ كيف يمكن ليهودي أنْ يُصلّي لإلهٍ أنزلَ لعنةً كهذه على حيّ يضمّ آلافاً وآلافاً من اليهود؟»

«لا أعلم! إلامَ ترمي بالضبط؟»

فجأةً انتابه الخوف من إخبارها - خاف إنْ ألحَّ في الضغط عليها أنْ تفهم ما فعل، سوف يفقدها ويفقد عائلتها. لم يكونا قد تجادلا من قبل أو تصادما حول أيّ شيء. لم يكن قد لاحظَ خلال فترة حبّه لمارسيا أيَّ قدر مهما قلّ من المعارضة - أو لاحظتْ هي عليه ذلك، في هذا الأمر - وهكذا، في الوقت المُناسِب، وقبل أنْ يبدأ بَكي بإفساد الأشياء، كبحَ جِماح نفسه.

عملا معاً على جرّ القارب إلى حافة البحيرة، وخلال لحظات، ومن دون أنْ يتكلما، بدآ بالتجذيف بحيويّة باتجاه المعسكر ووصلا قبل بدء سيل الأمطار بوقتٍ طويل.

عندما ولجَ بَكي خيمة الكومانشي وشقَّ طريقه على طول الممر الضيِّق بين مناصِب الأحذية كان دونالد وبقيّة الفتية نائمين. وبكل ما استطاع من هدوء، ارتدى بيجامته، وأخفى ملابسه، واندسّ بين الأغطيّة المنعشة التي كانت في السابق تخصّ إيرف شلانغر ورتّبَ السرير بها في وقت مبكّر من النهار. لم يفترق هو ومارسيا مسرورَين، واستمرّ يشعر بالابتئاس منذ أنْ تبادلا قبلة وداع على عَجَل عند مصطبة الدَّرَج، وأسرع كلٌّ منهما في اتجاه معاكس إلى كوخه، وكلٌّ منهما يخشى من أنّ هناك شيئاً غير الله يمكن أنْ يكمن في أساس شجارهما الأول.

بدأ المطر يهطل سيولاً على سقف الكوخ بينما استلقى بَكي يقظاً يفكِّر في ديف وجيك اللذين يُقاتلان في فرنسا في حربٍ استُثنيَ منها. فكّرَ في

إيرف شلانغر، المُجنَّد الإلزاميّ، الذي ذهبَ إلى الحرب بعد أنْ كان قد نام لليلةٍ واحدة فقط على هذا السرير بالذات. وبدا له مراراً وتكراراً كأنَّ الجميع غادروا للالتحاق بالحرب ما عداه هو. وكونه أُعفيَ من القِتال، ونجا من سفك الدماء – أي كلِ ما يمكن لشخصٍ آخر أنْ يعتبره نعمة، رأى هو أنّه مُصيبة. لقد أنشأه جَدُّه ليكون مُحارِباً لا يهاب، ودرَّبه على أنْ يعتقد أنَّ عليه أنْ يكون رجلاً مسؤولاً إلى أقصى مدى، مُستعداً ومُتهيِّئاً للدفاع عن الحق، لكنّه بدل ذلك، عندما واجه صراع القرن، نزاعاً عالمياً بين الخير والشر، لم يشترك فيه حتى بأصغر دور.

ولكنه وُهِبَ حرباً ليخوضها، حرباً شُنَّتْ على ساحة قتال هي أرض الملعب، حرباً تخلّى عن قوّاتها من أجل مارسيا وأمان معسكر إنديان هيل. فإنْ لم يتمكَّن من القتال في أوروبا أو في المحيط الهادئ، كان في استطاعته على الأقلّ أنْ يبقى في نيوارك، ويُحارب خوف الناس من شلل الأطفال إلى جانب فتية مُعرَّضين للخطر؛ وبدل ذلك جاء إلى هنا في هذا الملاذ بعيداً عن الخطر؛ بدل ذلك اختارَ مغادرة نيوارك إلى معسكرٍ صيفيّ على قمة جبلٍ منعزل، مُستتر عن العالم عند الطرف القصيّ من درب ضيِّق وعر ومموِّه عن الهواء بغابة من الأشجار – فماذا يفعل هنا؟ إنّه يلعب مع الأولاد. وما أسعده بذلك! وكلما ازداد شعوره بالسعادة، ازداد الأمر إذلالاً.

على الرغم من المطر الغزير الذي يضرب سقف الكوخ ويُحوِّل حقول اللعب المعشوشبة والقذارة المتهرئة المنتشرة إلى بركة ضخمة من الوحل اللزج، وعلى الرغم من هدير الرعد الذي يتردَّد صداه بين سلاسل الجبال والبرق الممتد بخطوط مُثلَّمة نحو الأسفل في كل أنحاء المعسكر، لم يتأثّر أيٌ من الفتية على صفيّ الأسرّة الصغيرة في نومه. لقد بدا الكوخ البسيط المبنيّ من جذوع الأشجار – بما عليه من أعلام مدرسيّة ملوّنة وما فيه من قارب التجذيف البدائيّ المزخرف ومناصِب الأحذية الممتلئة بالمُلصقات وأسرّة المعسكر الضيِّقة، والأحذية العاديّة،

والأحذية الرياضيّة، والصنادل المصفوفة تحتها، والفريق النائم بأمان من فتية مراهقين ضِخام الأجساد، أصحّاء - بدا شديد البُعد عن الحرب، وعن حربه *الخاصّة*، التي كان يمكن أنْ يخوضها. هنا كان لديه الحب البريء لابنتي حميه المُستقبلي والحب المشبوب لزوجة المُستقبل؛ هنا أصبح لديه صبيّ على غِرار دونالد كابلو يسعى بتوق إلى تلقّي التعليمات منه؛ هنا لديه واجهة بحريّة رائعة يُهيمن عليها، وأعداد غفيرة من الفتية المُفعمين بالحيويّة يُدرِّسها ويُشجّعها؛ هنا، في نهاية النهار، لديه لوح الخشب العالي لكي يغوص منه بسلام وسكينة. هنا كان محمياً بأفضل ملاذٍ آمن من القاتل الذي يعيثُ فساداً في الوطن. هنا لديه كل ما لم يكن لدى ديف وجيك ولا لدى الأولاد في ملعب تشانسلر وليس لدى أحد في نيوارك. أما ما لم يعد يملكه فضمير يستطيع أنْ يعيش به.

يجب أنْ يعود. غداً ينبغي أنْ يستقلّ القطار المُنطلِق من سترودسبرغ، وحالما يعود إلى نيوارك، سوف يتّصل بأوغارا ويُخبره بأنّه يريد أنْ يستأنف العمل في الملعب في يوم الإثنين. ولما كانت إدارة الاستجمام ينقصها العاملون بسبب الالتحاق بالخدمة الإلزاميّة، فلن تكون هناك مشكلة في استعادته عمله. وفي المُجمل، سوف يكون قد غاب عن الملعب مدة يوم ونصف اليوم - ولا أحد يستطيع أنْ يقول إنَّ يوماً ونصف اليوم من الغياب في جبال بوكونو يعتبران إهمالاً أو تخلّياً.

ولكن ألنْ تعتبر مارسيا عودته إلى نيوارك ضربة موجّهة إليها، ونوعاً ما عِقاباً لها، خاصّة بعد أنْ انتهتْ أمسيتهما في الجزيرة نهاية غير سعيدة؟ إذا حزم أمتعته وغادر في الغد، فما هي التداعيات التي ستتأثّر بها خططهما؟ لقد نوى منذ الآن أنْ يذهب إلى المدينة بأسرع ما في وسعه حالما تتوفّر لديه ساعة حرّة، مع الخمسين دولاراً التي اقتطعها من حساب مُدخراته لشراء مدفأة لجدَّته، وشراء خاتم خطبة مارسيا من محل مجوهرات محلّيّ... ولكن لا يستطيع أنْ يقلق - ليس بشأن خاتم مارسيا، ولا بشأن تفهُّم مارسيا لرحيله، ولا بشأن تركه السيد بلومْباك في وضع حرِج، ولا

بشأن خيبة أمل دونالد كابلو أو توأم آل ستاينبرغ. لقد ارتكبَ خطأً جسيماً. لقد استسلم للخوف بتهوُّر، وتحت تأثير الخوف خان تلاميذه وخان نفسه، عندما كان كل ما عليه أنْ يفعله هو أنْ يلزم مكانه ويقوم بعمله. وقد أدّتْ محاولة مارسيا بدافع الحب لإنقاذه من نيوارك إلى تدمير نفسه بحمق. سوف يكون الفتية هنا في أحسن حال من دونه. هذه ليست منطقة حرب. ومنطقة إنديان هيل *ليست* في حاجة إليه.

في الخارج، في الوقت الذي بدا أنَّ الأمور لا يمكن أنْ تسوء أكثر، بلغ هطل الأمطار ذروته المُروّعة وأخذ يسيل فيوضاً على سقف الكوخ المنحدِر ويملأ المجاري ويعصِف ماراً من أمام النوافذ الموصدة كصفائح من الرصاص. لنفرض أنّها تُمطِر هكذا في نيوارك، ولنفرض أنها ستُمطِر على مدى أيام عديدة، وملايين ملايين القطرات تضرب منازل المدينة وأزقتها وشوارعها – فهل سيزيل ذلك مرض شلل الأطفال؟ ولكن لِمَ يفكِّر فيما لا يحدث ولا يمكن أنْ يحدث؟ عليه أنْ ينطلق إلى وطنه! كان حافزه هو أنْ يستيقظ ويحزم أمتعته داخل حقيبته القماشيّة استعداداً للّحاق بأول قطار في الصباح. لكنّه لمِ يرغب في إيقاظ الفتية أو في أنْ يجعل الأمر يبدو وكأنّه يفرّ مذعوراً. إنّ إسراعه في المجيء إلى هنا هو الذي تمَّ بدافع الذُعر. سوف يُغادر بعد أنْ استعاد شجاعته لمواجهة محنةٍ لا يمكن إنكار حقيقتها الواقعة، لكنّها محنة لا تُقارَن مخاطرها بالمخاطر التي تُهدِّد ديف وجيك في قتالهما من أجل مدّ قوات الحلفاء لمواقعها داخل فرنسا.

بالنسبة إلى الله، من السهل حُسن الظن به في جنةٍ كإنديان هيل. أما في نيوارك – أو أوروبا أو المحيط الهادئ – في فصل صيف عام 1944، فالأمر مختلف.

بحلول صباح اليوم التالي كان عالم العاصفة الرطب قد اختفى، والشمس مشرقة ساطعة، والطقس مُنعِشاً، وكان حماسُ الفتية العالي، وهم يُباشرون يومهم الجديد لا يُقلقهم الخوف، شديدَ الإلهام بالنسبة

إليه بحيث يتخيَّل ألّا يستيقظ من جديد داخل جدران الكوخ المكسوّة بأعلام البطولات من عدد من المدارس. وكان التفكير في تعريض مستقبلهم للخطر بالتخلّي بتهوُّر عن مارسيا أمراً مُرعباً إلى أقصى مدى. كان التخلِّي عن مشهد مياه البحيرة الصقيلة الخالية من الأمواج من شرفة الكوخ الأماميّة التي غاص عميقاً جداً في مياهها في ختام يومه الأول، عن بُعد، ومشهد الجزيرة التي ذهبا إليها بالقارب البدائي لممارسة الحب تحت ظلال أشجار البتولا – كان التخلّي عنه بعد مرور يوم واحد فقط أمراً مستحيلاً. بل لقد شدَّ من أزره مشهد ألواح خشب الأرضيّة المُشبّعة بالماء عند مدخل الكوخ، حيث ضربت الرياح بقطرات المطر الشرفة الأماميّة واخترقتْ ستارة الباب – حتى تلك الدلالة العاديّة على سيل الأمطار الجارف شدّت من أزره بصورة ما في اتّخاذ قراره بالبقاء. كيف يمكنه، تحت سماء جَلَتْها عاصفةٌ جارفة حتى أضحتْ ملساء كقشرة بيضة، وعصافير تغرّد وتطير حائمة فوق الرؤوس، وبرفقة كل أولئك الفتية المرحين، أنْ يفعل غير ذلك؟ إنّه ليس طبيباً. وليس ممرِّضاً. لا يمكنه أنْ يعود إلى مأساة يعجز عن تغيير ظروفها.

قال في نفسه، دعك من الله. منذ متى كان أمر الله من شأنك، أصلاً؟ ثم، لكي يُنفِّذ الدور المُسنَد إليه، انطلقَ لكي يتناول وجبة الإفطار مع الفتية، مالئاً رئتيه بهواء الجبال المنعش النقيّ من كل ما يُعدي. وبينما كانوا يقْطعون معاً منحدر التل المعشوشب، فاحت رائحة نضرة ورطبة وقوية، كانت جديدة عليه، من التربة المُشبّعة بماء المطر وكأنّها تشهد على أنّه متآلف مع الحياة بصورة لا جِدال فيها. ولطالما عاش في مدينةٍ حياةً راكدة مع جَدَّيه ولم يشعر من قبل على بشرته بذلك المزيج من الدفء والبرودة الذي يُميِّز صباح يوم من شهر تموز، أو عرِفَ غِنى المشاعِر التي يُثيرها. كان هناك شيء منعش في قضاء يوم عمل في هذا المدى الممتد، وشيء شديد التضليل في تعرية مارسيا من ملابسها في ظلام جزيرة خالية وبعيدة عن الجميع، وشيء شديد الإثارة في الذهاب

للنوم تحت قصف الرعد وومض البرق والاستيقاظ على ما بدا كأنّه أول يوم في الخليقة أشرقتْ فيه الشمس على نشاطٍ إنساني. قال في نفسه، ها أنا هنا، سعيد – وقد كان كذلك فعلاً، بل ومُبتهجاً بضجيج السحق الذي يُصدِره وطء الأقدام على العشب المُشبَّع بالماء مع كل خطوة. إنَّ كل شيء متوفّرٌ هنا! السكينة، والحب! والصحّة! والأطفال! والعمل! فماذا تبقّى بعد ذلك غير أنْ يمكث؟ نعم، إنَّ كل ما شاهده وشمّه وسمِعه كان حدساً داخلياً بذلك الشبح، بالسعادة المُستقبليّة.

في وقتٍ لاحقٍ من ذلك اليوم وقعت حادثة غريبة، لم يخطر من قبل في بال أحد أنْ تقع في المعسكر؛ استقرَّ سربٌ هائل من الفراشات هناك في إنديان هيل، وبقيَ يُشاهَد طوال ساعة تقريباً في منتصف الظهيرة وهو يغوص ويندفع بصورة غريبة فوق حقول اللّعب ويجثم بكثافة على شريط شِباك التنس ويحطُّ على كتل من عشب حشيشة اللبن التي تنبتُ بغزارة على حواف أرض المعسكر. هل جرفته رياح العاصفة القوية معها في أثناء الليل؟ هل ضلَّ السبيل في طريق هجرته إلى الجنوب؟ ولكن لماذا يُهاجر في مثل هذا الوقت المُبكِّر من الصيف؟ لا أحد كان يعرف الجواب، ولا حتى مُستشار الطبيعة. كانت الفراشات تتجمّع وكأنما لكي تُدقِّق في كل ورقة عشب، في كل دغل، وكل شجرة، وكل غصن في كرمة، وكل ورقة سرخس، وكل ورقة عشب برّي، وكل بتلة في زهرة في المعسكر القائم على قمّة الجبل قبل تحديد وجهة انطلاقها إلى حيث تذهب.

بينما كان واقفاً تحت حرّ الشمس على المنصّة الخشبيّة، يُراقبُ الوجوه التي تغمرها أشعّة الشمس تبرز في المياه، حطَّتْ إحدى الفراشات على بَكي وبدأتْ ترشف من كتفه العاري. شيء مُعجِز! تمصّ المعادن من عَرَقِهِ! مُذهل! بقيَ بَكي ساكناً لا يأتي بأيّة حركة، يُراقبُ الفراشة من طرف عينه إلى أنْ طفرَتْ أخيراً وحلّقت مبتعدة. ولاحقاً، عندما أخذ يحكي ما حدث لتلاميذه في الكوخ، قال لهم إنَّه بدا كأنَّ الهنود هم الذين صمّموا ولوّنوا تلك الفراشة، بأجنحتها المعروقة بالألوان البرتقالي والأسود والحواف

السوداء مُنقّطة برهافة بنقاط صغيرة بيضاء - وما لم يُخبرهم به هو أنّه ذُهِلَ بتغذّي الفراشة الرائعة على لحمه بحيث إنها عندما انطلقت مُرفرفة سمحَ لنفسه بأنْ يُصدِّق جزئياً أنَّ هذا أيضاً يُبَشِّرُ بمجيء أيام مزدهرة.

لا أحد في إنديان هيل كان يخشى اجتياح الفراشات للمعسكر وتغطية الجو بسحابة برّاقة. على العكس، لقد ابتسم الجميع وابتهجوا لمشهد تلك الرفرفة الرشيقة، الصامتة، وفرح المُعسكرون والمُستشارون على قدم المُساواة بشعورهم بأنهم مُحاطون بالهشاشة الهفهافة لذلك العدد الغفير من الأجنحة المُرفرفة، الغنيّة بالألوان. وبعض المُعسكرين هرعوا خارجين من أكواخهم يُلوحون بشباك صيد الفراشات التي صنعوها بمهارة، وأصغر الأطفال بينهم ركضوا بنشاط يُلاحقون الفراشات وهي ترتفع وتنخفض، مُحاولين الإمساك بها بأيديهم الممدودة. كان الجميع سعداء، لأنّهم يعلمون أنَّ الفراشات لا تعضّ ولا تنشر مَرَضاً بل تنشر غبار الطلع الذي يجعل البذور تنبت. أي شيء آخر يمكن أنْ يكون صحيّاً أكثر من ذلك؟

نعم، لقد أصبح الملعب في نيوارك من الماضي. لن يُغادر إنديان هيل. هناك كان فريسة لشلل الأطفال؛ أما هنا فهو غذاءٌ للفراشات. لن يُفسِد عليه التردُّد بعد الآن - ذلك الضعف المؤلِم الذي لا يعرفه - يقينه بما ينبغي القيام به.

* * *

عند تلك النقطة من الصيف، كان الصِبية المُبتدئون في المعسكر قد تقدَّموا إلى ما بعد مرحلة نفخ الفقاعات في الماء وتنفيذ العوم في الماء على البطن مع خفض الوجه وأصبحوا على الأقلّ يسبحون بالأسلوب البسيط؛ وكثير منهم تجاوزوا هذه المرحلة ووصلوا إلى السباحة البدائيّة إلى الخلف والزحف، وقليلٌ من المُبتدئين بدأوا القفز في المياه العميقة والسباحة عشرين قَدَماً إلى الحافة الضحلة من البحيرة. كان لديه خمسة من المُستشارين في طاقمه، وعلى الرغم من أنّهم بدوا مؤهلين للتعامُل

مع الصِبية من الأعمار كافة وعلى تنفيذ برنامج السباحة تحت إشرافه، فإنّ بَكي وجد نفسه، منذ اليوم الأول، منجذباً إلى الماء للعمل مع ما يُسمّيه المُستشارون فيما بينهم الـ «غارقون»، وهم الصِغار الأقلّ ثِقة في أنفسهم ولا يُحرزون إلّا أقلّ تقدُّم ويبدو أنّهم يفتقرون إلى المقدرة الطبيعيّة على الطفو. كان يمشي على طول اللسان الخشبيّ إلى منصّة المياه العميقة حيث كان المُستشار يوجّه الأولاد الأكبر سنّاً للغوص؛ كان يقضي وقتاً مع الأولاد الذين يبذلون جهداً كبيراً لتطوير أنفسهم في سباحة الفراشة؛ لكنه كان دائماً يعود إلى الصِغار وينزل معهم إلى المياه ويعمل على تطوير أدائهم لحركة الذبذبة بالقدمين أو حركة المقصّ أو حركة الضفدع، ويبثّ الطمأنينة في نفوسهم بدعم أيديهم وببضع كلمات تفيد بأنهم على صواب هنا وأنهم ليسوا مُعرَّضين لخطر الاختناق إذا ابتلعوا بعض الماء، ناهيك عن الغرق. ومع نهاية النهار على الواجهة المائيّة كان يقول في نفسه، كما فعلَ عندما بدأ في بانتزر، إنّه لا يمكن أنْ يكون هناك عمل يُرضي الرجل أكثر من منح فتى يتعلَّم إحدى الرياضات، بالإضافة إلى الإرشادات الأوّليّة، الأمانَ والثقةَ في أنَّ كل شيء سوف يكون على ما يُرام ودفعِهِ إلى التغلُّب على الخوف من خوضِ تجربة جديدة، سواء أكانت في السباحة أو في الملاكمة أو في لعبة البيسبول.

إنّه يوم لا نظير له، وهناك أيام أخرى مثله قادمة. وقبل وجبة العشاء يحصل على ترحيب نديّ من شِفاه التوأم، اللتين تكونان في انتظاره على دَرَج قاعة الطعام وتهتفان عالياً له «قُبلة! قبلة!» حالما تريانه، وبعد العشاء كان قد وعد دونالد كابلو بأنْ يعمل معه على تطوير غطسه. ثم، عند الساعة التاسعة والنصف، ينطلق إلى الجزيرة المُظلِمة مع زوجته الموعودة. سوف تترك له رسالة قصيرة داخل مُغلَّف في مكتب السيد بلومْباك، «المزيد. قابلني. م». كان قد أعدَّ العدَّة مع كارل لكي يوصله بالسيارة إلى سترودسبرغ خلال الأسبوع لكي يشتري خاتم خطبة مارسيا. بعد العشاء بنصف ساعة، بينما أولاد الكوخ يلعبون مباراة سوفتبول مُرتجلة

على الأرض ذات شكل المُعيَّن بجوار سارية العلم، هبط هو ودونالد إلى المنصّة لكي يُراقب بَكي دونالد وهو يغطس من على لوح القفز. بدأ دونالد بغطس أماميّ، ثم غطس خلفيّ، ثم غطس مع حركة دوران في الهواء.

قال بكي له «عظيم! لا أفهم ما الخطأ الذي تجده فيها»

ابتسم دونالد للمديح، لكنّه مع ذلك سأل «هل مدخلي صحيح؟ هل وثبي صحيح؟»

قال بَكي «صحيح من دون أدنى شك. أنتَ تعرف ما تريد أنْ تفعل وتنفّذه. أنت تقوم بقفزة مع حركة انطواء مثاليّة في الهواء. أولاً ينحني الجزء العُلويّ من الجسم والساقان لا تفعلان أيّ شيء. ثم يرتفع الجزء السُفليّ من الخلف بينما يبقى الرأس والذراعان ثابتة. إنّه صحيح بكل تفاصيله. هل تقوم بحركة شقلبة إلى الخلف؟ دعني أراها. انتبه إلى لوح القفز». كان دونالد غطّاساً بالفِطرة ولم يرتكب أيّاً من الأخطاء التي كان يمكن لبَكي أنْ يتوقع رؤيتها في الشقلبة الخلفيّة. وعندما عاد دونالد من الغطس وكان لا يزال في الماء يرفع الشعر عن عينيه، هتف بَكي له، «دوران قويّ جيّد. إنكَ تُبقي الانطواء جيّداً ومتماسِكاً. التوقيت، والتوازن - عمل جيد كله»

خرج دونالد من الماء إلى المنصّة، وعندما رمى بَكي المنشفة إليه، دعكَ نفسه حتى الجفاف. سأله بَكي «هل تجد الجو شديد البرودة هنا؟ هل تشعر بالبرد؟»

أجاب دونالد «كلا، أبداً»

كانت الشمس لا تزال متوهجة والسماء الشاسعة لا تزال زرقاء لكنَّ درجة الحرارة كانت قد انخفضَتْ حتى قاربت عشر درجات منذ العشاء. من الصعب تصديق أنّه حتى قبل أيام قليلة كان هو وأولاد الملعب يُعانون الحرّ نفسه الذي حَضَنَ الوباء الذي خرَّبَ مدينته ودفع بالناس إلى حافة الجنون من فرط الخوف. وشعر بالدوار من إدراكه أنّ كل شيء هنا في المرتفعات قد تغيَّرَ إلى الأفضل. ليت درجة الحرارة فقط تنخفض في نيوارك هكذا وتبقى كذلك حتى آخر شهريّ تموز وآب!

قال بَكي «أنتَ ترتعش. فلنقُم بهذا من جديد في الوقت نفسه غداً. ما رأيك؟»

قال دونالد «ولكن فقط حركة الشقلبة إلى الأمام، من فضلك؟ سوف أؤدي أولاً من نهاية لوح القفز»، واتّخذَ موقعه ومدَّ ذراعيه إلى الأمام، وجعل مِرفقيه مثنيين، ورُكبتيه منحنيتين قليلاً. قال «هذا ليس أفضل ما عندي من حركات غطس»

قال بَكي «ركِّز. ارفع ذراعك ثم انثن»

استعدَّ دونالد ومن ثم غطس إلى الأمام ثم ارتفع، ودار مثنياً، وهبطَ بدءاً بالقَدَمَين، بحركة لولبيّة تقليديّة إلى داخل البحيرة.

سأل دونالد عندما ظهر على سطح الماء، «هل فشلت؟». كان عليه أنْ يُظلِّل عينيه اتّقاءً من الشمس الغربيّة والوهج المتلألئ الذي يرميه عبر الماء لكي يرى بَكي بوضوح.

أجابه بَكي «كلا، لقد فقدَتْ يداك لبرهة من الزمن التواصُل مع قدميك، لكنَّ هذا ليس بالأمر المهمّ جداً»

قال وهو يسبح على صدره مُقترباً من السُلَّم، «أحقاً؟ فلنُصحّحه»

قال بَكي، ضاحكاً، «حسن، يا إيس»، مُستخدِماً اللقب الذي أُسنِدَ إليه في الشارع وهو طفل صغير ذو أُذنين مُدبَّبتين، وذلك قبل أنْ يقوم جَدُّه بإسناد اسم آخر إليه ويبقى إلى الأبد. «قُمْ بشقلبة أماميّة أخيرة ومن ثم ننتقل إلى الداخل»

هذه المرَّة، بدأ دونالد، مُنطلقاً من طرف لوح الخشب، بدايته المعتادة وقفزَ ونفَّذَ الغطس بخبرة. تحرَّكتْ يداه بشكلٍ مثاليّ بدءاً من قَصَبَتي ساقيه إلى جانبيّ رُكبتيه ومن ثم إلى جانبيّ فَخذَيه عند المِفصَل.

هتفَ له بَكي عندما برز على سطح الماء، «عظيم! علوّ عظيم، دوران عظيم. جميل وقويّ من البداية وحتى النهاية. أين كل تلك الأخطاء التي قلتَ إنكَ ترتكبها؟ أنتَ لا ترتكب أيّة أخطاء»

قال بفرح وهو يرتقي عائداً إلى المنصّة «سيد كانتور، دعني أُريكَ دوراني النصفيّ وانطوائي إلى الخلف ومن ثم ندخل. دعني أُنهي السلسلة. أنا لا أشعر بالبرد، حقاً»

قال بَكي، ضاحكاً، «أما أنا فأشعر به، وأنا جاف وأرتدي قميصاً»

أجابَ «حسن، هذا هو الفرق بين سن السابعة عشرة والرابعة والعشرين»

قال بَكي، وهو يضحك من جديد وفي غاية من السرور، «بل الثالثة والعشرين» - كان مسروراً بدونالد وبمثابرته وامتلأ بالرضا لعِلمِهِ أنَّ مارسيا والتوأم هنّ في مكان قريب. وكأنهم أصبحوا منذ الآن عائلة. وكأنَّ دونالد، الذي لا يصغره إلّا بستة أعوام، هو ابن مارسيا وابنه وأيضاً قريب التوأم، من بعيد. قال «اسمع، إنَّ درجة الحرارة تنخفض مع كل دقيقة. لدينا من الوقت حتى آخر الصيف لنتمرّن هنا» ورمى بكنزته الفضفاضة إلى دونالد لكي يرتديها، وفوقَ ذلك جعله يتلفَّع بالمنشفة عند خصر جذعه الرطب.

قال دونالد، وهو يرتقي التل نحو الكوخ، بخطى مُجهدة، «عندما أبلغ الثامنة عشرة أريد أنْ أنضم إلى قِوى البحريّة الجويّة. إنَّ صديقي المُقرَّب انضمَّ إليها في العام الفائت. ونحن نتراسل دائماً. لقد أخبرني عن التدرُّب. إنّه صعب. لكنني أريد أنْ أذهب إلى الحرب قبل أنْ تنتهي. أريد أنْ أحارب اليابانيين في الجوّ. إنني راغبٌ في هذا منذ هجوم بيرل هاربر. عندما بدأت الحرب كنتُ في الرابعة عشرة، وكبيراً بما يكفي لأعرف ما الذي يحدث وأرغب في القيام بعمل ما بهذا الشأن. أريد أنْ أكون فيها عندما يستسلم اليابانيون. كم سيكون ذلك اليوم عظيماً»

قال بَكي له «أرجو أنْ تُتاح الفرصة لك»

«ما الذي يمنعك من الالتحاق بها، سيد كانتور؟»

«حالتي البصريّة. هذه الأشياء» وربتَ بأطراف أصابعه على نظاراته. «إنَّ أقرب صديقين لديّ يُحاربان في فرنسا، يقفزان بالمظلّة إلى منطقة النورمندي في يوم الاجتياح. ليتَني كنتُ معهما»

قال دونالد «إنني أتابع أخبار الحرب في منطقة المحيط الهادئ. سوف تتسارع الأمور في أوروبا. هذه هي بداية نهاية ألمانيا. أما في المحيط الهادئ فما زال هناك الكثير من القتال. في الشهر الفائت، في جزر ماريانا، دمّرنا مائة وأربعين طائرة يابانيّة خلال يومين. تخيَّل أنكَ تشترك في ذلك»

قال بَكي له «ما زال هناك الكثير من القتال على الجبهتَين. ولن يفوتك»

بينما هما يرتقيان الدَرَج المؤدي إلى كوخ كومانش، سأل دونالد «هل تستطيع أنْ تشاهد باقي حركات الغطس بعد وجبة العشاء في ليل الغد؟»

«طبعاً أستطيع»

«وشكراً لك، سيد كانتور، لمنحي كل ذلك الوقت»

وهناك على عتبة شرفة الكوخ الأماميّة، مدَّ دونالد يده بشيءٍ من البرودة ليُصافحه - كان تصرُّفاً رسمياً مُفاجئاً مُرضياً. لم يستغرق الأمر أكثر من جلسة واحدة على لوح الغطس وها هما أصبحا كأنّهما صديقَان حميمَان، على الرغم من أنّه بينما كان بَكي واقفاً هناك مع دونالد في ختام يومٍ صيفيّ جميل، فكَّرَ فجأة في كل الأولاد الذين تخلّى عنهم في الملعب. وبذَلَ أقصى جهده ليستمتع بكل شيء هنا، إلّا أنّه لم ينجح تماماً بعد في نسيان التصرُّف الذي لا يُغتَفَر ولا المكان الذي لم يعُد يحظى فيه بالاحترام.

ما بين الوقت الذي غادر فيه دونالد واستعدَّ لمقابلة مارسيا، ذهبَ إلى كشك الهاتف خلف مكتب المعسكر لكي يتّصل بجدّته. قد لا يجدها هناك، لأنها تكون جالسة في الخارج على كرسي الشاطئ مع آل إينمان وآل فيشر، ولكن شاءت المُصادفة أنْ تتمكَّن من الجلوس داخل شقّتهما مع فتح النوافذ وتشغيل المروحة لكي تستمع إلى برامج الإذاعة، لأنَّ درجة حرارة المدينة كانت قد انخفضَتْ خلال الساعات الأربع والعشرين الماضية، على الرغم من أنَّه كان من المفترَض أنْ تعود الحرارة إلى الارتفاع من جديد في اليوم التالي. سألته عن أحواله وأحوال مارسيا وأحوال التوأم، وعندما أخبرها أنّه خطبَ مارسيا، قالتْ «لا أعلم هل أضحك أم أبكي. عزيزي يوجين»

قال ضاحكاً «بل اضحكي»

قالتْ «نعم، أنا سعيدة لأجلك، يا عزيزي، لكنني كنتُ أتمنى لو أنَّ أمك عاشَتْ لتشهد هذا الحدث. ليتها عاشَتْ لترى الرجل الذي صارَ إليه ابنها. وليت الجَدّ كان موجوداً. كان سيفرح كثيراً لابنه. كان سيفتخر كثيراً به. إنّها ابنة الدكتور ستاينبرغ».

قال بَكي «أنا أيضاً كنتُ أتمنى لو أنّه موجود، يا جدَّتي. إنني أفكِّر فيه وأنا هنا. فكَّرتُ فيه بالأمس عندما قفزتُ عن اللوح المرتفع. تذكّرتُ كيفَ علَّمني السباحة في جمعيّة الشبيبة. كنتُ حينئذٍ في السادسة من العمر. لقد رماني في البركة وبدأ الأمر. كيف حالك، جدَّتي؟ هل يُحسِن آل أينمان الاعتناء بك؟»

«طبعاً يفعلون. لا تقلق بشأني. إنَّ آل أينمان متعاونون كثيراً، ثم إنَّ في وسعي أنْ أعتني بنفسي. يوجين، يجب أنْ أخبرك شيئاً. لقد وقعَتْ ثلاثون حالة شلل أطفال جديدة في القِطاع اليهوديّ. وتسعٌ وسبعون في المدينة خلال اليوم الأخير فقط. تسعون ماتوا. رقمٌ فاق كل الأرقام القياسيّة. وظهر المزيد من الإصابات بشلل الأطفال في ملعب تشانسلر. اتّصلتْ بي سلمى شانكمان. أخبرتني بأسماء الصِبية وأنا دوّنتها»

«مَنْ هم، يا جدَّتي؟»

قالتْ «انتظر ريثما أُحضِر نظاراتي. دعني أُحضِر قطعة الورق»

وقفَ عدد من المُستشارين رتلاً خارج كشك الهاتف في انتظار استخدام الهاتف، فأشار إليهم من خلال الزجاج بما يُفيد أنّه لن يستغرق أكثر من بضع دقائق أخرى. في تلك الأثناء، انتظرَ في خوف سماع الأسماء. قال في نفسه، لماذا يُصيب الأطفال بالإعاقة؛ لماذا يُصيبهم بمرضٍ يُسبِّب لهم الإعاقة؟ لماذا يُدمِّر أطفالنا الذين لا يُعوَّضون؟ إنهم أفضل الأطفال في العالم.

«يوجين؟»

«أنا هنا»



«حسن. إليك الأسماء. هذان هما الطفلان اللذان أودِعا المستشفى. بيلي شيزر وإروين فرانكل. وهناك حالة وفاة واحدة»

«مَنْ الذي مات؟»

«ولد اسمه رونالد غروبارد. لقد أُصيبَ بالمرض وتوفي بين ليلة وضحاها. أكنتَ تعرفه؟»

«أعرفه، يا جدَّتي، نعم. أعرفه من الملعب ومن المدرسة. أعرفهم كلّهم. لا أُصدِّق أنَّ روني مات»

قالتْ جدَّته «أنا آسفة لأنني أخبرتك، لكنني رأيتُ، بما أنكَ كنتَ مُقرَّباً من أولئك الأولاد كلهم، أنكَ تريد أنْ تعرف»

«كنتِ على صواب. طبعاً أريد أنْ أعرف»

قالتْ له «هناك أناسٌ في المدينة يُنادون بإقامة حجر صحّيّ في القِطاع اليهوديّ. وهناك حديث يدور في مكتب المحافِظ عن إقامة حجر صحّي»

«حجر صحي في القِطاع اليهوديّ كلّه؟»

«نعم. يعزلونه بحاجز بحيث لا يستطيع أحد أنْ يخرج منه أو يدخل إليه. سوف يُغلقونه عند خط إرفنغتون وخط هيلسايد ومن ثم عند جادَّة هوثورن. هذا ما ورد في صحيفة هذا المساء. بل إنهم وضعوا خريطة لذلك»

«ولكن هناك عشرات الآلاف من الناس، أناسٌ لديهم أعمال وعليهم أنْ يتوجهوا إلى أعمالهم. لا يمكنهم أنْ يزربوا الناس هكذا، أليس كذلك؟»

«إنَّ الأوضاع سيئة، يا يوجين. والناس في حالة غليان. إنهم مذعورون. الجميع خائفون على أطفالهم. حمداً لله أنك بعيد. ويقول سائقو الحافلات على الخط الثامن والخط الرابع عشر إنهم لن يدخلوا بحافلاتهم إلى القِطاع اليهوديّ ما لم تؤمَّن لهم أقنعة للوقاية. والبعض يقولون إنهم لن يدخلوا إلى هناك أبداً. وساعي البريد يرفض تسليم الرسائل هناك. وسائقو الشاحنات الذين ينقلون المؤن إلى المتاجر،

ومحلات البقالة، وإلى محطات الوقود، وما إلى ذلك لا يريدون الذهاب أيضاً إلى هناك. والغرباء يجتازون المنطقة ونوافذ سياراتهم مُغلقة مهما كان الجو حارّاً في الخارج. ويقول المُعادون للساميّة إنَّ شلل الأطفال ينتشر هناك لأنهم يهود. بسبب اليهود كلهم - يُعتبَر القِطاع اليهوديّ هو بؤرة الشلل وينبغي عزل اليهود داخله. هناك الكثير من الأحقاد بسبب الأشياء المجنونة التي يُصرِّح بها الناس بدافع من خوفهم. بدافع من خوفهم وبدافع من حقدهم. أنا وُلِدتُ في المدينة، ولم أشهد مرَّة في حياتي شيئاً كهذا. وكأنَّ كل شيء في كل مكان يتهاوى»

قال، وهو يُسقِط آخر قطعة نقد في الهاتف، «نعم، يبدو الوضع غاية في السوء»

«ثم، يوجين، طبعاً - كدتُ أنسى. إنهم يُغلقون الملاعب كلها. ابتداءً من الغدّ. ليس في تشانسلر فقط بل في المدينة كلها»

«أحقاً؟ لكنَّ المُحافظ كان قد قرّر أنْ يُبقيها مفتوحة»

«الخبر منشور في الصحف. لقد أُغلِقَتْ كل أماكن تجمُّع الأطفال. المقال أمامي. لقد أُغلِقَتْ دور السينما والمسرح في وجه الأطفال دون سن السادسة عشرة. وبِركة المدينة أُغلِقَتْ. والمكتبات العامة بفروعها كلها أُغلِقَتْ. والقساوسة أغلقوا مدارس يوم الأحد. كلّه مذكورٌ في الصحف. وقد لا يُعاد فتح المدارس في موعدها إذا استمر الوضع على حاله. وسوف أقرأ عليك السطر الافتتاحي: «هناك احتمال أنْ تبقى المدارس العامة...»»

«ولكن ماذا تقول تحديداً عن الملاعب؟»

«لا شيء. إنها فقط ضمن لائحة بالأماكن التي يقوم المحافظ الآن بإغلاقها»

إذن لو أنّه بقيَ في نيوارك بضعة أيام أُخَر، لما أُتيحَ له أبداً أنْ يُغادرها. وبدل ذلك أُطلِقَ سراحه، وأصبحَ حرّاً في أنْ يفعل ما يشاء وأنْ يذهب إلى

حيثما يشاء. لو أنّه بقيَ، لما اضطرَّ إلى الاتصال هاتفياً بأوغارا وإلى أخذ ما أخذَ من أوغارا. لو أنّه بقيَ، لما اضطرَّ إلى التخلّي عن تلاميذه وإلى أنْ يتذكَّر طوال الوقت تصرّفه الذي لا يُغتَفَر.

قالت «اسمع. اسمع العنوان الرئيس: رقم قياسيّ في حالات الإصابة بشلل الأطفال في المدينة. المُحافِظ يُغلق المُنشآت. هل أُرسِل إليك المقال، يا حبيبي؟ هل أقتطعه؟»

«كلا، كلا. جدَّتي، هناك مُستشارون ينتظرون من أجل استخدام الهاتف ولم يعُد في حوزتي المزيد من القطع النقديّة. يجب أنْ أذهب. وداعاً الآن»

كانت مارسيا تنتظر عند مدخل قاعة الطعام، فتسللا معاً، يرتديان كنزات ثقيلة اتّقاءً لبردٍ في غير أوانه، إلى الواجهة المائيّة، وهناك وجدا القارب البدائيّ وانطلقا يجتازان البحيرة مُخترقين الضباب المتصاعد، لا يكسر الصمت إلّا ضربَ شفرتي المجذافين على سطح الماء. وفي الجزيرة دارا بالقارب إلى الجانب البعيد وجرّا القارب إلى الشاطئ. وكانت مارسيا قد أحضرتْ ملاءة. فساعدها في نشرها ومدّها على البقعة المكشوفة.

سألتْه «ما الذي يحدث؟ ما الأمر؟»

«هناك أخبار من جدَّتي. لقد ظهرتْ تسع وسبعون حالة إصابة جديدة في نيوارك بين ليلة وضحاها. ثلاثون حالة منها في القِطاع اليهوديّ. وثلاث حالات في الملعب. اثنتان أودعتا المستشفى وواحدة أدتْ إلى الوفاة. روني غروبارد. الصبي الصغير السريع، والذكيّ، الممتلئ حيويّة، مات»

أمسكتْ مارسيا بيده. «لا أعلم ماذا أقول، يا بَكي. شيء مريع»

جلس على الملاءة وجلستْ هي إلى جواره. قال لها «أنا أيضاً لا أعلم ماذا أقول»

سألتْ «ألم يحنْ وقت إغلاق الملاعب؟»

«لقد فعلوا. أغلقوها. أغلقوا الملاعب كلّها»

«متى؟»

«بدءاً من الغد. المُحافِظ أمر بذلك، كما قالتْ جدّتي»

«حسن، أليس هذا أفضل ما يمكن عمله؟ كان ينبغي عليه أنْ يفعل ذلك منذ زمن بعيد»

«كان ينبغي عليّ أنْ أمكث، يا مارسيا. ما كان ينبغي أنْ أغادر ما دامت الملاعب مفتوحة»

«لكنّكَ لم تأتِ إلى هنا إلّا منذ يومين»

«لقد غادرتُ. وليس هناك ما يمكن قوله أكثر. هذا هو الواقع. أنا غادرت»

قرَّبها منه على الملاءة. قال «تعالي. تعالي إليّ هنا»، وضغطَ جسمها على جسمه. تعانقا من دون أنْ يتكلّما. لم يكن لديه أي شيء آخر يقوله أو يفكّر فيه. لقد غادر بينما الأولاد كلهم مكثوا، وها إنَّ اثنين منهم قد مرضا وأحدهما مات.

«أهذا ما كنت تفكّر فيه منذ أنْ أتيتَ إلى هنا؟ في أنكَ غادرتَ؟»

«لو أنّني كنتُ في نيوارك لذهبتُ لحضور جنازة روني. لو كنتُ في نيوارك لقمتُ بزيارة العائلات، بدل أنْ آتي إلى هنا»

«ما زال في استطاعتكَ أنْ تفعل هذا عندما تعود»

«الأمر ليس نفسه»

«ولكن حتى لو أنكَ مكثت، ماذا كان في وسعك أنْ تفعل؟»

«إنَّ الأمر لا يتعلَّق *بفعل* شيء - بل هو مسألة أن أكون هناك! كان ينبغي أنْ أكون هناك الآن، يا مارسيا! بدل ذلك ها أنا على قمة جبل وسط بحيرة!»

تعانقا من دون كلام. ومرّت قرابة خمس عشرة دقيقة. كل ما استطاع بَكي أنْ يفكِّر فيه هو أسماؤهم، وكل ما استطاع أنْ يرى كان وجوههم: بيلي شيزر. رونالد غروبارد. داني كوبفرمان. مايرون كوبفرمان. ألان

مايكلز. إروين فرانكل. هيربي ستاينمارك. ليو فاينسْووغ. بول ليْمان. آرني ميسنيكوف. كل ما استطاع أنْ يفكر فيه كان الحرب في نيوارك وفي الأولاد الذين هرب منهم.

مرّت حوالي خمس عشرة دقيقة أخرى قبل أنْ تتكلَّم مارسيا مرّة أخرى. قالت له بصوت هامس، «النجوم تحبس الأنفاس. لا ترى مثل هذه النجوم في الوطن. أراهن على أنَّ هذه هي المرّة الأولى التي تشاهد فيها سماء ليل مُرصّعة بالنجوم»

لم يقُل أي شيء.

قالت «انظر كيف أن أوراق الأشجار عندما تتحرّك تسمح بظهور ضياء النجوم». بعد برهة قالت «والشمس، هل شاهدتَ الشمس هذا المساء حالما بدأتْ تغرب؟ لقد بدت شديدة القُرب من المعسكر. أشبه بجرس قُرصي يمكن أنْ تمدّ يدك وتقرعه»، ثم قالت، وهي ما زالت تحاول بسذاجة، وبلا طائل، أنْ تمنعه من الإحساس بتفاهته، «إنَّ كل ما في السماء شاسع، ونحن شديدو الضآلة»

قال في نفسه، نعم، وهناك ما هو أشدّ ضآلة منا. إنه الفيروس الذي يُدمِّر كل شيء.

قالت مارسيا «أصغ. ششششش. أتسمع؟». كان قد أُقيم حفل من الأنس في قاعة الاستجمام في وقت مبكِّر من المساء، ويبدو أنَّ المُعسكرين الذي تخلَّفوا لكي يقوموا بالتنظيف أداروا أسطوانة لكي يتسلّوا بينما يجمعون زجاجات الصودا ويكنسون الأرض وذهب باقي الأولاد إلى مُستشاريهم استعداداً لإطفاء الأنوار. وعبر صمت البحيرة المظلمة تناهت إلى الأسماع أغنية مارسيا المُفضّلة في ذلك الصيف. كانت الأغنية التي صدرتْ عن صندوق الموسيقى في محل سيد في اليوم الذي ذهب بَكي ليقدّم العزاء لعائلة ألان، اليوم نفسه الذي علِمَ فيه من يوشي الجالس على الطاولة في المحل أنَّ هيربي أيضاً مات.

غنَّتْ مارسيا بنعومة «سوف أراك في كل الأماكن القديمة المألوفة –»،

وهنا نهضَتْ واقفة، وجرّته وراءها، وجعلته يرقص معها، مُصمّمة على ألّا تدع معنوياته تهبط أكثر من ذلك - بعد أنْ خلا وفاضها من المُحاولات.

غنَّتْ، وهي تضغط وجنتها على صدره، «هذا ما يُعانقه قلبي طوال النهار...»، وعلا صوتها بنبرة مناشدة مع عبارة «طوال النهار»

فعلَ كما أرادتْ وضمّها إليه راضخاً، وأخذ يتنقّل ببطء حول وسط البقعة المكشوفة التي جعلا منها ملكاً خاصّاً لهما، وتذكّرت الليلة التي سبقَتْ مغادرتهما إلى إنديان هيل في نهاية شهر حزيران، عندما رقصا معاً هكذا على موسيقى منبعثة من المذياع على الشرفة الخارجية لمنزل العائلة، الليلة التي كان جُلّ اهتمامهما فيها هو سفر مارسيا خلال فصل الصيف.

غنَّتْ، بصوتها الرفيع والهامس، «في ذلك المقهى الصغير، في المتنزّه الواقع على الطرف المقابل من الشارع...»

وسط غابة الجزيرة الصغيرة بأشجار البتولا المائلة، وخشبها اللين المنحني، حسب تعبير مارسيا، جرّاء الضربات التي تتلقّاها في فصول الشتاء القاسية في جبال بوكونو، تعانق الاثنان بأذرعهما الثابتة، يتمايلان على أنغام الموسيقى على أقدامهما الثابتة، مشدودين معاً على جذعيهما الثابتين، وقد أصبحا الآن لا يسمعان الكلمات إلّا بشكلٍ مُتقطِّع - «... كل ما هو خفيف ومرح... أفكّر فيك... في أول الليل... أراك» - ثم سكتت الأغنية. كان هناك شخص على الجانب المقابل من البحيرة قد رفعَ إبرة الأسطوانة وأوقف دورانها، وأُطفئتْ أنوار قاعة الاستجمام بالتدريج، وبات في استطاعتهما أنْ يسمعا الأولاد يهتف أحدهم للآخر «تصبح على خير! تصبح على خير!». ثم وَمَضَت المشاعل الكهربائيّة، ومن حلبة الرقص في قاعة رقص الجزيرة، رأى هو ومارسيا نقاطاً من الضوء تخفق هنا وهناك بينما جميع الأولاد - الآمنين، الأصحّاء، غير الخائفين، والسالمين من الأذى - يقتفون آثار دربهم في طريقهم إلى أكواخهم.

همستْ مارسيا، «كلٌّ منا لديه الآخر»، وهي تنزع نظارته وتُقبِّل وجهه بنهم. «مهما يحدث في العالم، لدى كلّ منا حبّه للآخر. أعِدكَ، يا بَكي،

بأنَكَ ستبقى دائماً تسمعني أغنّي لك وأحبّك، ومهما يحدث سوف أقفُ إلى جانبك»

قال لها «نعم، لدى كلٍّ منا حبّه للآخر». وقال في نفسه، ولكن ماذا يفيد هذا كلّه بيلي وإروين وروني؟ ماذا يفيد عائلاتهم؟ ماذا يفيد كلاً منهم عناقنا وقبلاتنا ورقصنا كمراهقَين عاشقَين جاهلَين كل شيء؟

* * *

عندما عادَ إلى الكوخ - حيثُ كان الجميع هناك مستغرقين في نوم عميق بتأثير يومٍ مملوء بالسير الطويل والسباحة ولعب الكرة - وجدَ رسالة قصيرة تنتظره على سريره من دونالد. تقول «اتّصل بأمّك». يتّصل بها؟ لكنّه كلّمها قبل ساعتين فقط. أسرعَ خارجاً من الباب وهرع نحو كشك الهاتف متسائلاً عمّا حدثَ لها ومُعتقداً أنّه ما كان ينبغي أنْ يتركها وحدها ويأتي إلى المعسكر. طبعاً هي لا تستطيع أنْ تعيش وحدها، خاصّة أنها تعاني من آلام في صدرها كلما حاولتْ أنْ تحمل شيئاً وترتقي به الدَرَج. لقد تركها وحدها وها قد وقع خطب ما.

«جدَّتي، أنا يوجين. ما الخطب؟ هل أنتِ بخير؟»

«أنا في أحسن حال. لدي بعض الأخبار. لهذا اتّصلتُ بك في المعسكر. لم أرِدْ أنْ أبثّ فيك الخوف، لكنّني رأيتُ أنكَ تودّ أنْ تعرفها في الحال. إنها ليست أخباراً جيّدة، يا يوجين. وإلّا لما أجريتُ مخابرة خارجيّة. إنها مأساة، لقد اتّصلت السيدة غارونزيك بي من بلدة إليزابيث قبل بضع دقائق. تريد أنْ تتحدث معك»

قال بَكي «إنّه جيك»

قالت «نعم، لقد مات جيك»

«كيف؟ كيف؟»

«أثناء القتال في فرنسا»

«لا أُصدِّق. كان لا يُقهَر. كان صلباً. كان عملاقاً وثقيل الوزن. كان جبّاراً. لا يمكن أنْ يموت!»

«أخشى أنَّ الخبر صحيح، يا حبيبي. قالتْ أمّه إنه مات في الحرب. في بلدةٍ لا أتذكّر اسمها الآن. كان ينبغي أنْ أدوّنه. أيلين هناك مع العائلة».

صَدَمه ذِكر أيلين من جديد. كان جيك قد قابل أيلين ماكردي في المدرسة الثانوية، وكانت حبيبة جيك طوال أعوام دراسته في بانتزر. وكان من المُقرَّر أنْ يتزوجا ويستقرا في إليزابيث حالما يرجع من الحرب.

كانت جدّته تقول «إنه ضخم الجثّة وحَسَن السلوك. كان جيك ألطف فتى تعرفتَ عليه. أكاد أراه الآن، يأكل أمامي في المطبخ هنا في أول ليلة جاء إلى المنزل معك لتناول العشاء. وديف جاء أيضاً. أراد جيك أنْ يتناول «وجبة يهوديّة». وأكل ستَّ عشرة فطيرة بطاطا»

«لقد فعل. نعم، أتذكَّر. وكم ضحكنا، كلنا ضحكنا». هنا كانت الدموع تسيل على وجه بَكي. «لكنَّ ديف ما زال حيّاً. ديف جيكوبز ما زال حيّاً»

«لا أدّعي المعرفة، يا حبيبي. لا يمكنني أنْ أعرف. أنا أفترضُ ذلك. آمل ذلك. أنا لم أسمع أيّ شيء. ولكنْ وَفق أخبار هذه الليلة، فإنّ الحرب في فرنسا لا تسير سيراً حَسَناً. يقولون في الراديو إنَّ هناك الكثير من الموتى. ثمة معارك رهيبة تدور مع الألمان. هناك الكثير من الموتى والكثير من الجرحى»

أجاب بَكي بوهَنٍ «لا يمكنني تحمُّل فقدان اثنين من أصدقائي»، وعندما أنهى المكالمة لم يعُد من فوره إلى الكوخ بل ذهب إلى الواجهة المائيّة. وهناك، على الرغم من دفق الهواء البارد الجديد المُنعِش، جلسَ على منصّة الغطس وراح يُحدِّقُ إلى الظلام، مُكرراً بينه وبين نفسه ألقاب التكريم التي كانت تُخلَع على جيك على الصفحات الرياضيّة من الصحيفة المدرسيّة - جيك الملاكم، جيك الضخم، جيك رجل الجبال... لا يمكن أنْ يتخيَّل جيك ميتاً إلّا بقدر ما يستطيع أنْ يتخيَّل نفسه ميتاً، لكنَّ هذا لم يفِده في كفكفة دموعه.

عند حوالي منتصف الليل، مشى عائداً إلى اللسان الخشبيّ، ولكن بدل أنْ يرتقي التلّ إلى الكوخ، استدار وخرج إلى الممشى الخشبيّ

نحو منصّة القفز. واستمرَّ في السير على طول الممشى إلى أنْ بدأ الضوء المُعتِم يُضيء البحيرة، وتذكَّرَ أنّه تحت مثل هذا الضوء كان شخص ميتٌ آخر حبيب وعزيز، هو جدُّه، يشرب الشاي الساخن من كأس من الزجاج – شاي يمزجه بجرعة من الشنابس في الشتاء – قبل أنْ ينطلق ليشتري الغلّة اليوميّة من سوق شارع ملبيري. وعندما تُغلقُ المدرسة أبوابها كان بَكي يُرافقه أحياناً.

كان لا يزال يُكافح لكي يتحكَّم في نفسه ويعود إلى الكوخ قبل أنْ يستيقظ أحد، عندما تبدأ العصافير في الغابة بالتغريد. كان الوقتُ فجراً في معسكر إنديان هيل. وقريباً سوف تُسمع همهمات الأصوات الغضّة تتناهى من الأكواخ ومن ثم يبدأ صراخ السعادة.

مرّة في الأسبوع يتم الاحتفال بليلة هنديّة في معسكرات الفتية ومعسكرات الفتيات، كلٌ على حِدة. وعند الساعة الثامنة، يأتي الفتية كلهم ليتحلّقوا حول نار المعسكر ضمن دائرة واسعة مكشوفة مرتفعة عن سطح البحيرة. وفي مركز الدائرة وَفق حفرة مُحدَّدة بحجارة مُسطّحة. وهناك تُكوَّم قطع الخشب أُفقيّاً وبشكل متقاطِع بأسلوب بناء الكوخ، تتناقص شاقوليّاً بعلوّ حوالي ثلاثة أقدام عن القطعتين الكبيرتين، الثقيلتين عند القاعدة. وكانت نار الخشب تُحاط بحاجز من كتل صغيرة من الحجارة غير مُنتَظَمة الشكل بصورة جميلة. وخلف الحاجز الحجريّ بمقدار ثمانية أقدام أو عشرة، تبدأ دائرة المقاعد. وكانت المقاعد مصنوعة من قطع من كتل الخشب والقواعد من الحجارة، وكانت تمتد بمركز مُتّحد نحو الخارج إلى أنْ يُصبح مجموعها أربعة صفوف، مُقسَّمة إلى ثلاث مجموعات. وتبدأ الغابة على مسافة حوالي عشرين قدماً خلف الصف الأخير من المقاعد. وكان السيد بلومباك يُسمّي ذلك التشكيل حلقة المجلس ويسمّي الاجتماع الأسبوعيّ هناك المجلس الأكبر.

عند حافة حلقة المجلس كانت هناك خيمة هنديّة مخروطيّة، كبيرة

وزخرفتها أكثر دقّة من الخيمة الكائنة عند مدخل المعسكر. تلك كانت خيمة المجلس، المزيّنة عند قمّتها بأشرطة حمراء، وخضراء، وصفراء، وزرقاء وسوداء. وكانت هناك أيضاً سارية طوطميّة، قشرتها الخارجيّة محفور عليها رأس نسر، وتحت ذلك جناح كبير منشور يبرز صلباً من الجانبَين. والألوان السائدة على سارية الطوطم كانت الأسود، والأبيض، والأحمر، وهذان الأخيران هما لونا الحرب في المعسكر. كانت سارية الطوطم ترتفع بعلوّ خمسة عشر قَدَماً ويمكن أنْ يراها كل شخص ينظر من قارب في البحيرة. وإلى الغرب، وعبر البحيرة، حيث تُقيم الفتيات ليلتهم الهنديّة الخاصّة، كانت الشمس قد بدأتْ تغرب، وسوف يعمُّ الظلام مع انتهاء المجلس الأكبر. ولم تكن تُسمَع إلا بضجيج واهن قعقعة المطبخ بعد انتهاء وجبة العشاء، بينما على الجانب المُقابِل من البحيرة كان مشهد دراميّ في السماء المُخطّطة، كتدفّق طويل من الحِمم من اللون البرتقالي المحروق، والقرنفليّ البرّاق والقرمزيّ الدمويّ، يُعلنُ نهاية النهار المتلكّئة. كان غسقٌ صيفيٌّ بلون قوس قزح، بطيء الحركة، يزحفُ فوق معسكر إنديان هيل، كمنحة منتشرة من إله الأفق، إنْ كان هناك إله للشعب الهندي.

وصل الفتية مع مُستشاريهم - وكل منهم يُلقَّب بـ«شجاع» في تلك الأمسية - إلى المجلس الأكبر مرتدين ملابس أُنتجَتْ في مُعظمها من ورشة الحِرف اليدويّة. وكلهم يضعون على رؤوسهم عُصابات ذات خرز، ويرتدون أردية ذات أهداب كانت في الأصل قمصاناً عاديّة، ويضعون كساءً للساق كان في الأصل بناطيل ثُبِّتت عليها أهداب على الدرزة الخارجيّة. وانتعلوا أحذية مُقسّاة بلا كعوب، بعضها فُصِّلَ من الجلد في ورشة الحِرَف وعدد كبير منها كان أحذية رياضيّة عالية كانت مكسوّة عند الكاحل كالأحذية المُقساة بالخرز والأهداب. وكان عدد من الفتية يضعون ريشاً على عُصابات الرأس - ريشاً أُخِذَ من طيور ميّتة عُثِرَ عليها في الغابة - بعضهم يضعون أشرطة على الذراع مع خرز وُضِعَتْ

فوق المِرفق ببضع بوصات، وعديد منهم يحملون مجاذيف قوارب رُسِمَتْ عليها رموز ملوّنة، كالتي على سارية الطوطم، حمراء، وسوداء، وبيضاء. وآخرون يحملون أقواساً استعاروها من كوخ الرماية، يُعلقونها على أكتافهم – أقواس من دون سِهام – وقليل منهم يحملون طبولاً زائفة من جلد العجل المشدود وعصياً للقرع ذات مقابض عليها خرز صنعوها في ورشة الحِرَف اليدويّة. وعديد منهم حملوا بأيديهم خشاخش كانت عبارة عن علب مسحوق خميرة الخبز مُزيّنة فارغة مُلِئتْ بالحصى. والأصغر سناً بينهم استخدموا ملاءات أسرّتهم ليتدثّروا بها كأنها أردية الهنود، وكانت أيضاً تُدفئهم مع انخفاض درجة حرارة المساء.

أعدَّ رداء بَكي الهندي له مُستشار الحِرَف. وكان وجهه، كوجوه الآخرين، جُعِلَ قاتماً بمسحوق الشوكولاتة لكي يبدو كأنه من الهنود الحمر، وكان يضع خطّين مائلين – «شِعار الحرب» – على كل من وجنتيه، أحدهما أسود اللون رُسِمَ بالفحم والآخر أحمر رُسِمَ بأحمر شِفاه. جلسَ بجوار دونالد كابلو ومع باقي فتية الكومانش الذين جلسوا في موقع أبعد على طول صف المقاعِد. وفي كل مكان كان الأولاد يتكلّمون بأصوات مرتفعة ويمزحون إلى أنْ نهضَ اثنان من حاملي طبول جلد العجل عن مقعديهما ومشيا حتى الحجارة التي تُحيط بأخشاب نار المعسكر، وبدآ برصانة، يواجه أحدهما الآخر، يقرعان الطبلين وأخذ حاملو الخشاخش يهزّونها، ولم يلتزم أيٌّ منهم بالإيقاع.

ثم التفتَ الجميع نحو خيمة الهنود. فقد ظهر السيد بلومْباك من ممرّ الباب البيضاويّ الشكل يزيّن الريش رأسه، ريش أبيض برؤوس بنيّة يُحيط برأسه ويهبط إلى الخلف على شكل ذيل حتى ما تحت خصره. وكان رداؤه، وكِساء قدميه، وحتى حذاء المقسين مُزيّنة بدقة بأهداب من الجلد وبأشرطة من شغل الخرز وبخصل طويلة ممّا بدا أنّه أشبه بالشَعر الإنسانيّ لكنّه ربما شَعر امرأة جُلِبَ من محل الأغراض الرخيصة. حمل بإحدى يديه هراوة – همس لي دونالد «إنها هراوة الحرب الخاصة

بالزعيم الأكبر بلومباك» - مُدجّجة بالريش، وحملَ باليد الأخرى غليون السلام، المؤلّف من ساق خشبيّة طويلة تنتهي بوعاء من الغضار ويتدلّى على طول الساق المزيد من الريش.

وقفَ المعسكرون كلهم إلى أنْ شقَّ السيد بلومباك بلا حماس طريقه من خيمة الهنود إلى مركز حلقة المجلس. سكتَ قرع الطبول والخشخشة، وعاد المُعسكرون إلى الجلوس على مقاعدهم.

سلَّم السيد بلومباك هراوة الحرب وغليون السلام لقارعيّ الطبول وعقد ذراعيه بحركة مسرحيّة على صدره، ثم تلفَّتَ حوله مُستعرِضاً كل المُعسكرين الجالسين على حلقة المقاعد. لم يكن مسحوق الكاكاو الذي يكسو وجهه يُغطّي بشكلٍ كامل تفّاحة آدم، ولكن فيما عدا ذلك كان يُشبه بصورة مُذهلة رئيس قبيلة هنديّة حقيقياً. قبل سنين عديدة مضتْ كان يُحيّي الشجعان بالأسلوب الهنديّ - مُستخدماً ذراعه اليُمنى المرفوعة وراحة اليد متجهة إلى الأمام - وكانوا يردّون التحيّة كلهم معاً، وهم يزأرون في وقتٍ واحد «أه!». ولكن تمَّ التخلّي عن تلك التحيّة مع وصول النازيّين إلى المسرح العالميّ، الذين استغلّوا تلك التحيّة لكي تعني «التحيّة لهتلر!»

باشر السيد بلومباك بالقول «عندما نهضَ أول مخلوق متوحش شبيه بالقرد ومشى منتصبَ القامة، وُجِدَ الإنسان! ورمزَ إشعال أول نار معسكر إلى الحدث الأعظم ودلَّ عليه»

التفتَ دونالد إلى بَكي وهمسَ، «إننا نسمع هذا الكلام في كل أسبوع. والأطفال الصِغار لا يفهمون أيَّ شيء. أعتقد أنَّ هذا ليس أسوأ مما يحدث في المدرسة»

تابع السيد بلومباك قائلاً «وعلى مدى ملايين السنين رأى جنسنا البشريّ في هذه النار المُقدَّسة معاني النور، والدفء، والحماية، والتجمُّع الودّيّ، والمجلس، ورمزها»

سكتَ عندما مرَّ هدير محرّك طائرة من فوق المعسكر. وكان ذلك

يحدث حينئذٍ على مدار الساعة. كانت قاعدة للقوات الجويّة قد افتُتِحَتْ مع بداية الحرب على مسافة حوالي سبعين ميلاً إلى الشمال، وكان معسكر إنديان هيل يقع على مسار طيرانها.

قال السيد بلومْباك «إنَّ كامل قداسة الأفكار القديمة، من موقد، وحياة بيتيّة، ومنزل، تتركّز على وهجها، والارتباط بالمنزل نفسه يضعف مع وَهَن نار المنزل. وحدها نار الخشب القديمة المُقدَّسة لها القُدرة على النقر على أوتار الذاكرة البدائيّة وإثارتها. ورفيقك في نار المعسكر يفوز بحبّك، وتجمّعنا بسلام معاً – الاندهاش معاً أمام شمس الصباح، وضياء المساء، والنجوم، والقمر، والعواصِف، والغروب، وظُلمة الليل – ورباطكم هو رباط الاتّحاد الأبديّ، مهما تباعدت عوالمكم»

فكَّ عقد ذراعيه بما عليهما من شراشيب، ومدَّهما نحو المجتمعين، استجاب المُعسكرون بانسجام مع سيل الكلام الطنّان: «إنَّ نار المعسكر هي بؤرة مركز كل أخوَّة بدائيّة. ولن نفشل في استخدام سِحرها»

هنا سرَّعَ الضاربون على الطبول من إيقاع الضرب، وهمس دونالد لبَكي، «ثمة مؤرِّخ هنديّ، اسمه شيءٌ ما سيتون، يعتبره معبوده. وتلك هي كلماته. والسيد بلومْباك يستخدم اللقب الهندي نفسه الذي كان سيتون يحمله: الذئب الأسود. إنّه لا يعتقد أنَّ هذا هراء»

بعد ذلك وقفَ شخصٌ يضعُ قِناع طائر ذي منقار كبير في الصف الأماميّ وتقدَّمَ من النار المُضرمة. أحنى رأسه للسيد بلومباك ومن ثم خاطب المُعسكرين.

«ميتا كولا نيهون–بو أومنيتشييه نيتشوبي»

همس دونالد «إنّه طبيبنا، باري فينبرغ»

تابعَ الطبيب كلامه، مُترجِماً ما قاله باللغة الهنديّة إلى الإنكليزيّة، «ها نحن نفتتح المجلس»

تقدَّم أحد الفتية من الصف الأماميّ حاملاً عدة قطع من الخشب بيده،

إحداها على شكل قوس، وأخرى عصا بطول قَدَم ذات طَرَف حادّ، وعدّة قِطع أصغر حجماً. وضعها على الأرض بالقرب من الطبيب.

قال الطبيب «والآن نُشعِلُ نار المجلس كما يفعل أطفال الغابة، ليس كما يفعل الرجل الأبيض، ولكن - كما يُشعِلُ واكوندا ناره - باحتكاك شجرتين في العاصفة، هكذا تشتعل النار المقدّسة من خشب الغابة»

ركعَ الطبيب، ووقفَ العديد من المُعسكرين يراقبونه وهو يستخدم القوس والعصا ذات الطرف المُدبَّب والقطع الأخرى الصغيرة من الخشب في محاولة لقدح شرارة نار.

همس دونالد لبَكي، «قد يستغرقُ هذا بعض الوقت»

أجابه بَكي همساً «وهل يمكن أنْ ينجح؟»

«الزعيم الذئب الأسود يستطيع أنْ يُنجزه في إحدى وثلاثين ثانية. أما بالنسبة إلى المُعسكرين فالأمر أصعب. وأحياناً يستسلمون ويُنجزون الأمر على طريقة الرجل الأبيض العاجز، بقدح عود ثقاب»

كان بعض المُعسكرين واقفين على مقاعدهم لكي يحظوا بمشاهدة أفضل. وبعد بضع دقائق، تقدَّمَ السيد بلومباك بانحراف من الطبيب وزوّده بعض النصائح بهدوء وهو يومئ بيديه أثناء ذلك.

انتظرَ الجميع عدّة دقائق أُخرى وبعد ذلك بدأ هتاف التشجيع يصدر عن المُعسكرين، أولاً تصاعد الدخان ومن ثم ظهرت شرارة، عندما نُفِخَ فيها أشعلتْ لهباً ضئيلاً بمعيّة إبر صنوبر جافّة وقشور لحاء شجر البتولا. وأشعلت الإبر بدورها الضَرَم عند قاعدة قطع الخشب، فأخذ المعسكرون ينشدون بانسجام «يا نار، يا نار، يا نار، استعري! وأيّها اللهب، أيّها اللهب، أيّها اللهب، تلظّى! أيّها الدخان، أيّها الدخان، أيّها الدخان، تصاعَدْ!»

ثم، على إيقاع قرع الطبلَين الحزين المرتفع ثم الخافت، بدأ الرقص: أدّت قبيلة الموهوك رقصة الأفعى، وأدّت قبيلة السينيكا رقصة غزال الرّنة، وأدّت قبيلة الأونيدا رقصة الكلب، وقبيلة الهوبي رقصة الذُرة،

وقبيلة السيوز رقصة العشب. في إحدى الرقصات قفز الشجعان بنشاط في المكان رافعين أيديهم عالياً في الهواء، وفي أخرى قاموا بالوثب على الطرف المنحني من أقدامهم بقفز ثنائيّ على كل قَدَم، وفي أخرى حملوا أمامهم قرن غزال، مصنوعاً من أغصان شجر معقوفة مربوطة معاً. وأحياناً كانوا يعوون كالذئاب وتارة أخرى ينبحون كالكلاب، وفي الختام، عندما أصبحَ الظلام دامساً ولم يعد هناك غير النار تُضيء حلقة المجلس، انطلقَ عشرون من المعسكرين، كل منهم مُسلَّح بهراوة حرب ويضعُون قلائد من الخرز والمخالب، لاصطياد ميشي-موكْوا، الدب الأكبر، على ضوء النار. كان الميشي-موكْوا يُجسّده أضخم الفتية في المعسكر، جيروم هوخبرغر، الذي كان ينام على الطرف المقابل لبَكي. كان جيروم متلفِّعاً بمعطف فرو قديم لوالدة أحدهم وتدثّر به حتى غطّى رأسه.

زأر جيروم من داخل المعطف «أنا ميشا-موكْوا الذي لا يهابُ شيئاً. أنا وحش الجبال الجبّار، وملك فيافي الغرب كلّه»

كان للصيادين قائد هو أيضاً من كوخ بَكي، اسمه شيلي شرايبر. وعلى وقع قرع الطبول العالي من خلفه وضوء النار الذي يومض منعكساً على وجهه المدهون، قال شيلي، «هؤلاء هم مُحاربيَّ المُختارون. نخرج لصيد ميشي-موكوا، دب الجبال الأكبر، الذي ينتهك حدودنا. سوف نلاحقه حتماً ونذبحه»

هنا بدأ عدد غفير من الأولاد يهتفون «اقتلوه! اقتلوه! اقتلوا ميشي-موكوا!»

أطلقَ الصيّادون صرخة الحرب، وهم يرقصون وكأنّهم دِببة تقفُ على قوائمها الخلفيّة. ثم انطلقوا يقتفون آثار الدب الأكبر بشمّ الأرض بشكلٍ واضح. وعندما وصلوا إليه، نهضَ واقفاً وهو يزأر عالياً، مُثيراً صراخ الرعب من الصِبية الصِغار على المقاعد القريبة.

قال قائد الصيادين، «هوو، ميشي-موكْوا، لقد عثرنا عليك. إذا لم تخرج قبل أنْ أنتهي من العدّ حتى المئة، فسوف أعتبركَ جباناً أينما ذهبت»

فجأة، وثبَ الدبّ عليهم، وبينما المُعسكرون يهتفون فرحاً، تقدَّمَ الصيّادون لضربه بلا رحمة بهراوات الحرب المؤلّفة من قشّ مُلبَّس بالخيش. وعندما تمدَّدَ على الأرض وهو بمعطف الفرو، قام الصيادون بالرقص حول ميشي-موكوا، وكل منهم يغرز بدوره مخلبه الخالي من الحياة ويهتف «هاو! هاو! هاو!» واستمرَّ الهتاف المرح، وازداد ابتهاجهم لانخراطهم بجريمة القتل وبالموت.

بعد ذلك، بدأ اثنان من المُستشارين، واحد ضئيل الحجم والثاني طويل القامة، يُعرفان بلقب الريشة القصيرة والريشة الطويلة، برواية سلسلة من حكايات الحيوانات دفعَت الأولاد الأصغر سناً إلى الصراخ متظاهرين بالرعب، ومن ثم قام السيد بلومباك، بعد أنْ خلعَ غطاء الرأس من الريش ووضعه بجوار غليون السلام وهراوة السلام، بقيادة الفتية لإنشاد أغاني معسكر مألوفة على مدى ما يُقارب عشرين دقيقة، وبذلك أنزلهم إلى الأرض من علياء إثارة لعبة الهنود الحمر. بعد ذلك قال «إليكم أخبار الحرب المهمّة من الأسبوع الفائت. إليكم ما كان يحدث خلف معسكر إنديان هيل. في إيطاليا، عبرَ الجيش البريطانيّ جسر آرنو إلى فلورنسا. وفي المحيط الهادئ، اجتاحت قِوى الصاعقة الأميركيّة جزيرة غوام، وتوجو -»

هتفت مجموعة من الفتية الأكبر سناً، «بوو! بوو، توجو!»

استأنفَ السيد بلومباك كلامه «وتمَّ خلع توجو، رئيس الوزراء الياباني من منصبه كقائد للقوات اليابانيّة. في إنكلترا، تكهّنَ رئيس الوزراء تشرشل -»

«يحيا، تشرشل!»

«- تكهّنَ بأنَّ الحرب ضد ألمانيا قد تنتهي قبل ما كان متوقّعاً. وهنا في شيكاغو، إلينويز، كما أصبح الكثيرون منكم يعلمون الآن، رشّحَ المؤتمر الوطني الديمقراطيّ الرئيس روزفلت لولاية رئاسة رابعة»

هنا نهضَ نصف المُعسكرين واقفين وهتفوا «هوررراي! هوررراي!،

الرئيس روزفلت!» بينما أخذ أحدهم بالضرب على الطبل بعنف وقعقعَ آخر بالخشاخش.

بعد أنْ ساد الهدوء من جديد قال السيد بلومباك «والآن، نتذكّر القوات الأميركيّة التي تقاتل في أوروبا وفي المحيط الهادئ، ونتذكّركم أيها الأولاد كلكم الذين لديكم، مثلي، أقارب في الجيش، وننهي هذا الاجتماع حول نار المعسكر بنشيد «فليبارك الله أمريكا». ونُهديه إلى كل الذين ما وراء البحار هذه الليلة، يُحاربون من أجل بلدنا»

بعد أنْ نهضوا لكي ينشدوا «فليبارك الله أمريكا»، رفع الفتية أذرعهم بأكمامهم المُهدَّبة، ووضع كلٌّ منهم ذراعه على كتف الآخر، ومع تمايُل أحد صفوف المُعسكرين إلى أحد الاتجاهَين وصفوف المُعسكرين الأماميّة تتمايل في الاتجاه الآخر، وينشدون «حتى نلتقي من جديد» وهو النشيد الرسميّ للرفاق الذي تُختتَم به بهدوء كل ليلة هنديّة. وعندما يُنشد في الليلة الهنديّة الأخيرة في الموسِم، ينتهي الأمر بالمعسكرين العائدين إلى أوطانهم بالبكاء.

في تلك الأثناء، لم يبكِ إلّا بَكي وحده بعد سماعه نشيد «فليبارك الله أمريكا» ولذكرى صديق الدراسة العظيم الذي لم ينسه قط منذ أنْ علِمَ بموته وهو يُحارب في فرنسا. لقد بذلَ بَكي أقصى جهده طوال إقامة مراسم الدفن بالالتزام بالدوران حول النار والإصغاء إلى دونالد الواقف إلى جواره يشرح له بهدوء، لكنَّ كل ما كان يفكّر فيه هو موت جيك وحياة جيك، وكل ما كان يمكن أنْ يؤول إليه لو أنّه بقيَ على قيد الحياة. وبينما كان الفتية يُطاردون الدب الأكبر، كان بَكي يتذكّر الاجتماع الجامعيّ على مستوى البلاد في ربيع عام 41 حيث سجّلَ جيك رقماً قياسيّاً ليس في جامعة بانتزر فقط بل في الجامعات الأميركيّة كلها بالرمي على مسافة ستة وخمسين قَدَماً وثلاث بوصات. كيف فعل ذلك، هذا هو السؤال الذي طَرَحَه عليه مراسل صحيفة *نيوارك ستار-ليدجر*. أجابه جيك وهو يغمز بعينه – مع ابتسامة عريضة وهو يلوِّح لبَكي بالجائزة التي يتبوؤها تمثال

صغير من البرونز لرامي الكرة الحديديّة، في وضعية ثابتة للحظة الرميّ – «الأمر بسيط. تُرفَع الكتف إلى أعلى، والمِرفق الأيمن أعلى منها، واليد اليُمنى أعلى الجميع. هذه هي الخطّة. إذا اتّبعتها، فإنّ الرمية تقوم بعملها الصحيح». الأمر سهل. كل شيء بالنسبة إلى جيك كان سهلاً. كان جديراً به حتماً أنْ ينتقل للرمي في الألعاب الأولمبيّة، وكان حتماً سيتزوج من أيلين حالما يعود إلى الوطن، وكان سيحصل على عمل كمُدرِّب في الجامعة... فمع كل تلك الموهبة التي يتحلّى بها، ماذا كان يمكن أنْ يقف في طريقه؟

حول نار المعسكر
وتحت النجوم البرّاقة،
اجتمعنا كرفاق هذه الليلة.
حول الأشجار الهامسة
نصون ذكرياتنا النفيسة.
وهكذا، قبل أنْ نُغمض أعيننا وننام
فليُعاهد كلٌ منا الآخر على أنْ نُحافظ
على صداقاتنا في إنديان هيل في أعماقنا،
إلى أنْ نلتقي من جديد.

بعد إنشاد أغنية الوداع، اجتمعوا أزواجاً وتبعوا مُستشاريهم من المقاعد وحول نار المعسكر المحتضرة، التي تخلّفَ اثنان من المُستشارين الصِغار لكي يُخمداها. وفي طريق عودتهم إلى أكواخهم مع مصابيحهم الوامضة المتلألئة يختفون داخل ظلام الغابة، وكانت أحياناً تتصاعد من الفتية المغادرين هتافات الحرب، وكان يُسمَع من الفتية الصغار الذين لطخوا وجوههم بالسواد، وما زالوا تحت تأثير النار المستعرة، وهم يهتفون بمرح «هاو! هاو! هاو!» وبعضهم ظهروا بوجوه وحوش وهم يُسلّطون أضواء مصابيحهم الساطعة بدءاً من ذقونهم وهم يُكشّرون ويوسّعون عيونهم لكي يُخيف أحدهم الآخر للمرة الأخيرة قبل ختام

الليلة الهنديّة. وعلى مدى ما يُقارب الساعة من الزمن كان يُسمَع ضجيج ضحك الأطفال وقهقهتهم يتردَّد صداه من كوخ إلى كوخ، حتى بعد أنْ نام الجميع، وتغلغلَ عبق دخان الخشب المحترق في أرجاء المعسكر.

بعد مرور ستة أيام لم يُعكِّر صفوها أيّ شيء - كانت أفضل أيام المعسكر حتى ذلك الحين، عمَّ خلالها ضياء شهر تموز الوافر وانتشر في كل مكان، ستة أيام جبليّة رائعة في منتصف فصل الصيف، كلٌّ منها يطوي الآخر - تعثَّر أحدهم واضطربَ في خطوته، كأنَّ كاحله مُقيَّد بالسلاسل، وهو في طريقه إلى مرحاض خيمة كومانش في الساعة الثالثة صباحاً. كان سرير بَكي في نهاية صف يقع مباشرة على الجانب المقابل لجدار المرحاض، وعندما استيقظ سمِعَ ذلك الشخص يتقيّأ. مدَّ يده تحت السرير لكي يتناول نظاراته ونظر على طول الممر بين الأسرّة ليرى مَنْ هو. كان السرير الخالي هو سرير دونالد. نهضَ وقال بهدوء، وشفتاه مُلتصقتان بباب المرحاض، «أنا بَكي. أتحتاج إلى مساعدة؟»

أجابَ دونالد بوهَنْ، «إنه بسبب شيء أكلته. سأكون بخير». ولكن سرعان ما بدأ يتقيّأ من جديد، وانتظر بَكي، وهو بالبيجاما، على حافة سريره، خروج دونالد من المرحاض.

كان غاري وايسبرغ، الذي ينام على سرير مُجاور لسرير بَكي، قد استيقظَ، ولما رأى بَكي يقِظاً، اتّكأ على مِرفقيه وهمس، «ما الأمر؟»

«إنّه دونالد. لديه اضطراب في المعدة. عُدْ إلى نومك»

أخيراً خرجَ دونالد من المرحاض وأمسكه بَكي من مِرفقه بإحدى يديه وأحاطَ بذراعه خصره ليُساعده في العودة إلى سريره. دثّره في السرير وقاس نبضه.

همسَ بَكي «النبض طبيعيّ. كيف تشعر؟»

أجابَ دونالد وهو مُغمَض العينين «إنني مُرهَق. وأرتعش»

عندما وضعَ بَكي يده على جبين دونالد شعرَ بأنها دافئة أكثر مما ينبغي،

«أتريد مني أنْ أصحبك إلى المشفى؟ حمّى ورعشة. ربما يجب أنْ ترى الممرضة»

قال دونالد بصوت واهن «سأكون بخير. أحتاج فقط إلى النوم»

ولكن في الصباح، كان دونالد من فرط الضعف بحيث لم يستطع أنْ ينهض من سريره لكي يُنظّف أسنانه، ومن جديد وضعَ بَكي يده على جبين الفتى وقال «سوف آخذك إلى المشفى»

قال دونالد «إنها الإنفلونزا»، أضاف وحاول أنْ يبتسم، «إنني غارقٌ في البرد. لا أستطيع أنْ أقول إنني لم أتلقَّ تحذيراً»

«لعلَّ السبب هو البرد. لكنَّ حرارتك ما زالت ترتفع ويجب أنْ تكون في المشفى. هل تتألَّم؟ هل يؤلمك شيء؟»

«رأسي»

«ألماً حاداً؟»

«تقريباً»

كان فتية الكوخ كلهم قد ذهبوا لتناول طعام الإفطار من دون دونالد وبَكي. وبدل أنْ يُبدِّد بَكي الوقت في دفع دونالد إلى تغيير ملابسه، دثّره بمبذل الاستحمام فوق بيجامته لكي يسير معه منتعلاً خفّه إلى المشفى الصغير القائم على مقربة من مدخل المعسكر. كان اثنان من الممرضين من إنديان هيل يقومان بالخدمة هناك.

قال بَكي «دعني أساعدك على النهوض»

قال دونالد «أستطيع أنْ أفعل ذلك بنفسي». ولكن عندما أراد أنْ يقف، لم يستطع، وأجفلَ عندما سقط إلى الخلف عائداً إلى السرير.

قال «ساقي»

«أي ساق؟ كلتاهما؟»

«ساقي اليُمنى. كأنّها ميتة»

قال صوت دونالد فجأة مرتعِشاً من الخوف، «لِمَ لا أستطيع أنْ أمشي؟ لِمَ لا أستطيع أنْ أستخدم ساقيّ؟»

قال له بَكي «لا أعلم، لكنَّ الأطباء سوف يعرفون السبب ويجعلونك تقف على قدميك من جديد. انتظر. حافِظ على هدوئك. سوف أستدعي سيارة الإسعاف»

انطلقَ بأسرع ما في وسعه هابطاً التلّ إلى غرفة مكتب السيد بلومباك، قائلاً في نفسه «ألان، وهيربي، وروني، وجيك – أليس هذا كافياً؟ والآن دونالد أيضاً؟»

كان مدير المعسكر في قاعة الطعام يتناول وجبة إفطاره مع المُعسكرين والمُستشارين. أبطأ بَكي خطوته وهو يلج المكان ورأى السيد بلومباك جالساً على مقعده المعتاد على المائدة المركزيّة. وكان صباح ذلك اليوم من النوع الذي يكنّ له المُعسكرون حبّاً خاصاً، حين يُقدِّم فيه الطبّاخ الفطائر المقليّة وتُشمّ رائحة فيض عصير القيقب الحلو يغمر أطباق المُعسكرين. قال بسرعة «سيد بلومباك، هل لي أنْ أتحدّثَ معك على انفراد برهة؟ الأمرّ مُلحّ»

نهضَ السيد بلومباك وخرجا معاً من الباب وسارا بضع خطوات بعيداً عن قاعة الطعام قبل أنْ يقول بَكي، «أعتقد أنَّ دونالد كابلو أُصيبَ بشلل الأطفال. لقد تركته في سريره. وإحدى ساقيه مشلولة. ويشعر بصداع شديد. إنَّ لديه حمّى وقد استيقظ ليلاً وتقيّأ. يُستحسَن أنْ نستدعي الإسعاف»

«كلا، سوف تبثّ سيارة الإسعاف الرعب في الجميع. سوف أنقله إلى المستشفى بسيارتي. أمتأكّدٌ أنتَ من أنّه شلل الأطفال؟»

أجاب «إنَّ ساقه اليُمنى مشلولة. لا يستطيع أنْ يقفَ عليها. ويتنابه الصداع. إنّه منهار. أليست هذه أعراض شلل الأطفال؟»

أسرع بَكي يرتقي التل بينما أحضَر السيد بلومباك سيارته وتبعه ثم أوقفها خارج الكوخ. دثّرَ بَكي دونالد بغطاء، وساعداه هو والسيد بلومباك على النزول عن السرير والخروج إلى الشرفة الخارجيّة التي تطلّ على البحيرة، والاثنان يُمسكان به من كِلا الجانبَين. وفي أثناء فترة غياب

بَكي، كانت ساق دونالد السليمة قد وَهَنَتْ، لذلك أصبحت ساقاه الاثنتان تُجرّان خلفه وهما يحملانه ويهبطان الدَرَج نحو السيارة.

قال السيد بلومباك لبَكي «لا تتحدث مع أحد الآن. لا نريد أنْ نبثّ الرعب في الأولاد. ولا نريد أنْ يُصاب المُستشارون بالرعب. سوف أنقله الآن إلى المستشفى. ومن هناك سوف أتصل بعائلته»

عندما نظر بَكي إلى الفتى وهو مُمدَّد على المقعد الخلفيّ للسيارة وعيناه مُغمضتان وقد بدأ حينئذٍ يتنفّس بصعوبة، تذكَّرَ كيف قام دونالد في الليلة الثانية عند البحيرة بالغطس بثقة أكبر، وبمزيد من السلاسة والتوازن، مما كان قد فعل في المرّة الأولى؛ تذكَّرَ كم كان ضخم الجثّة، وكيف أنَّ بَكي، بعد أنْ أنهى دونالد تدريباته، عمِلَ معه مدة نصف ساعة أخرى على أسلوب غطس البجعة. وتذكّرَ كيف كان أداء دونالد يتحسّن أكثر فأكثر.

ربتَ بَكي على زجاج النافذة ففتحَ دونالد عينيه. قال له بَكي «سوف تُصبح في أحسن حال»، وانطلقَ السيد بلومباك بسيارته. ركضَ بَكي بجوار السيارة، وهو يهتف لدونالد، «سوف نقوم بالغطس من جديد في غضون بضعة أيام»، على الرغم من أنَّ حالة الفتى المتدهورة كانت واضحة بيِّنة والنظرة في عينيه كانت مُخيفة – عينان محمومتان تنظران إلى وجه بَكي، تفتّشان بشكلٍ مسعور عن دواء شامل لا يمكن لأحد أنْ يُزوّده به.

لحسن الحظ كان المعسكرون لا يزالون على مائدة الإفطار، وهرعَ بَكي يرتقي دَرَج الكوخ لكي يُرتِّب سرير دونالد بأفضل طريقة من دون الغطاء الذي كان قد دثّره به. ثم خرجَ إلى الشرفة لينظر إلى البحيرة، حيث كان طاقمه الإداري سيجتمع بعد قليل وليطرح على نفسه السؤال الواضح: مَنْ غيري أنا جَلَبَ شلل الأطفال؟

في الكوخ أخبروا الأولاد بأنَّ دونالد نُقِلَ إلى المستشفى لإصابته بإنفلونزا في المعدة وبأنّه سيمكث هناك إلى أنْ يبرأ. في الحقيقة، لقد أكَّدَ السائل الشوكيّ في المستشفى أنَّ دونالد كابلو مُصاب بشلل الأطفال، وأبلغَ السيد بلومباك والديه بذلك، فانطلقا من منزلهما في هيزلتون إلى

سترودسبرغ. وأمضى بَكي وقته في الواجهة المائيّة يعمل مع المُستشارين، وفي النزول إلى الماء مع الأولاد وعلى لوح الغطس لتصحيح أسلوب غطس الأولاد الأكبر سناً، المولعين بالغطس والمُستعدين ألا يفعلوا أي شيء آخر طوال النهار لو أنَّ الأمر بأيديهم. ثم، بعد انتهاء عمله اليوميّ وعودة المعسكرين إلى أكواخهم، لكي يُبدلوا ملابسهم القذرة استعداداً لتناول وجبة العشاء، خلع نظاراته وارتقى اللوح المرتفع وأمضى نصف ساعة في التركيز على تطبيق أصعب أساليب الغطس التي يعرفها. وبعد أنْ انتهى وخرج من الماء ووضع نظاراته، لم يكن قد تمكّنَ بعد من نسيان ما حدث أو التخلّص من اعتقاده أنّه هو سبب إحداثه. أو نسيان فكرة أنَّ انتشار شلل الأطفال في ملعب مدرسة تشانسلر تسبَّبَ به هو أيضاً. وفي الحال سمع صراخاً حاداً. كان صراخ امرأة في الطابق السُفلي حيثُ تُقيم عائلة مايكلز، مذعورة من احتمال إصابة ابنها بشلل الأطفال وموته. هو وحده لم يسمع فقط الصرخة - لقد كان هو نفسه الصرخة.

استقلّا القارب وانتقلا من جديد إلى الجزيرة في تلك الليلة. لم تكن مارسيا قد سمعتْ حتى ذلك الحين عن مرض دونالد كابلو وقرّر السيد بلومباك أنْ يُخبر المعسكر كلّه بالأمر على مائدة الإفطار في صباح اليوم التالي، وهو برفقة الدكتور هنتلي، طبيب المعسكر من ستروسبرغ، الذي كان يقوم بانتظام بزيارة المعسكر، وكان في المعتاد يُستدعى، مع ممرضي المعسكر، لكي يُعالج حالات لا تزيد عن أمراض جلديّة مثل القوباء الحلقيّة، والحَصَف، والتهاب ملتحمة العين، والتسمُّم بنبات اللبلاب، وفي أسوأ الحالات، بكسر في العِظام. وعلى الرغم من توقّع السيد بلومباك بأنْ يسحب بعض الأهالي أولادهم في الحال من المعسكر، فإنه كان يأمل بمساعدة الدكتور هنتلي في التخفيف من الخوف وتقليص الذعر، وكان في استطاعته أنْ يتصرَّف بطريقة طبيعيّة حتى نهاية الموسِم. وأفضى بهذا الكلام لبَكي لدى عودته من المستشفى وذكَّره بألّا يبوح بأيّ شيء وبأنْ

يترك أمر الإعلان عن الأمر له. وساءتْ حالة دونالد. أصبحت عضلاته تؤلمه بشدّة ومفاصله أيضاً وأصبحَ من المُحتَمَل أنْ يحتاج إلى تركيب رئة معدنيّة لتساعده على التنفُّس. ووصل أبواه، لكنَّ دونالد حينئذٍ كان قد عُزِلَ، وبسبب خطر العدوى، لم يُسمَح لهما برؤيته. وشرح الأطباء للسيد بلومباك السرعة التي تطوّرت بها الأعراض الشبيهة بالإنفلونزا وتحوّلتْ إلى المرض الذي يُشكِّلُ خطراً شديداً على الحياة.

سردَ بَكي هذا كلّه على مارسيا حالما وصلا الجزيرة.

شهقَتْ بعد سماعها ما قال. كانت جالسة على الغطاء وضمّت وجهها بين يديها. وطفقَ بَكي يتمشّى حول البقعة المكشوفة، غير قادر على إبلاغها ما تبقّى. كان صعباً عليها أنْ تسمع ما آل إليه وضع دونالد من دون أنْ تسمع بعد ذلك ما آل إليه وضع بَكي.

أول ما نطقت به كان «يجب أنْ أتحدث مع والدي. يجب أنْ أتصّل به هاتفياً»

«لِمَ لا نترك أمر إبلاغ المعسكر إلى السيد بلومباك؟»

«كان ينبغي أنْ يكون قد أخبر المعسكر الآن. لا يمكن أنْ يتوانى في أمر كهذا!»

«أتعتقدين أنّه ينبغي أنْ يحلّ المعسكر؟»

«هذا ما أودّ أنْ أسأل والدي عنه. هذا أمر فظيع. وماذا عن باقي الأولاد الذين في كوخك؟»

«يبدون بخير حتى الآن»

سألتْ «وأنت؟»

قال «أنا بخير. ينبغي أنْ أخبرك بأنني أمضيتُ جلستي تدريب على شاطئ البحيرة مع دونالد قبل بضعة أيام. كنتُ أساعده في أداء الغوص. كان في أتمّ صحّة»

«ومتى كان هذا؟»

«قبل حوالي أسبوع. بعد وجبة العشاء. جعلته يغطس في البرد. ربما كان ذلك خطأً. خطأً جسيماً»

«أوه، بَكي، هذا ليس خطأك. كل ما في الأمر أنّه شيء مُريع. إنني خائفة عليك. وخائفة على أُختيّ. وخائفة على كل طفل في المعسكر. أنا خائفة على نفسي. إنَّ الإصابة الواحدة لا تبقى حالة واحدة داخل معسكر ممتلئ بأطفال يعيشون معاً. الأمر أشبه بقدح عود ثقاب في خشبٍ جافّ»

بقيتْ جالسة واستأنفَ هو المسير. كان يخشى الاقتراب منها لأنه كان يخشى أنْ يُصيبها بالعدوى، إنْ لم يكن قد أصابها فعلاً. إذا لم يكن قد نقل العدوى إلى الجميع! إلى الصغار على شاطئ البحيرة! وإلى طاقمه على شاطئ البحيرة! إلى التوأم، اللتين كان يُقبّلهما في كل ليلة في قاعة الطعام! وعندما نزع نظارته، وسط توتّره ذاك، لكي يعرك عينيه بعصبيّة، بدتْ أشجار البتولا التي تكتنفهما من كل جانب تحت ضوء القمر أشبه بعدد هائل من الظلال المشوّهة – أصبحت جزيرة العشّاق فجأة مسكونة بأشباح ضحايا شلل الأطفال.

قالت مارسيا «يجب أنْ نعود. يجب أنْ أتصل بوالدي»

«لقد وعدتُ السيد بلومباك بأنني لن أُخبر أحداً»

«لا يهمني هذا. أنا مسؤولة عن أختيّ، على الأقلّ. ويجب أنْ أُبلغ والدي بما حدث وأسأله عمّا ينبغي فعله. أنا خائفة، يا بَكي. أنا شديدة الخوف. دائماً يبدو كأنَّ شلل الأطفال لن يُلاحظ أنَّ هناك أطفالاً في هذه الغابة – وأنّه لا يستطيع أنْ يعثر عليهم هنا. لقد ظننتُ أنهم لو مكثوا في المعسكر ولم يذهبوا إلى أي مكان سيكونون في أمان. كيف يمكنه أنْ يتصيّدهم وهم *هنا*؟»

لم يقوَ على إخبارها. كانت من فرط الرعب فلم يتمكن من إبلاغها. وكان هو من شدَّة الاضطراب بسبب فداحة الأمر كله بحيث لم يُبلّغها فداحة ما حصل؛ فداحة ما فعله هو.

نهضَتْ مارسيا عن الغطاء وقامت بطيّه، وجرّا القارب إلى المياه وانطلقا إلى المعسكر. بوصولهما إلى مسطبة الرسوّ كانت الساعة قد اقتربت من العاشرة. كان المُستشارون يقظين في أكواخهم يسهرون على إيواء المعسكرين إلى أسرَّتهم. وكانت غرفة مكتب السيد بلومباك لا تزال مُضاءة، ولكن فيما عدا ذلك كان المعسكر مُقفراً. لم يكن هناك طابور ينتظر لاستخدام الهاتف المأجور، على الرغم من أنّه سيكون هناك طابور في الغد، حالما يأتي أحدهم على ذِكر دونالد والمنعَطَف الذي اتخذته الحياة في المعسكر.

أغلقَتْ مارسيا باب كشك الهاتف القابل للطيّ لكيلا يتمكّن أحد قريب من سماعها، ووقفَ بَكي بجوار الكشك، مُحاولاً أنْ يستشفّ من ردود أفعالها ما يقوله الدكتور ستاينبرغ. كان صوت مارسيا مكتوماً، بحيث إن كل ما سمع وهو واقف خارج الكشك كان طنين الحشرات وهمهمتها، أعاد تفكيره إلى تلك الأمسية القريبة بصورة خانقة في نيوارك عندما جلس في الشرفة الخلفيّة مع الدكتور ستاينبرغ وأكلا ثمار الخوخ اللذيذة الرائعة.

خفَّفَ سماعها صوت والدها من الطرف المقابل من الهاتف من حزنها، وبعد مُضيّ بضع دقائق فقط انخفضَتْ وجلست على كرسي الكشك الصغير وتحدثتْ معه من هناك. وكان من المُفترَض أنْ يكون بَكي قد ذهبَ إلى سترودسبرغ مع كارل في ظهيرة ذلك اليوم ليشتري لها خاتم الخطبة. والآن نُسيَ أمر الخطبة. لم يعد يشغل بال ماريا غير شلل الأطفال، كما بقيَ باله منشغلاً طوال فصل الصيف. لم يكن هناك مفرّ من ذلك المرض، ليس لأنه لحقَ به إلى جبال بوكونو بل لأنه حمله معه إلى جبال بوكونو. وسألتْ مارسيا، هل لحقَ المرض بنا حتى هنا؟ عبر عدوى الوافد الجديد، حبيبها! وعندما تذكّرَ كل أولئك الأولاد الذين أُصيبوا بالمرض خلال فترة عمله في أوائل الصيف في مدرسة تشانسلر، وتذكّرَ الشجار الذي نشبَ على أرض الملعب بعد ظهيرة اليوم الذي توجّبَ فيه منع كيني بلمنفيلد من الاعتداء

على هوراس، أدركَ بَكي أنّه ليس ذلك الأبله هو الذي كان ينبغي على كيني أنْ يقتله لنشره مرض شلل الأطفال – بل مُدير الملعب.

فتحتْ مارسيا الباب وخرجت من الكشك. ومهما كان ما أخبرها والدها به فإنه أنزل عليها السكينة، وقالت، وهي تضمّ بَكي بين ذراعيها، «لقد انتابني فزعٌ شديد على أُختيّ. أنا أعلم أنّكَ سوف تكون على ما يُرام، أنت قويّ ولائق بدنيّاً، لكنّ قلقاً شديداً انتابني على تينك الفتاتين»

سألها، متكلّماً وهو يُدير رأسه جانباً لكيلا تهبّ أنفاسه على وجهها، «ماذا قال والدك؟»

«قال إنّه سوف يتصل ببيل بلومباك وإنه يبدو أنّه يقوم بكل ما يمكن القيام به هناك. يقول إنّه لا يمكن إخلاء مئتين وخمسين طفلاً بسبب ظهور حالة شلل أطفال واحدة. يقول يجب أنْ يستمر الأطفال في أداء نشاطاتهم الاعتياديّة. ويقول إنّه يعتقد أنَّ الكثير من الأهالي سوف يُصابون بالذعر ويُخرِجون أولادهم، وإنّه مع ذلك لا ينبغي أنْ أشعر بالرعب أو أبثّ الرعب في الفتيات. وسألني عنك. فقلتُ إنكَ صامد. أوه، بَكي، إنني أشعر بتحسُّن. سوف يصعد هو وأمي في نهاية هذا الأسبوع إلى هنا بدل أنْ يهبطوا إلى الشاطئ. يريدان أنْ يُطمئنا الفتيات بنفسيهما»

قال، «عظيم»، وكأنه يُمسكها بإحكام، كان راغباً في تقبيل شَعرها وليس شفتيها عندما افترقا لقضاء الليل، وكأنّما بذلك يمكن تغيير أي شيء.

* * *

في صباح اليوم التالي، ومع انتهاء وجبة الإفطار، قرعَ السيد بلومباك ناقوس الأبقار الذي يسبق رنينه دائماً إدلاءه بإعلان للمعسكر. هدأ ضجيج المعسكرين عندما نهضَ واقفاً. قال، بصوت متوازن، من دون أنْ يشوب نبرتَه أيُّ شيء يدل على الرعب، «أسعدتم صباحاً، أيّها الفتيان والفتيات. لديّ رسالة خطيرة أسردها عليكم هذا الصباح، تتعلّق بصحة أحد المُستشارين عندنا. إنّه دونالد كابلو من خيمة كومانش. لقد أُصيبَ

دونالد بالمرض قبل ليلتين وفي صباح الأمس استيقظَ وهو يُعاني من حمّى عالية. وقد أسرع السيد كانتور بإبلاغي عن حالة دونالد، وتقرَّر نقله إلى مستشفى سترودسبرغ. وهناك، أُجريَتْ له الفحوصات وباتَ من المؤكَّد أنَّ عدوى مرض شلل الأطفال قد انتقلتْ إليه. ووصل والداه إلى المستشفى لكي يُلازماه. وقام طاقم المستشفى بمعالجته والعناية به. وقد أحضرتُ الدكتور هنتلي، طبيب المعسكر، إلى هنا، وهو يريد أنْ يقول لكم كلمتين»

طبعاً، أُصيبَ المستشارون والمعسكرون بالذهول لعِلمهم أنَّ كلّ شيء في المعسكر قد تغيَّر – أنَّ كلّ شيء في *الحياة* قد تغيَّر – وانتظروا في صمت سماع ما لدى الطبيب ليخبرهم به. كان رجلاً في منتصف العمر ذا سلوك لا غُبار عليه وأصبحَ طبيب المعسكر منذ بدايته. كان ذا أسلوب لطيف، مُطمئن، دعمته نظاراته الخالية من الإطار وشَعره الأبيض الخفيف ووجهه العادي والشاحب. كان يرتدي ملابس تختلف عن أي ملابس أخرى في المعسكر، بذلة، وقميصاً أبيضَ، ويضعُ ربطة عنق، وينتعل حذاءً قاتم اللون.

«أسعدتم صباحاً. إلى الذين لا يعرفونني مُسبقاً، أنا الدكتور هنتلي. أنا أعلم أنّه إذا ما شعر أيٌّ منكم بالمرض، فإنّه يُخبر مُستشاره فيقوم المستشار بإعداد لقاء له مع الآنسة رودكو أو الآنسة ساوثوورث، ممرّضتي المعسكر، وإذا لزم الأمر، للّقاء معي. حسن، أريد أنْ أُشجّعكم على الاستمرار على المسار نفسه خلال الأيام والأسابيع القادمة. إذا ظهرتْ أيّة علامة على المرض، أسرعوا بإبلاغ مُستشاركم، كما تفعلون دائماً. وإذا شعرتم بالتهاب الحلق، وشعرتم بتيبُّس العنق، إذا شعرتم باضطراب في البطن، بلّغوا مُستشاركم. إذا عانيتم الصداع، إذا اعتقدتم أنّكم مُصابون بحمّى، بلّغوا مُستشاركم. إذا شعرتم بأنكم لستم على ما يرام عموماً، بلّغوا مُستشاركم. وسوف يقوم مستشاركم بنقلكم إلى الممرضة، التي ستعتني بكم وتتواصل معي. لأنني أريد منكم جميعاً أنْ

تكونوا بخير لكي تستمتعوا بما تبقّى من أسابيع الصيف»

بعد أنْ انتهى من إلقاء كلمته المُهدِّئة، جلسَ الدكتور هنتلي ونهضَ السيد بلومباك واقفاً من جديد. قال «أريد منكم أيّها المعسكرون جميعاً أنْ تعلموا أنني قبل انتهاء الفترة الصباحيّة سوف أتّصل هاتفيّاً بعائلاتكم لأخبرهم بهذا التطوّر. وحتى ذلك الحين، أودّ أنْ أجتمع بكبار المُستشارين في غرفة مكتبي بعد انتهاء وجبة الإفطار مباشرة. أما بالنسبة للآخرين، فهذا كل شيء حتى الآن. لم يتغيَّر أيّ شيء في برنامج اليوم. النشاطات هي نفسها. اخرجوا إلى الشمس الساطعة وامضوا وقتاً ممتعاً – إنّه يوم جميل آخر»

اندفعتْ مارسيا إلى مكتب السيد بلومباك مع ثلاثة من كبار المُستشارين، وبدل أنْ يهبط بَكي إلى الواجهة المائيّة، وهو ما كان ينوي أنْ يفعله فور مغادرة قاعة الطعام، وجد نفسه يركض ليلحق بالدكتور هنتلي قبل أنْ يستقلّ سيارته المتوقّفة عند سارية العلم، وينطلق عائداً إلى المدينة.

سمع خلفه أحدهم ينادي اسمه، «بَكي! انتظر دقيقة! انتظرنا!». كانتا التوأمين ستاينبرغ، تهرعان للحاق به. «انتظر!»

«يجب أنْ أقابل الدكتور هنتلي، أيتها الفتاتان»

قالت واحدة من التوأم، وهي تقبض على يده «بَكي، ماذا يجب أنْ *نفعل*؟»

«كما سمعتما السيد بلومباك يقول. استمرّا في القيام بنشاطاتكما»

«ولكن شلل الأطفال-!». عندما حاولتا أنْ تُمسكا به من خصره وتستكينا على صدره العريض لتطمئنا، تراجع مبتعداً على الفور خشية أنْ تنتقل أنفاسه إلى وجهي التوأم المتطابقتين المذعورتين.

قال «لا تقلقا بشأن المرض. لا داعي للقلق. شيلا، فيليس، يجب أنْ أُسرع – الأمر غاية في الأهميّة»، وتركهما هناك من دون أنْ يُطمئنهما، منكمشتين معاً.

هتفَتْ إحداهما خلفه «لكننا في حاجة إليك! إنَّ السيد بلومباك مع مارسيا!»

هتفَ مُجيباً «بعد ظهيرة هذا اليوم! أعدكما! أراكما قريباً!»

كان الدكتور قد فتحَ باب سيارته وأوشك على ولوجها عندما وصل بَكي إليه. «دكتور هنتلي، يجب أنْ أتحدث معك. أنا مدير الواجهة المائيّة في معسكر الفتية. اسمي بَكي كانتور»

«نعم، لقد أتى بيل بلومباك على ذِكرك»

«دكتور هنتلي، يجب أنْ أخبرك شيئاً. لقد أتيتُ من نيوارك قبل أسبوع في يوم جمعة. كنتُ أعملُ هناك في ملعب في الحيّ اليهوديّ، حيث انتشر وباء شلل الأطفال. كنتُ ودونالد كابلو نتدرّب معاً على الواجهة المائيّة بعد انتهاء وجبة العشاء على مدى ليلتين. وكنا نتناول طعام الغداء معاً في كل يوم. وكان كل منا يمرّ بالآخر في الكوخ. وفي الليلة الهنديّة جلستُ إلى جواره. وها هو الآن أُصيبَ بشلل الأطفال. دكتور، هل أنا الذي نقلَ إليه المرض؟ هل سأنقله إلى الآخرين؟ أهذا ممكن؟»

حينئذٍ كان الدكتور هنتلي قد خرج من السيارة، لكي يسمع بصورة أفضل الكلمات العصبيّة الموجَّهة إليه من ذلك الشاب الحيويّ المظهر بصورة مِثاليّة. سألَ «كيف تشعر؟»

«أنا بخير»

«حسنٌ، من المُستبعَد أنْ تكون أنتَ، ذو الصحّة التامة، حاملاً للعدوى. وعلى الرغم من أنَّ هذا قد يحدث، فإنه سوف يكون حالة شاذة جداً؛ فمن غير المعتاد أنْ تتزامن مرحلة حامل العدوى مع الحالة السريريّة»، ثم أضاف الطبيب «ولكن لكي نطمئنك، لكي نتيقّن مائة بالمئة، يجب أنْ نُبقيك عندنا لنسحب عيّنة من السائل الشوكي ونفحصها. إنَّ بعض التغيّرات التي تطرأ على السائل الشوكي قد تُشير إلى إصابة بشلل الأطفال. ويجب أنْ نفعل هذا على الفور، في هذا الصباح، لكي نُطمئنك. يمكنكَ أنْ تأتي معي إلى المستشفى، ثم

نستدعي كارل لكي يُعيدك إلى هنا»

هرع بَكي هابطاً إلى الواجهة المائيّة يُخبر الهيئة الإداريّة أنّه سوف يذهب خلال الفترة الصباحيّة لكي يُعيِّن كبار المُستشارين لتولي الأمور حتى يعود، ومن ثم قابل الدكتور هنتلي، الذي كان في انتظاره في سيارته لكي يذهبا إلى سترودسبرغ. ليت الفحص يُبيِّن أنّه ليس الشخص المسؤول عن نقل المرض! ليته يُبرهن على أنّه ليس الملوم! ثم، بعد أنْ ينتهي إجراء الفحص في المستشفى ويتمّ التأكُّد من أنّه على ما يرام، يمكنه أنْ يتوقف عند محل بيع مجوهرات في سترودسبرغ في طريق العودة ويشتري خاتم خطبته لمارسيا. وأملَ في أنْ يتمكّن من تحمُّل تكاليف واحد بفصّ أصلي من الأحجار الكريمة.

في وقتٍ لاحقٍ من ذلك اليوم، بدأت السيارات تتوافد لكي تنقل المُعسكرين إلى منازلهم. واستمرت بالتوافُد حتى وقت متأخِّر من المساء وحتى اليوم التالي، بحيث إنّه في غضون ثمانٍ وأربعين ساعة من إعلان السيد بلومباك أمام أفراد المعسكر أنَّ أحد المستشارين قد أُصيبَ بشلل الأطفال، كان أكثر من مئة من أصل مئتين وخمسين من أفراد المعسكر قد أخذهم أهاليهم. وفي اليوم التالي، أثبتَ الفحص أنَّ اثنين من فتية كوخ بَكي - أحدهما هو جيروم هوتشبرغر، الفتى الضخم ذو المعطف الفرو وقام بدور الدب في الليلة الهنديّة - قد أُصيب بشلل الأطفال وفي الحال تمَّ إغلاق المعسكر بأكمله. وأُصيب تسعة آخرون من أفراد المعسكر بالمرض ونُقلوا إلى المستشفى حال وصولهم إلى منازلهم، ومن بينهم أخت مارسيا، شيلا.



-3-

التئام الشمل

بعد ذلك لم نشاهد السيد كانتور في الحيّ. فقد وصلت نتيجة تحليل السائل الشوكي الذي أُجريَ في مستشفى سترودسبرغ إيجابيّة، وعلى الرغم من أنّه لم تظهر عليه أيّة أعراض خلال حوالي ثمانٍ وأربعين ساعة التي تلتْ، فإنه أسرعَ إلى جناح العدوى حيثُ مُنعَتْ عنه الزيارات كلّها. وأخيراً بدأ التغيُّر العنيف – الصداع المريع، والإرهاق المُهلِك، والغثيان الحادّ، والحمّى العنيفة، وآلام العضلات التي لا تُحتَمَل، تلاها خلال الساعات الثماني والأربعين الشلل. مكثَ هناك ثلاثة أسابيع ومن ثم لم يعد يحتاج إلى القسطرة وإلى الحقنة الشرجيّة، ونقلوه إلى الطابق العُلويّ وبدأت المعالجة بكمّادات من الصوف الشديدة الحرارة التي تُدثَّر بها ذراعاه وساقاه التي أُصيبَا إصابة ابتدائيّة. وخضَعَ لأربع جلسات مُعذِّبة من الكمّادات الحارة في اليوم، كانت تستغرق كلها معاً بين أربع إلى ست ساعات. ولحُسن الحظ لم تُصَب عضلات جهازه التنفّسيّ، ولذلك لم يُضطر إلى تركيب رئة من الحديد تساعده على التنفُّس، وهو الاحتمال الذي كان يُرعبه أكثر من أيّ علاجٍ آخر. وقد ملأه عِلمه أنَّ دونالد كابلو ما زال في المستشفى نفسه، لا يُبقيه على قيد الحياة إلّا تلك الرئة الحديديّة، ملأه بالرعب وبالدموع. دونالد الغوّاص، دونالد رامي القرص، دونالد الذي كان سيُصبح ربّاناً في سلاح البحريّة والطيران، أصبحتْ رئتاه وأطرافه خالية من القوة!

أخيراً نُقِلَ السيد كانتور بسيارة الإسعاف إلى مؤسسة الأخت كيني في فيلادلفيا، وهناك، في ذلك الوقت من فصل الصيف، لم يكن الوباء أقلّ خطراً ممّا كان عليه في نيوارك وكانت أجنحة المستشفى مزدحمة إلى درجة أنّه كان محظوظاً لأنه حظيَ بسرير شاغر. وهناك استمرّتْ جلسات الكمّادات الحارّة، بالإضافة إلى شدّ العضلات المُصابة المؤلِم في ذراعيه وساقيه وظَهره – التي شوّهها الشلل – من أجل «إعادة تأهيلها». وأمضى الأشهر الأربعة عشر التالية في مركز إعادة التأهيل في مؤسّسة كيني، واستعاد بالتدريج قُدرة ذراعه اليُمنى التامة على استخدامها والقُدرة الجزئيّة لساقيه، على الرغم من أنّ الجزء السُفليّ من عموده الفقري بقيَ مُشوّهاً وكان تصحيحه سيستغرق عدّة سنوات لاحقة بإجراء عمليّة التحام وتطعيم العِظام وإقحام قضبان معدنيّة تصلها بالعمود الفقري. والتعافي من العملية الجراحيّة استلزم وضْعه على ظهره داخل قالب بحجم جسمه على مدى ستة أشهر، ورعايته على مدار النهار والليل على يديّ جدَّته. وعندما توفيَ الرئيس روزفلت فجأة، في شهر نيسان عام 1945، كان هو في مؤسسة كيني، وساد الحزن البلاد كلّها. وكان هناك أيضاً عندما استسلمتْ ألمانيا المنهزمة في شهر أيار، وعندما أُسقِطَت القنبلتان النوويّتان على مدينتي هيروشيما وناغازاكي في شهر آب، وعندما طُلِبَ من اليابان أنْ تستسلم للحلفاء بعد ذلك ببضعة أيام. وانتهت الحرب العالمية الثانية، وعاد صديقه ديف إلى الوطن سالماً من القتال في أوروبا، وسادت البهجة أمريكا، وكان لا يزال في المستشفى، مُشوَّهاً ومبتوراً.

في مؤسسة كيني كان أحد القِلّة التي لم تكن طريحة الفراش. بعد مُضيّ بضعة أسابيع، وُضِعَ على كرسيّ متحرّك وكان يستخدمه عندما عاد إلى نيوارك. وهناك استمرّ في تلقّي العلاج كمريض خارجيّ، وفي الوقت المُحدَّد، استعاد عمل عضلاتِ ساقه اليُمنى كلّها. وكانت الفواتير المُترتّب عليه تسديدها تبلغ أرقاماً فَلَكيّة، آلافاً وآلافاً من الدولارات، لكنَّ مؤسّسة كيني قامت بتسديد قيمتها مع مؤسسة مسيرة القرش.

لم يرجع إلى تدريس مادة الصحّة البدنيّة في مدرسة تشانسلر أو إلى الإشراف على الملعب، ولا حقَّقَ حُلمَه في التدريب في سباقات المضمار والميدان في القِطاع اليهوديّ. وترك مجال التعليم كلّه، وبعد بدايتين فاشلتين – ككاتب أولاً في محل بقالة في جادّة أفون كان ذات يوم ملكاً لجدّه ومن ثم، نتيجة عجزه عن العثور على أي عمل آخر، كعامل في محطة بنزين في جادّة سبرينغفيلد، حيث كان يختلف تماماً عن العمّال الفظّين هناك وكان الزبائن يُطلقون عليه لقب «الأعرج» – تقدَّم لامتحان الخدمة العامة. ولأنه نال درجة عالية وكان خريج جامعة، عثر على عمل مكتبيّ في مكتب البريد في قلب المدينة وهكذا تمكَّنَ من إعالة نفسه وجدّته براتبه الحكوميّ.

التقيته مُصادفةً في عام 1971، بعد تخرّجي في مدرسة الهندسة وإنشاء مكتبي في مبنى يقع على زاوية منحرفة من مكتب بريد نيوارك الرئيس على الطرف المقابل للشارع بسنين عديدة. وربما مرَّ أحدنا بالآخر مائة مرّة قبل أنْ أتعرَّفَ عليه أخيراً.

كنتُ أحد صِبية ملعب جادّة تشانسلر الذين أُصيبوا بشلل الأطفال، في صيف عام 1944، والتزمتُ بالجلوس على كرسيّ متحرِّك طوال عام قبل أنْ تسمح لي مدة إعادة تأهيل طويلة بالتحرُّك على عكّاز وعصا، وبساقَين مدعومتَين بمقوِّم، وما زلتُ أفعل ذلك حتى يومي هذا. وقبل حوالي عشر سنين، بعد انتهاء خدمتي كمُبتدئ في شركة هندسيّة في المدينة، باشرت العمل في شركة مع مهندس ميكانيكي كان قد أُصيبَ، مثلي، بشلل الأطفال وأنا طفل. وافتتحنا شركة استشارة وتعاقُد متخصِّصة في التعديل الهندسيّ للاستخدام الأسهل للكرسيّ المتحرِّك، وكانت خياراتنا تتراوح بين بناء غُرفٍ إضافيّة في منازل موجودة أصلاً وتركيب قضبان للتمسُّك، وتخفيض علوّ قضبان تعليق الملابس في الخزانة، وتغيير مواقع مفاتيح النور. وصمّمنا وركّبنا دَرَجاً متحرِّكاً ورافعات كَراسيَّ متحركة، ووسّعنا ممرّات الأبواب، وصنعنا حمّامات، وغرف نوم، وأجرينا تعديلات

على المطبخ - أنجزنا كل ما من شأنه أنْ يُطوِّر الحياة لفائدة الأشخاص المُقيَّدين إلى كرسي متحرّك على غرار شريكي. وقد يحتاج المُقيّدون إلى كرسي متحرك إلى إجراء تغييرات على تكوين المنزل يمكن أنْ تكون مُكلِفة، لكنّنا نبذل قُصارى جهدنا للالتزام بتقديراتنا ولإبقاء الأسعار متدنّية. وبالإضافة إلى نوعية عملنا الجيدة، هذا ما يفسِّر بدرجة عالية سبب نجاحنا. أما الباقي فيعود إلى جودة الموقع والتوقيت، وإلى كوننا المؤسسة الوحيدة من نوعها في شمال نيو جيرزي المكتظ بالسكان في وقتٍ بدأ الاهتمام الجادّ يتركَّز على الاحتياجات الفرديّة للمُعاقين.

أحياناً يكون المرء محظوظاً وتارة لا يكون كذلك. وأيّة سيرة حياة هي مُصادفة، والمُصادفة - طغيان الطارئ - التي تبدأ كتصوُّر، هي كل شيء. وأعتقد أنَّ السيد كانتور كان يقصد المُصادفة عندما كان يشجب الله.

ما زال لدى السيد كانتور ذراع يُسرى ذاوية ويد يُسرى خاملة، والضرر الذي نال عضلات ربلة الساق اليُسرى تسبّبتْ في ميل في مشيته. وكانت الساق قد بدأتْ تزداد ضعفاً خلال السنوات الأخيرة، كلتا عضلتيها السفلى والعليا، وكان العَرَج أيضاً قد بدأ يُصبح مؤلِماً جداً للمرَّة الأولى منذ إعادة تأهيله قبل ذلك بحوالي ثلاثين عاماً. ونتيجة لذلك، وإثر فحص الطبيب وبعد زيارتين لورشة المشابك في المستشفى، أخذ يتعوّد على وضع دعامة تقويم للساق كاملة تحت بنطلونه من أجل دعم ساقه اليُسرى. ولم تُخفِّف الكثير من الألم، ولكن مع الاستعانة بعصا ساعدته على التوازن والثبات على قَدَمه. ولكن، إذا استمرت الأوضاع بالتدهور - كما يحدث غالباً خلال السنوات الأخيرة مع الناجين من مرض شلل الأطفال الذين يُعانون مما يُسمّى بأعراض ما بعد شلل الأطفال - كما قال، قد لا يطول الأمر وينتهي به المطاف على كرسيّ متحرِّك.

التقينا عند ظهيرة يومٍ ربيعيّ من عام 1971 في شارع بورد المُكتظّ، عند منتصف المسافة بين المكانين اللذين كنا نعمل فيهما. وكنتُ أنا الذي لمحه، على الرغم من أنّه كان يُنمّي حينئذٍ شارباً للحماية ولم يعُد شَعره،

وهو في سن الخمسين، الذي كان ذات يوم أسود، مقصوصاً على الطريقة العسكريّة، بل يرتفع عالياً على رأسه كالدغل الأبيض - كان الشارب أيضاً أبيض اللون. وطبعاً لم يعد يمشي بتلك الخطوة الرياضيّة، الرشيقة، الواسعة. وكانت المُسطحات الحادة لوجهه مُكدَّسة بالوزن الزائد الذي اكتسبه، وهكذا أصبح بعيداً كلَّ البُعد عن المظهر المُذهل عندما كان الرأس تحت البشرة السمراء يبدو كأنه صُمِّمَ ليحمل أشدّ المواصفات المستقيمة دقّة - عندما كان رأس شابٍ يشمخ بكل وضوح. ذلك الوجه الأصليّ أصبحَ الآن مدفوناً في آخر، في وجه أشدّ بدانة، وهو ما يراه الناس مُستتراً عندما ينظرون بتمعّن إلى أنفسهم المتقدمة في السن في المرآة. لم يعُد هناك أيّ أثر لصاحب العضلات المتينة، لقد ذابت العضلات بينما ازدهر الاكتناز. والآن أصبح مجرّد شخص بدين.

حينئذٍ كنتُ أنا نفسي في التاسعة والثلاثين، قصير القامة وثقيل الوزن، ذا لحية لا أُشبه في أي شيء الطفل الهشّ الذي كان ينمو. وعندما أدركتُ وأنا في الشارع مَنْ يكون، فرحتُ كثيراً وهتفتُ له، «سيد كانتور! سيد كانتور! أنا أرنولد ميشنيكوف، من ملعب تشانسلر. كان ألان مايكلز أعزّ أصدقائنا. كان يجلس بجواري طوال فترة وجودنا في المدرسة». وعلى الرغم من أنني لم أنسَ ألان، فإنني لم أنطق اسمه بصوتٍ مرتفع طوال تلك السنين منذ أنْ توفي، في تلك الحقبة التي بدا خلالها أنَّ أعظم مصادر التهديد قاطبة كانت الحرب، والقنبلة النووية ومرض شلل الأطفال.

بعد لقائنا العاطفيّ الأول في الشارع، بدأنا نتناول الطعام معاً مرة في الأسبوع في مطعم صغير قريب، وهكذا سمعتُ قصّته. واتّضحَ أنني أول شخص يحكي له حكايته كاملة، من بدايتها وحتى النهاية، ومن دون أنْ يقتطع منها ما يستحق الذِكر - مُفضياً إليّ بتفاصيل حميمة كل أسبوع. وبذلتُ أقصى جهدي لأُصغي بانتباه ولأستوعب كل ما قال بينما هو يبحث عن الكلمات المناسِبة ليُعبِّر بها عن كل ما احتفظ به على مدى الردح الأكبر من حياته. لم يكن الإفصاح بتلك الطريقة شيئاً ممتعاً أو

غير ممتع بالنسبة إليه- بل كان دفقاً سرعان ما سوف يخرج عن نطاق سيطرته، ولا كان تخفُّفاً من عبء أو علاجاً بقدر ما كان زيارةً مؤلمة من منفيّ لوطنِهِ الأمّ الذي لا يمكن إصلاحه، لمسقط رأسه الحبيب الذي كان موقع انهياره. ونحن الاثنين لم نكن متقاربَين على أرض الملعب - كنتُ فتى رياضيّاً فقيراً، حييّاً، وهادئاً ورقيق البُنية. ولكن كوني أحد الأولاد الذين كانوا يتسكعون في جادّة تشانسلر خلال ذلك الصيف الرهيب - وأنني كنتُ أقرب أصدقاء الفتى الأثير لديه وأُصيبَ، كما حدث لألان، بشلل الأطفال - جعله صريحاً بصورة بليدة بأسلوب يُعذّب النفس كان أحياناً يُدهشني أنا، المُصغي الذي لم يعرفني قط وأنا بالغ، المُصغي الذي يقوم الآن بحثّ ثقته في نفسه كما كان هو يحثّنا على الثقة في النفس أنا والصِبية الآخرين ونحن أطفال.

في العموم كان يتَّسِم بصِفةِ الفاشل الراسخ وهو يتكلَّم عن كل ما سكتَ عنه على مدى سنين عديدة، فلم يكن فقط مُعاقاً جسديّاً بفعل شلل الأطفال ولكنَّ الإحساس المتواصِل بالخزي أيضاً دمّره معنويّاً. كان النقيض المباشَر لنموذج البلاد المثاليّ الأعظم لضحيّة شلل الأطفال، أي فرانكلين ديلانو روزفلت، لأنَّ المرض قادَ بَكي ليس إلى النصر بل إلى الهزيمة. لقد دمَّرَ الشللُ وكلّ ما نجمَ عنه دماراً لا براء منه ثقتَه في أنّه رجلٌ بكل معنى الكلمة، وانسحب انسحاباً كاملاً من ذلك الجانب من الحياة كلّه. في الغالب اعتبرَ بَكي نفسه خُلّبيّاً من ناحية الجنس - كالخرطوشة الخُلّبيّة - وهو تعريف مُخجِل للذات بالنسبة إلى فتى وصل إلى سن البلوغ في فترة من المُعاناة والكفاح الوطنيّين عندما كان يُتوقَّع من الرجال أنْ يُدافعوا ببسالة عن الوطن والأرض. وعندما أخبرته بأنَّ لديّ زوجة وطفلين، أجابَ بأنّه لم يخطر في باله أبداً أنْ يُقيم علاقة مع إحداهن، ناهيك عن أنْ يتزوج، بعد أنْ أُصيبَ بالشلل. لم يكن يُظهِر ذراعه المشوّهة أبداً وساقه المُعاقة لأي شخص غير الطبيب أو جدّته، عندما كانت لا تزال حيّة. فهي التي كرّسَتْ نفسها للعناية به بعد أنْ غادر مؤسّسة كيني، وهي

التي كانت تستقلّ القطار، على الرغم مما تعاني من آلام في الصدر بعد أنْ اتَّضحَ أنها علائم مشكلات خطيرة في القلب، من نيوارك لتزوره في فيلادلفيا في كل يوم أحد، وبانتظام، وطوال فترة الأشهر الأربعة عشر التي مكثها هناك.

لقد مرّ وقتٌ طويل الآن على وفاتها، لكنّه استمرّ في العيش في شقّتهما الصغيرة الخالية من المصعد في المجمَّع السكني في باركلي بالقرب من أفون، إلى أنْ وجد نفسه وسط أعمال الشغب في نيوارك عام 1967 – التي احترقَ خلالها منزلٌ في الشارع حتى سُوّيَ بالأرض وأُطلِقَتْ عيارات ناريّة من سطح منزل قريب. كان عليه أنْ يرتقي الدَرَج الخارجيّ – دَرَجاً كان في الماضي يرتقيه كل ثلاث دَرَجات دفعة واحدة – وهكذا، في كل الفصول، سواء أكان مُثلجاً أو زلقاً، كان يكدُّ في ارتقائه لكي يمكث في شقّة الطابق الثالث حيث كان حبّ جدّته له ذات يوم غير محدود وحيث يمكن أنْ يتذكَّر بصورة أفضل الصوت الحنون الذي لم يكن قط إلّا حنوناً. وعلى الرغم من أنّه لم يتبقَّ في حياته أي شخص حبيب من الماضي، بل خاصّة لهذا السبب، كان في وسعه – وغالباً ما فعل هذا، لا إرادياً، وهو يرتقي الدَرَج إلى باب شقّته في نهاية يوم العمل – أنْ يستحضِر صورة جليّة لجدّته الراكعة، تكشِطُ درج منزلهما مرّة في الأسبوع بفُرشاة قاسية الشَعر ودلو من الماء كثير الرغوة أو تطبخ لعائلتها الصغيرة على مدفأة الفحم. كان ذلك أقصى ما في مقدرته فعله من أجل اتّكاله العاطفي على النساء.

ولم يعُد قطّ، قطّ، إلى القِطاع اليهوديّ، ولم يقم بزيارة قاعة الألعاب الرياضيّة التي درَّسَ فيها في مدرسة جادّة تشانسلر أو إلى ملعب تشانسلر، منذ أنْ غادر معسكر إنديان هيل في تموز من عام 1944.

سألتُه «ولِمَ لا؟»

«ولماذا أفعل؟ لقد كنتُ السبب الرئيس في انتشار المرض في ملعب تشانسلر. كنتُ حامل مرض شلل الأطفال الأول في الملعب. كنتُ حامل المرض إلى معسكر إنديان هيل»

لقد صدمتني بقوة فكرته عن نفسه في هذا الأمر. ولم يكن هناك أيّ شيء يمكن أنْ يعدّني لتقبُّل قسوته.

«أكنتَ حقاً كذلك؟ ليس هناك ما يُثبتُ ذلك»

قال، «وليس هناك ما يُثبت خِلافَ ذلك»، كما كان يفعل في الغالب خلال أحاديث مائدة الغداء، فإما يُشيح ببصره عن وجهي نحو نقطة غير مرئيّة في المدى البعيد وإما ينظر نحو الأسفل إلى الطعام أو إلى أطباقنا. لم يبد أنّه يريد مني، أو ربما من أي شخص، أنْ يُحدِّق مُدقِّقاً في عينيه.

قلتُ له «لكنكَ أُصِبتَ بشلل الأطفال. أصِبتَ به كبقيّتنا نحن التعساء بشلل الأطفال قبل اختراع اللقاح بأحد عشر عاماً. لقد حقَّقَ الطبّ في القرن العشرين تقدّمه الاستثنائيّ بإيقاع شديد البطء بالنسبة إلينا. اليوم تخلو فصول صيف الأطفال بصورة مدهشة من أي قلق. ورعب شلل الأطفال اختفى تماماً. لم يعد هناك أحد مُعرَّض للأذى كما كنا نحن. ولكن إذا تحدّثنا حصراً عنك، شاءت الظروف أنْ تُصاب بشلل الأطفال بعدوى من دونالد كابلو بدل أنْ تعديه أنتَ به»

«وماذا عن شيلا، إحدى توأمي آل ستاينبرغ – من أين أُصيبَتْ به؟ اسمع، لقد فات الأوان كثيراً على إعادة صياغة هذا كلّه الآن»، والغريب أنّه قال هذا بعد أنْ أعاد تقريباً صياغة كل شيء معي أصلاً. قال «إنَّ ما حدث، قد حدث وانتهى الأمر. وما فعلتُه، فعلتُه وانتهى الأمر. وما لم أعُد أملكه، أعيشُ من دونه»

«ولكن حتى لو كان مُحتَمَلاً أنْ تكون حاملاً للمرض، لَمَا شكَّ أحدٌ بهذا. طبعاً أنتَ لم تعِش كل تلك السنين وأنتَ تُعاقب نفسك، وتحتقر نفسك، على شيء لم ترتكبه. إنّه حُكم قضائي شديد القسوة»

ران صمتٌ برهة، دقَّقَ خلالها في تلك البقعة التي شَغَلَته – بجوار جانب رأسي في مكان ما من المدى البعيد، تلك البقعة التي كانت في الغالب عام 1944.

قال «إنَّ ما عشتُ معه في الغالب طوال كل تلك السنين هو مارسيا ستاينبرغ، إذا أردتَ الحقيقة. لقد تحرّرتُ من العديد من الأشياء، لكنني لم أتمكّن من التحرُّر منها. بعد كل تلك السنين التي تلتْ، ما زالت تمرّ عليّ أوقاتٌ أعتقدُ خلالها أنني أتبيّنها في الشارع»

«كما كانت قبل اثنين وعشرين عاماً؟»

أومأ برأسه إيجاباً، ومن ثم، قال على سبيل الختام «في أيام الآحاد لا أرغب أبداً في التفكير فيها، ومع ذلك هذا ما أفعله في الغالب. وتفشل كل محاولاتي في ألّا أفعل»

إنَّ بعض الأشخاص يغيبون في عالم النسيان حالما تدير ظهرك لهم؛ لم يكن الأمر كذلك مع بَكي ومارسيا. لقد دامت ذكرى مارسيا.

مدَّ يده السليمة إلى جيب سترته وأخرجَ مُغلّفاً وقدّمه إليّ. كان موجّهاً إلى يوجين كانتور في رقم 17 شارع باركلي وعليه ختم بريد سترودسبيرغ في الثاني من تموز، عام 1944.

قال «خُذه، لقد أحضرته إليك لكي تطّلع عليه. تلقّيته عندما كنت في أحد المعسكرات قبل بضعة أيام»

الرسالة التي أخرجتها من المغلّف كانت مكتوبة بخط مائل وواضح على صفيحة صغيرة من ورق القرطاسيّة الأخضر الباهت. تقول:

حبيبي حبيبي حبيبي حبيبي حبيبي
حبيبي حبيبي حبيبي حبيبي حبيبي
حبيبي حبيبي حبيبي حبيبي حبيبي
حبيبي حبيبي حبيبي جبيبي حبيبي

وحتى أسفل الصفحة وبعد ذلك حتى منتصف الصفحة التالية على الجانب الآخر، تكرّرت الكلمة تكراراً متواصلاً، وكلّها مستوية بانتظام

على سطر مستقيم غير مرئيّ. وكانت الرسالة موقّعة فقط بالحرف الأول من الاسم، ميم، حرف كبير، طويل جميل التشكيل ليس فيه تنميق في الاستدارة والجذر، متبوع بـ «(كما في عبارة My Man)»

أعدتُ صفيحة الورق الوحيدة إلى المُغلّف وسلّمته إياه.

«فتاة في الثانية والعشرين من العمر تكتبُ رسالة إلى حبيبها الأول. لا بد أنكَ سعدتَ بتلقّي مثل هذه الرسالة»

«تلقّيتها وأنا في طريق عودتي إلى المنزل من مركز العمل. احتفظتُ بها في جيبي أثناء تناول العشاء. وأخذتها معي إلى السرير. واستغرقتُ في النوم وهي في يدي. ثم أيقظني رنين الهاتف. كانت جدّتي تنام في الجانب المقابل من الرواق. ارتعبتُ... «مَنْ يمكن أنْ يتّصل بنا في مثل هذه الساعة؟»، ذهبتُ إلى المطبخ لأردّ عليه. كانت الساعة هناك تشير إلى عشر دقائق بعد منتصف الليل. كان الاتصال من مارسيا تتكلّم من كشك هاتف يقع خلف مكتب السيد بلومباك. كانت في سرير كوخها، وقد جافاها النوم، فنهضَتْ وارتدتْ ملابسها وخرجتْ تحت جنح الظلام لكي تتّصل بي. أرادتْ أنْ تعرف إنْ كنتُ قد استلمتُ الرسالة. فقلتُ إنني استلمتها. قلتُ إنني حبيبها مائتين وثماني عشرةَ مرّةً على التوالي – وتستطيع أنْ تتيقّن من ذلك. قلتُ إنني حبيبها إلى الأبد. ثم قالتْ لي إنها تريد أنْ تغنّي لحبيبها لكي يسترخي وينام. كنتُ أجلس على طاولة المطبخ بملابسي الداخليّة في الظلام وأتصبب عَرَقاً كخنزير من شدّة الحرارة. كان يوماً خانقاً آخر، ولم تخفّ الحرارة البتّة في منتصف الليل. كانت الأضواء مُطفأة في الشُقق كلها على الطرف المقابل من الشارع. ولا أعتقد أنَّ أحداً كان يقظاً هناك»

«هل غنّتْ لك؟»

«غنّت تهويدة. لم أكنْ أعرفها، لكنّها تهويدة. غنّتها برقّة شديدة، شديدة. فقط تهويدة، لا أكثر، عبر الهاتف. ربما كانت تتذكّرها من عهد الطفولة»

«إذن كانت لديك نقطة ضعف أيضاً أمام صوتها الرقيق»

«كنتُ مذهولاً. مذهولاً بالسعادة الغامرة. كنتُ من شدَّة الذهول حتى أنني همستُ في الهاتف «أحقاً أنتِ رائعة إلى هذا الحدّ؟»... لم أُصدِّق أنَّ لمثل تلك الفتاة وجوداً. كنتُ أوفر الرجال حظاً في العالم. لم يكن هناك ما يمكن أنْ يُعيقني. أتفهمني؟ فمع كل ذلك الحب الذي تُغدق عليّ به، كيف يمكن لأي شيء أنْ يُعيقني؟»

قلت «ثم فقدتَها. كيف فقدتَها؟ هذا ما لم تُخبرني به بعد»

«كلا، لم أخبرك. لم أدَعْ مارسيا تراني. هذا ما حدث. اسمع، لقد تكلَّمتُ بما فيه الكفاية»، ثم انفجر يقول، وقد اضطربَ فجأة بوخز الإحساس بالخزي لأنّه أفضى بما يكنّه من انفعالات، «ما الذي دفعني إلى الكلام بحق الله؟ إنها تلك الرسالة. عثوري على تلك الرسالة. ما كان ينبغي أنْ أذهب للبحث عنها»

دفنَ وجهه المحمرّ في يده السليمة، وهو يضع مرفقه على الطاولة وأطراف أصابعه تدعك جفنيه المُسدلَين. كان قد وصل إلى الجزء الأصعب من القصّة.

سألته «ماذا حدث حتى تُنهي علاقتك بمارسيا؟»

«عندما جاءت إلى المستشفى في سترودسبرغ، بعد أنْ خرجتُ من مرحلة العزل، طلبتُ منهم أنْ يُبعدوها. فتركت لي رسالة قصيرة تُخبرني فيها أنَّ أختها الصُغرى أُصيبَتْ فقط بإصابة معتدلة بالمرض، لم تُسبِّب لها الشلل وبعد ثلاثة أسابيع شُفيَتْ تماماً. ارتحت لعِلمي بذلك، لكنني بقيتُ لا أرغب في استئناف علاقاتي مع أفراد العائلة. وحاولتْ مارسيا للمرة الثانية أنْ تراني عندما نُقِلتُ إلى فيلادلفيا. في تلك المرة قابلتها. ودار بيننا جدال صاخب. لم أكنْ أعلم أنها تكنّ كل ذلك – لم أكن قد رأيتها في حالة غضب صريح من أي شخص. وبعد ذلك، لم تعُد قط. لم نتواصل من جديد. حاول والدها أنْ يتصل بي هاتفياً عندما كنتُ في فيلادلفيا، لكنني لم أُجب على مكالمته. وعندما كنتُ أعمل في محطة

الوقود في جادّة سبرينغفيلد، توقف ذات يوم فجأة ليملأ سيارته بالوقود. وكانت تلك مسافة طويلة يقطعها للحصول على وقود»

«أجاء من أجلها؟ من أجل أنْ يُعيدك إليها؟»

«لا أعلم. ربما. تركتُ شخصاً آخر يستلم المضخّة. واختبأتُ. كنتُ أعلم أنني لستُ نداً للدكتور ستاينبرغ. ولا أعلم ماذا حدث للابنة. ولا أريد أنْ أعلم. وكائناً من كان الذي تزوّجته، أتمنى لهما ولأولادهما السعادة والتمتّع بصحّة تامة. فلنأمل أنْ يُباركهم الرب الرحيم جميعاً قبل أنْ يطعنهم في الظهر»

كان كلاماً قاسياً بصورة آسرة يصدر عن شخصٍ كبَكي كانتور، وبدا في تلك اللحظة مُضطرباً وهو ينطقه.

أخيراً قال «إنها تدين لي بحرّيتها، وأنا وهبتها لها. لم أرغب في أنْ تشعر الفتاة بأنّها مُرتبطة بي. لم أرغب في أنْ أدمّرَ حياتها. إنها لم تعشق رجلاً مُعاقاً، ولا ينبغي أنْ ترتبط برجلٍ مُعاق»

سألته «أليس هذا القرار منوطاً بها؟ إنَّ الرجل المُعاق يتمتّع أحياناً بجاذبيّة شديدة بالنسبة إلى نوع خاص من النساء. أعلمُ هذا من التجربة»

قال بَكي «اسمع، إنَّ مارسيا فتاة عذبة، وساذجة، وحَسَنة التربية، وأبواها مسؤولان، عطوفان، علّماها وأختيها الأدب والالتزام. كانت مُعلِّمة شابة جديدة للصف الأول، قليلة الخبرة؛ ضئيلة الحجم، بل أقصر قامة حتى مني – وكانت لا تزال لا تعلم كيف تخرج من مشكلتها. ولذلك قمتُ بذلك بالنيابة عنها. قمتُ بما ينبغي القيام به»

قلتُ «لقد فكَّرتَ في هذا مُطوّلاً، بل يبدو أنكَ كرّستَ له كل تفكيرك»

ابتسمَ مرّة من المرّات القليلة خلال حديثنا، ابتسامة أقرب شَبَهاً بالتجهُّم، توحي بالضجر أكثر من البهجة الصادقة. كان مُجرّداً من أي أثر للخفّة. كانت مفقودة، كما الغضب والمثابرة اللذان كانا ذات يوم مركز كيانه. وطبعاً، اختفى العامل الرياضيّ تماماً. لم تكن ذراعه وساقه فقط

المشلولتين، بل بدا أنّه تجرَّدَ من الشخصيّة الأصليّة بحدّ ذاتها، من طاقة الهدف المُفعمة بالحيوية التي تهبّ عليك منه حالما تُقابله، انتُزِعَتْ منه مُمزَّقة كقطعة اللحاء الرقيقة التي انتزعَها من شجرة بتولا في أول ليلة اجتمع مع مارسيا في الجزيرة في بحيرة إنديان هيل. كنا نجتمع معاً في يومٍ من الأسبوع على مائدة الغداء على مدى بضعة أشهر ولم يحدث في أيِ مرَّة أنْ أشرقَ، ولا حتى عندما كان يقول «كانت تحبّ تلك الأغنية التي تقول «أراك لاحقاً» – حتى هذه لم أتمكّن من نسيانها. ومع أنها مفرطة في عاطفيتها وسخيفة، يبدو أنني لن أنساها حتى آخر عمري. لا أعلم ماذا سيحدث إذا اضطررتُ إلى سماعها من جديد»

«سوف تصرخ من الانزعاج»

«ربما»

قلت «سوف تكون مُصيباً. إنَّ أي شخص سوف يشعر بالبؤس، إذا تخلّى عن صديقةٍ صدوق كهذه»

قال، بانفعال لم يلجأ إليه قبل ذلك، «آه، يا صديقة الملعب القديمة، لم يخطر في بالي قط أنَّ علاقتي سوف تنتهي معها هكذا. قط»

«عندما غضبتْ منك – عندما جاءتْ لتزورك في فيلادلفيا –»

«لم أرها قط بعد ذلك»

«هذا ما قلته أنت. ولكن ماذا حدث؟»

قال لي إنّه كان جالساً على كرسيّ متحرك في يوم سبت خريفيّ رائع في منتصف شهر تشرين الأول، والجو لا يزال دافئاً بالنسبة إليهما بحيث خرج معها إلى الخلاء وجلستْ هي على مقعد في المرج أمام مؤسسة الأخت كيني، تحت أغصان شجرةٍ استحال لون أوراقها وبدأتْ تسقط، لكنَّ الجو لم يكن دافئاً إلى درجة تمنع وباء شلل الأطفال المُستشري في الولايات الشماليّة الشرقيّة من التبدّد والتلاشي في نهاية المطاف. ولكن بعد ذلك لم يرها بَكي أو يتحدث معها على مدى ما يُقارب ثلاثة

أشهر، لذلك لم تُتَح لها فرصة حينئذٍ لتكتشف مدى إعاقته. كانت بينهما مُراسلات، ليس بين بَكي ومارسيا بل بين بَكي ووالد مارسيا. كان الدكتور ستاينبرغ قد راسل بَكي ليُخبره بأنَّ لديه التزاماً بوجوب السماح لمارسيا بزيارته وتبوح له وجهاً لوجه بما يجول في خاطرها. كتب الدكتور ستاينبرغ يقول «إنَّ مارسيا والعائلة يستحقون منكَ معاملة أفضل من هذه». لم يكن لدى بَكي، مقابل الرسالة المكتوبة بخط اليد على ورق قرطاسيّة المستشفى الشخصيّ من رجلٍ بقامة الدكتور، لم يكن لديه ما يُدافع به عن نفسه، وهكذا تمَّ تحديد تاريخ وزمان زيارة مارسيا، وبدأ الشجار فور وصولها تقريباً، عندما لاحظَ في الحال أنَّ شَعرها قد نما عمّا كان عليه عندما رآها آخر مرَّة، وجعلها تبدو أكثر أنوثة مما كانت عليه في المعسكر وأصبحت الآن أجمل من أي وقت سابق. ترتدي قفّازاً وتعتمر قبعة، كما كانت المعلّمة اللائقة التي عشقها في أول الأمر.

وأعلنَ أنّه ما من شيء تقوله يمكن أنْ يُغيِّر عزمه، مهما بلغتْ رغبته في مدّ يده السليمة ولمس وجهها. وبدل ذلك استخدم يده السليمة ليقبض على ذراعه الخاملة من الرسغ ورفعها إلى مستوى عينيه. قال، «انظري، هكذا أبدو أنا»

لم تُجِب، ولكن أيضاً لم يطرف لها جفن. قال لها، كلا، لم يعُد رجلاً يصلح ليكون زوجاً وأباً، وإنّ اعتقادها غير ذلك هو تصرُّف غير مسؤول منها.

هتفت «تصرّف غير مسؤول مني أنا؟»

«نعم. أنْ تتصرّفي كبطلة نبيلة»

«عمَّ تتحدث؟ أنا لا أحاول أنْ أكون أيّ شيء غير امرأة تحبّك وتريد أنْ تتزوّج منك وتكون زوجة لك»، ثم نفّذَت المناورة التي قامت من دون أدنى شك بالتدرُّب عليها وهي في القطار. قالتْ له «بَكي، إنَّ الأمر ليس مُعقّداً حقاً. أنا لستُ شخصيّة مُعقّدة. ألا تتذكّرني؟ ألا تتذكّر ما قُلتُه لك في الليلة التي سبقَتْ مغادرتي المعسكر في شهر حزيران؟، قلتُ «سوف

نتصرف بشكلٍ مثاليّ». حسنٌ، سوف نفعل. لم يُغيِّر أيّ شيء هذا. إنني مجرّد فتاة عاديّة تسعى إلى السعادة. وأنتَ توفِّر لي السعادة. ولطالما فعلتَ ذلك. فلِمَ ترفض أنْ تفعل هذا الآن؟»

«لأننا لم نعُد في تلك الليلة التي سبقَتْ مغادرتك المعسكر. لأنني لم أعُدْ الرجل الذي أحببتِهِ. أنتِ تُضلّلين نفسك إذا اعتقدتِ أنني كذلك. أنتِ لا تقومين إلّا بما يُمليه عليكِ ضميرك - أنا أتفهّمُ هذا»

«أنتَ لا تفهم أيَّ شيء! إنَّ ما تقوله هراء! أنتَ الذي يُحاول أنْ يبدو نبيلاً برفضك التحدث معي ورفضك أنْ تراني. بطلبكَ مني أنْ أدعك وشأنك. أوه، بَكي، أنتَ أعمى لا ترى شيئاً!»

«مارسيا، تزوّجي رجلاً ليس مبتوراً، وقويّاً، ولائقاً، ويتّصِف بكل مزايا الوالد المأمول. يمكنكِ أنْ تحصلي على مَنْ تشائين، على محام، أو طبيب – على أي رجلٍ ذكيّ ومُثقَّف مثلك. هذا ما تستحقينه أنتِ وعائلتك. وهذا ما ينبغي أنْ تحصلي عليه»

«أنت تُثير غيظي بكلامك هذا! لا شيء أغاظني في حياتي كلها أكثر ممّا تفعله الآن! أنا لم أعرف غيرك يجد متعة فائقة في معاقبة نفسه!»

«ليس هذا ما أفعل. إنكِ تشوّهين بالكامل ما أقول. كل ما في الأمر أنّه تصادفَ أنْ أدركتُ مضامين ما يحدث وأنتِ لم تُدركيها. ولن تُدركيها. أصغي إليّ: لم تعُد الأمور كما كانت عليه قبل فصل الصيف. انظري إليّ. لا يمكن أنْ تختلف الأشياء أكثر من هذا. انظري»

«كفى، أرجوك. لقد رأيتُ ذراعك ولا يهمّني»

قال، وهو يرفع أطراف بيجامته، «إذن انظري إلى ساقي»

«كفى، أتوسّل إليك! أنت تعتقد أنَّ جسمك هو الذي تشوّه، لكنَّ ما تشوّه حقاً هو عقلك!»

«وهذا سببٌ وجيه آخر لتنقذي نفسك مني. إنَّ غالبيّة النساء يُسعدهنّ أنْ يتبرَّع شخصٌ مُعاق بالخروج من حياتهن»

«إذن أنا لستُ من بين تلك الغالبية من النساء! وأنتَ لستَ مُعاقاً! بَكي، لطالما كنتَ كذلك. أنتَ لم تستطع قط أنْ تضع الأشياء في نِصابها الصحيح! أنتَ دائماً تعتبر نفسك مسؤولاً وأنتَ لستَ كذلك. إمّا أنْ يكون الله الفظيع هو المسؤول، أو هو بَكي كانتور الفظيع، في حين أنَّ الحقيقة هي أنَّ المسؤوليّة لا تقع على كاهل أيّ منهما. إنَّ موقفكَ من الله - صبيانيّ، مجرد سُخف محض»

«اسمعي، إنَّ ربَّكِ لا يروق لي، فلا داعي لحشره في الموضوع. لأنني أعتبره شديد الخسّة. إنّه يُبدِّد الكثير من الوقت في قتل الأطفال»

«وهذا هراء أيضاً! إنَّ إصابتك بشلل الأطفال لا تمنحك الحقّ في قول أشياء سخيفة. أنتَ لا تفهم أيّ شيء عن الله! لا أحد يفهم أو يستطيع أنْ يفهم! أنتَ تتصرَّف بعناد كحمار - وأنتَ لستَ حماراً. وتتصرَّف كمجنون - ولستَ بمجنون. ولم تكن يوماً مجنوناً. لقد كنتَ كامل العقل. كنتَ صحيح العقل وقويّاً وذكيّاً. أما هذا! ازدراء حبّي لكَ، وازدراء عائلتي - أنا أرفض أنْ أكون جزءاً من مثل هذا الجنون!»

هنا انهار الإلحاح العنيد، ورفعَت يديها وغطَّتْ وجهها بهما وطفقَتْ تجهشُ بالبكاء. لم يسع المرضى الذين كانوا يرفّهون عن زوّارهم على المقاعد المجاورة أو الذين يُدفَعون على الكراسي المتحرّكة على طول الممشى المُعبَّد أمام المؤسّسة إلّا أنْ يُلاحظوا المرأة الشابة الضئيلة، والجميلة وحَسَنة الهندام، الجالسة بجوار أحد المرضى على كرسي متحرِّك، والتي من الجليّ أنَّ الحزن يغمرها.

قالتْ له من خلال دموعها «إنك تحيّرني تماماً. ليتكَ التحقتَ بالحرب، فربما - أوه، لا أعلم ماذا كان سيحدث لك. ربما كنتَ أصبحتَ جنديّاً وتجاوزتَ هذا كلّه- كائناً ما كان. ألا تصدِّق أنني أحبّك أنت، بشلل أطفال أو من دونه؟ ألا تفهم أنَّ أسوأ عاقبة مُحتَمَلة لكلينا هي أنْ تبتعد عني؟ أنا لا أطيقُ فقدانك - أليس هناك من سبيل لإفهامكَ هذا؟ بَكي، يمكن لحياتك أنْ تكون أسهل بكثير لو أنكَ تدع الأمور تأخذ مسارها

الطبيعيّ؟ كيف أُقنعكَ بأنَّ علينا أنْ نمضي معاً؟ لا تنقذني، إكراماً لله. نفِّذ ما خطّطنا لأجله - تزوّجني!»

لكنّه لم يتزحزح، مهما بكتْ ومهما بدا البكاء مؤثّراً، حتى عليه. قالت «تزوّجني»، ولم يُجِب إلّا بـ«لن أرتكبَ هذا بحقّك»، ولم يسعها إلّا أنْ تُجيب «أنتَ لا ترتكب أيّ شيء في حقّي - أنا المسؤولة عن قراراتي!». ولكن لم يكن هناك ما يمكن أنْ يكسر مقاومته، خاصّة أنَّ فرصته الأخيرة ليكون رجلاً نزيهاً هي أنْ يوفِّر على المرأة الشابة الفاضلة التي يُحبّها أصلاً الزواجَ المتهوِّر من رجلٍ مُعاق إلى الأبد. كان السبيل الوحيد لإنقاذ ما تبقّى من شرفه هو حرمانَ نفسه من كل ما أراده لنفسه - فإنْ كان ضعيفاً بحيث لا يستطيع فعل غير ذلك، فسوف يتكبّد هزيمته النهائيّة. والأهم من هذا، إنْ لم تكن في سرّها قد ارتاحتْ أصلاً لرفضِهِ إيّاها، إنْ كانت لا تزال تحت ضغط زخم حبّها البريء ذاك - وأيضاً تحت ضغط زخم والد متزمِّتٍ أخلاقيّاً - بحيث لا ترى الحقيقة بوضوح بنفسها، فسوف يختلف شعورها عندما تُصبح لديها عائلة ومنزل خاصّان بها، مع أطفال سعداء وزوج يتمتّع بصحة تامّة. نعم، سوف يأتي يوم، في المستقبل القريب، تجد فيه نفسها ممتنّة لبَكي لأنّه رفضها بلا رحمة - وتعترف بأنَّ الحياة التي منحها إيّاها بغيابه عنها أفضل بكثير.

بعد أنْ أنهى رواية قصّة لقائه الأخير مع مارسيا، سألتُه، «كم من المرارة سبّبَ لك هذا؟»

«لقد قتل اللهُ أمي وهي تضع مولودها. ومنحني الله أباً لصّاً. وفي أواخر عشرينيات عمري، بلاني الله بشلل أطفال نقلتُه أنا بدوري على الأقلّ إلى حفنة من الأطفال، وربما أكثر - بمَنْ فيهم أخت مارسيا، وأنتَ، في الغالب. وبمَنْ فيهم دونالد كابلو، الذي مات وهو يضع رئة من حديد في مستشفى سترودسبرغ في شهر آب من عام 1944. فكم من المرارة سبّبَ لي هذا؟ أخبرني أنت». شدّدَ على هذا بسخرية، بالنبرة نفسها التي أعلنَ بها أنَّ الله سوف يخون مارسيا ويطعنها هي أيضاً في الظَهر.

أجبتُ «ليس عملي أنْ أعثر على خطأ في أيِ حامل لمرض شلل الأطفال، شاباً كان أم عجوزاً، لا يستطيع أنْ يتغلّب بشكل كامل على آلام عجز لن ينتهي أبداً. طبعاً هناك التفكير الكئيب في دوامها. ولكن في الوقت المناسب يجب أنْ يكون هناك أكثر من هذا. أنتَ تتكلّم عن الله. أما زلتَ تؤمن بهذا الله الذي تحطّ من قَدره؟»

«نعم. يجب أنْ يشغل أحدهم هذه المكانة»

قلتُ «الله المجرم الأكبر. ولكن إنْ كان الله هو المجرم، فلا يمكن أنْ تكون أنت أيضاً المجرم»

قال بَكي بإبهام «حسن، إنه لغز طبّي. وأنا لغزٌ طبّي»، فهل كان يعني ربما أنّه لغز لاهوتيّ؟ هل كانت هذه نسخته العامة عن المبدأ الغنوسطيّ[1]، يكتمل بقوة شريرة؟ أم هو الإلهي بوصفِه مُعادٍ لوجودنا هنا؟ ويجب الاعتراف بأنَّ البرهان الذي استنبطه من تجربته لا يُستهان به. وحده جنّيّ يستطيع أنْ يخترع شلل الأطفال. وحده جنّيّ يمكنه أنْ يخترع هوراس. وحده جنّيّ يمكنه أنْ يخترع الحرب العالمية الثانية. زيادة على هذا كلّه أنَّ الجنّيّ دائماً يفوز. إنَّ الجنّيّ كلّي الوجود. ومفهوم بَكي عن الله، كما اعتقدتُ أنني فهمته، هو أنّه كليّ الوجود طبيعته وهدفه لم يُستنبطا من دليلٍ توراتيّ مُبهَم بل من برهان تاريخيّ لا ريب فيه، خلال مدة زمنيّة طويلة مرّتْ على هذا الكوكب في وسط القرن العشرين. كان مفهومه عن الله هو أنّه كليّ الوجود يمثّل اتحاداً ليس بين ثلاثة أشخاص في إله واحد، كما في المسيحيّة، بل بين شخصين - فاشل مريض وعبقريّ شرير.

بالنسبة إلى عقلي المُلحِد، كان افتراضُ مثل هذا الإله لا يقلّ سُخفاً حتماً عن الإيمان بالآلهة التي تدعم مليارات أخرى من الناس؛ أما بالنسبة إلى تمرُّد بَكي على الله، فقد صدمني سُخفه لأنه ببساطة لا حاجة إلى ذلك التمرُّد. لم يستطع أنْ يقبل كون انتشار وباء شلل الأطفال بين أطفال

1- المبدأ الغنوسطي: هو الاعتقاد بأنَّ المادة شرّ وأنَّ الخلاص يتمّ عن طريق المعرفة الروحيّة - المترجم

القِطاع اليهوديّ وأطفال معسكر إنديان هيل مأساةً. عليه أنْ يحوِّل المأساة إلى إحساس بالذنب. عليه أنْ يجد ضرورة لِما يحدث. ثمة وباء ينتشر وهو يحتاج إلى العثور على سبب له. يجب أنْ يتساءل لماذا. لماذا؟ لماذا؟ لن يكفيه كون ذلك الوباء عبثيّاً، ومُعدياً، وشنيعاً ومأساويّاً. ولن يكفيه كونه فيروساً متكاثراً. وبدل ذلك أخذ، هذا الشهيد، هذا المهووس بمعرفة السبب، يبحث بيأس عن سببٍ أعمق، فلا يجد الجواب إلّا في الله أو في نفسه أو، بصورة مُبهمة، غامضة، في اجتماعهما المريع معاً بوصفهما العنصر المُدمِّر الوحيد. يجب أنْ أقول إنّه مهما بلغ مقدار تعاطفي مع تراكم الأحزان التي ابتليَت بها حياته، فإنَّ هذا ليس أكثر من عجرفة حمقاء، ليست عجرفة الإرادة أو الشهوة بل عجرفة التأويل الدينيّ الصِبيانيّ والأحمق. لقد سمعنا هذا كلّه من قبل وقد سمعنا حتى الآن ما يكفي منه، حتى من شخص راقٍ بعمق كبَكي كانتور.

سألني «وأنتَ، يا آرني؟ ألا تنطوي على مرارة؟»

قلتُ «لقد أُصِبتُ بالمرض وأنا لا أزال طفلاً. كنتُ في الثانية عشرة، في حوالي نصف عمرك. ومكثتُ في المستشفى ما يُقارب العام. كنتُ الأكبر سنّاً في الجناح، مُحاطاً بأطفال صِغار يصرخون ويبكون يريدون عائلاتهم - كان أولئك الأطفال يبكون ليلاً ونهاراً وعبثاً طالبين وجهاً يعرفونه. لم يكونوا وحدهم في شعورهم بأنهم منبوذون. كان هناك الكثير من الخوف واليأس، والكثير من الإحساس بالمرارة يتنامى مع عكّازَين. وعلى امتداد سنين عديدة كنتُ أستلقي على السرير ليلاً أتحدّث مع أطرافي، أهمسُ «تحرّكي! تحرّكي!». فاتني عام دراسي في المرحلة الابتدائيّة، لذلك عندما رجعتُ، كنتُ قد خسرتُ صفّي ورفاق صفّي. وفي المدرسة الثانويّة مررتُ ببعض الظروف الصعبة. كانت الفتيات يُشفقن عليّ والفتيان يتجنّبونني. كنتُ دائماً أجلس مكتئباً في الخطوط الجانبيّة. كانت الحياة على الخطوط الجانبيّة مُخصّصة للمراهقين الممتلئين بالألم. أردتُ أنْ أمشي كأي إنسان عاديّ. وعندما كنتُ أراقب

السليمين، إثر خروجهم من المدرسة بعد انتهاء اللعب بالكرة، أرغبُ في الصراخ «أنا أيضاً لي الحق في أنْ أركض!». كان دائماً يُمزّقني التفكير في أنّه كان يمكن أنْ تكون هناك وسيلة أخرى. لم أرغب لبعض الوقت في الذهاب إلى المدرسة - لم أرغب في أنْ أتذكّر طوال النهار كيف يبدو الذين في مثل سنّي وماذا في وسعهم أنْ يفعلوا. ما أردته هو أقلّ شيء في العالم: أنْ أكون كأي شخص آخر»، ثم قلت له «أنتَ تعلم كيف هو الوضع. لم أعُد كما كنتُ في الماضي. سوف أبقى هكذا حتى آخر حياتي. لن أعرف البهجة بعد الآن»

أومأ بَكي برأسه إيجاباً. إنَّ الذي كان ذات يوم، لفترة وجيزة، يقفُ على قمة اللوح المرتفع في معسكر إنديان هيل، شاعراً بسعادة غامرة - الذي أصغى إلى مارسيا ستاينبرغ تغني له تهويدة عبر مكالمة هاتفيّة خارجية في الحرّ الملتهب لذاك الصيف القاتل لكي ينام - فهمَ بسهولةٍ شديدة عمّا كنتُ أتحدث.

حينئذٍ أخبرته عن رفيق دراستي الذي انتقلتُ للإقامة معه في سنتي الثانية الجامعيّة. قلت: «عندما انتسبتُ إلى كليّة روتغرز جعلوني أُقيم مع ضحية شلل أطفال يهودي آخر في مهجع المُبتدئين. هكذا كان نوح يجمع بين الطلاب في تلك الأيام. كان وضع ذلك الشاب الجسديّ أسوأ بكثير من وضعي. كان مُشوَّهاً بصورة غريبة. اسمه بوميرانتز؛ كان طالباً لامعاً يدرس بمنحة دراسيّة، وهو الذي ألقى خطبة الوداع عند التخرُّج في المرحلة الثانويّة، وكان عبقريّاً قبل دراسة الطب، ولم أطق الإقامة معه. كان يدفعني إلى الجنون. لا يسكت أبداً. ولا يستطيع أنْ يكبح نهمه المُرهِق للكلام عن بوميرانتز قبل أنْ يُصاب بشلل الأطفال. لم يكن يستطيع أنْ يغفل ولو ليوم واحد عن الجور الذي نزل به. واستمر كالغول في الكلام عنه بلا توقف. فيقول لي: أولاً تتعلّم نوعيّة الحياة التي يعيشها المُعاق. هذه هي المرحلة الأولى، وعندما تبرأ من المرض، تقوم بفعل أي شيء لتجنُّب الخمول الروحيّ. وهذه هي المرحلة الثانية. بعد ذلك، تكافح لكيلا تقضي

عليك الأزمة ولكن لا يتبقّى لك غير محنتك. ثم، إذا كنتَ محظوظاً، وبعد خمسمئة مرحلة لاحقة، أحياناً وأنت في سبعينيات عمرك، تجد أنكَ أصبحتَ قادراً على أنْ تقول مع بعض الحقيقة: حسن، لقد نجحتُ أخيراً، لم أسمح للحياة كلّها بالتسرُّب مني – وذلك عندما يحين أوان موتك. وقد أبلى بوميرانتز بلاءً حسناً في الجامعة، وانتقل بسهولة إلى كليّة الطب، ومن ثم مات هو – انتحرَ خلال سنته الدراسيّة الأولى»

قال لي بَكي «لا أستطيع أنْ أقول إنَّ هذه الفكرة لم تخطر على بالي ذات مرّة»

قلت «أنا أيضاً فكّرتُ فيها، لكنني لم أكن في حالة الاضطراب التي كان عليها بوميرانتز. ومن ثم جاءني الحظّ، حظٌّ وافر: ففي السنة الجامعيّة الأخيرة قابلتُ زوجتي. وشيئاً فشيئاً لم يعُد شلل الأطفال هو المأساة الوحيدة، ولم أعُد محكوماً بقَدَري. علِمتُ ذلك وأنا هناك في القِطاع اليهوديّ في عام 1944 وعشته من خلال مأساة اجتماعية دامت طوال فصل الصيف لم تتحول إلى مأساة شخصية تدوم طوال العمر. كانت زوجتي مخلوقاً رقيقاً، ورفيقتي الضاحكة طوال ثمانية عشر عاماً. كانت تعني لي الكثير. وعندما تُصبح أباً لأطفال، تبدأ بنسيان اليد التي كنتَ تستخدمها»

«أنا واثق من صحة هذا الكلام. تبدو رجلاً راضياً»

سألته «أينَ تقيم الآن؟»

«انتقلتُ إلى شمال نيوارك، بالقرب من متنزّه برانش بروك. كان أثاث منزل جدَّتي قديماً جداً ومتزعزعاً حتى أنني لم أحتفظ به. وخرجت في صباح ذات يوم سبت واشتريتُ كل شيء جديداً، السرير، والأريكة، والكراسي، والمصابيح. أصبحَ لديّ منزل مريح»

«ماذا تفعل للاختلاط بالناس؟»

«إنني لستُ اجتماعيّاً، يا آرني. أشاهد السينما. وأذهب إلى مطعم

أيرونباوند في أيام الأحد لأتناول وجبة برتغاليّة لذيذة. إنني أستمتع بالجلوس في المتنزّه عندما يكون الجوّ جميلاً. وأشاهد التلفاز. أشاهد نشرات الأخبار»

تخيّلته يقوم بكل تلك الأعمال وحده ويُحاول في أيام الأحد، كعاشق ولهان، ألّا يشتاق بقوة لمارسيا ستاينبرغ أو أنْ يتخيّل خلال الأسبوع أنه شاهدها، وهي في سن الثانية والعشرين، تمشي في أحد شوارع المدينة. وعندما يتذكّر المرء ذلك الشاب الذي كان عليه، يتوقّع أنْ يتمتّع بالقُدرة على الكفاح لبلوغ مرحلة أفضل من هذه. ومن ثم تخيّلتُ نفسي من دون عائلتي، وتساءلتُ إنْ كنتُ سأتصرّف بصورة أفضل منه أو حتى مثله. مشاهدة السينما والعمل وتناول وجبة عشاء يوم الأحد خارج المنزل – فبدا الأمر لي كئيباً بصورة شنيعة.

«هل تشاهد مباريات رياضيّة؟»

هزَّ رأسه بشدّة سلباً كأنني سألتُ طفلاً إنْ كان يعبث بعيدان الثقاب.

قلتُ «أتفهّم هذا. عندما كان أطفالي صِغاراً جداً ولا أستطيع أنْ ألعبَ معهم في الفناء، وعندما أصبحوا أكبر في السن وتعلّمتُ ركوب الدراجة ولم أتمكّن من ركوبها معهم، حصلَ معي الشيء نفسه. تحاول أنْ تكبتَ مشاعركَ لكنَّ الأمر ليس سهلاً»

«إنني حتى لا أقرأ الصفحات الرياضيّة في الصحيفة. لا أريد أنْ أراها»

«ألم ترَ صديقك ديف بعد أنْ عاد من الحرب؟»

«لقد حصل على عمل في هيئة إنغلوود المدرسيّة. أخذ زوجته وأولاده وانتقلَ إلى هناك. كلا، لم أره»، ثم لزم الصمت، وكان جليّاً جداً أنّه على الرغم من ادّعائه المتّزن أنّ ما لا يملكه يستطيع الاستغناء عنه، وهو لم يعوِّد نفسه على خسارة الكثير، وأنّه بعد مُضيّ سبعة وعشرين عاماً، ما زال يتساءل حول ما حدثَ وما لم يحدث، ويبذل أقصى جهده لكيلا يفكِّر في أشياء عديدة – من بينها، أنه كان يمكن الآن أنْ يُصبح رئيس البرنامج الرياضيّ في مدرسة القِطاع اليهودي الثانويّة.

أخيراً قال «أردتُ أنْ أساعد الأطفال وأجعلهم أقوياء، وبدل ذلك تسبّبتُ لهم بأذى لا يبرأ». تلك هي الفكرة التي كانت تشغل عقود مُعاناته الصامتة، الرجل الذي كان أقل البشر استحقاقاً للمعاناة. نظرَ إلى تلك اللحظة وكأنّه عاش على هذه الأرض سبعة آلاف عام من الإحساس بالخزي. عندئذٍ أمسكتُ بيده السليمة – يد تعمل عضلاتها بصورة جيدة لكنّها لم تعُد متينة وقويّة، يد خالية من الحزم كقطعة من ثمرة رقيقة – وقلت «إنَّ شلل الأطفال هو الذي تسبّب في أذيتهم، وليس أنت. لا صِلة لك البتّة بانتشاره ولا هوراس أيضاً. أنتَ ضحيّة كأي واحدٍ منا»

«ليس صحيحاً، يا آرني. أتذكّر في إحدى الليالي أنَّ بيل بلومباك أخبر الصِبية عن الهنود، كيف أنَّ الهنود آمنوا أنَّ كياناً شريراً، يُصيبهم بسهمٍ خفيّ، ويتسبّب في إصابتهم بعدد من أمراضهم –»

قلتُ مُحتجّاً «كفى، كفى لا تستمر في هذا الهراء، أرجوك. إنّها قصة تُروى حول نار معسكر، يا بَكي، قصة للأطفال. وربما تحتوي طبيباً دجّالاً يطرد الأرواح الشريرة. أنتَ لستَ المخلوق الشرير الذي يعتقد به الهنود، ولم تكن السهم، اللعنة – لم تكن جالب الإعاقة والموت. ولو كنتَ يوماً مجرماً – إذا لم تكفّ عن إعلان هزيمتك في هذا المجال – أُكرِّر: لم تكن أنتَ الملوم بأي حالٍ من الأحوال»

ثم، وبحماس – وكأنَّ في استطاعتي أنْ أُحدِثَ تغييراً فيه بمجرّد رغبةٍ جامحة في ذلك؛ وكأنني، بعد كل تلك الساعات التي قضيناها في الحديث أثناء تناول الطعام، أستطيع الآن أنْ أجعله يرى نفسه كشيءٍ يتجاوز عيوبه ويبدأ بالتخلُّص من شعوره بالخزيّ؛ وكأنّه قادر على إحياء رُفات مدير ملعب شاب منيع ضد الأذى تفادى العراك، من دون مساعدة أحد، مع عشرة من الإيطاليين الأشرار كانوا ينوون أنْ يُخيفونا بالتهديد بنشر شلل الأطفال بين اليهود – قلت، «لا تقف ضد نفسك. هناك ما يكفي من القسوة في العالم كما هو. لا تزِد الأمور سوءاً بتقديم نفسك كبش فِداء»

ولكن ليس هناك ما هو أقلّ قابليّة على الإنقاذ من فتى طيّب مُحطَّم. لقد بقيَ وحيداً مدّة طالت أكثر مما ينبغي مع إحساسه بالأشياء - ومن دون كل ما أراد أنْ يحصل عليه بشدّة - ولم يعُد في استطاعتي أنْ أتخلّص من تأويله لحدث حياته الرهيب أو أنْ أُبدِّل صِلته به. لم يكن بَكي رجلاً شديد الذكاء - لم يكن في حاجة إلى أنْ يكون كذلك ليُعلِّم الأولاد الألعاب الرياضيّة - وكان دائماً مهموماً. كان دائماً إنساناً جديّاً، وواضح الكلام لكنّه يكاد يخلو من الذكاء، ولم يحدث أنْ تكلَّم مرة في حياته بسخريةٍ أو بتهكُّم، ونادراً ما ألقى نكتة أو مزحة - بدل ذلك كان ممسوساً بإحساس عظيم بالواجب ولكن لم يوهَب مقدرة عقليّة، وقد دفع مقابل ذلك ثمناً باهظاً بعزو أخطر المعاني إلى قصته، معنى، اشتدَّ مع مرور الوقت وضخَّمَ مصيبته بصورة مُهلِكة. والخراب الذي حلَّ بنا معاً على ملعب تشانسلر وعلى معسكر إنديان هيل لم يبدُ له كعبثٍ خبيث من الطبيعة بل جريمة عُظمى ارتكبها هو نفسه، كلّفته كل ما كان يمتلكه في الماضي ودمّرتْ حياته. والشعور بالذنب عند شخصٍ مثل بَكي قد يبدو سخيفاً ولكن، في الحقيقة، لا يمكن تفاديه. مثل هذا الشخص مُدان. لا يقوم بأي عمل يتطابق مع مَثَله الأعلى. لم يعرف قط أين تنتهي مسؤوليته. وهو لا يثِق في حدود قُدراته لأنه وهو مُثقل بطيبةٍ فِطريّةٍ صارمة لن تسمح له بترويضِ نفسه على تحمُّل آلام الآخرين، لن يعترف من دون إحساس بالذنب بأنَّ لقُدراته حدوداً. والانتصار الأعظم لهذا النوع من الأشخاص يكمن في أنْ يوفِّر على مَنْ يُحب حصولها على زوج مُعاق، وتكمن بطولته في نكران أعمق رغباته بالتخلّي عن تلك الحبيبة.

ولكن لو لم يهرب من تحدّي الملعب، ربما لو لم يتخلَّ عن أطفال تشانسلر قبل أنْ تُغلق بلديّة المدينة الملعب ببضعة أيام وتُعيدهم كلهم إلى منازلهم - وربما، أيضاً، لو لم يمُتْ أعزُّ أصدقائه في الحرب - لما أسرعَ بوضع اللوم على نفسه لحلول تلك الجائحة ولما أصبح أحد الذين حطّمهم زمنه. ربما لو أنّه أطال مكوثه وصمد في وجه اختبار شلل

الأطفال الجماعيّ ليهود القِطاع، وراقبَ الوباء برجولة، بغضّ النظر عمّا كان يمكن أنْ يحدث له، حتى نهايته...

أو ربما كان توصّل إلى النظر إليه على طريقته أينما كان، وربما كان على صواب في ذلك، حسب عِلمي – وحسب ما يقول عِلم الأوبئة. ربما لم يكن بَكي مُخطئاً. ربما لم يُضلِّله عدم ثقته في نفسه. ربما لم يُبالِغ في إصراره ولم يصل إلى النتيجة الخاطئة. ربما كان هو فعلاً السهم الخفيّ.

ومع ذلك، كان بالنسبة إلينا نحن الصِبية جميعاً، وهو في سن الثالثة والعشرين، يمثّل أشدّ ما عرفنا من سلطات احتراماً ونموذجيّة، كان شاباً صاحب قناعات، هادئاً، عطوفاً، نزيهاً، عاقلاً، متوازناً، رقيقاً، حيويّاً، ذا جسم مُدجّج بالعضلات – رفيقاً وقائداً معاً. وبلغَت شخصيته ذروتها مع قرابة نهاية شهر حزيران، قبل أنْ يستشري وباء عام 1944 ويُسيطر على المدينة بدرجة خطرة – وقبل أنْ تمرّ أجساد وحياة عددٍ كبير منّا بتغييرات متطرفة – عندما سرنا جميعاً خلفه إلى الحقل الواسع والقذر عبر الشارع وهبطنا المنحدر القصير الذي يفصلنا عن الملعب. وهو المكان الذي كان أعضاء فريق كرة القدم في المدرسة يقومون فيه بتدريباتهم وتمارينهم الرياضيّة وحيث كان سيُرينا كيفَ يُرمى الرمح. كان يرتدي بنطلونه الجلديّ، الصقيل المُخصص للركض وقميصه الخالي من الكمّين، وينتعل حذاءً ذا نعل، ويحملُ الرمح ، وهو يقود المجموعة ، بلا ثبات بيده اليُمنى.

عندما هبطنا إلى الحقل كان خالياً، وجمعنا السيد كانتور على الخطوط الجانبيّة في نهاية جادّة تشانسلر، وهناك تركنا نتفحّص الرمح كلٌ بدوره ونختبر وزنه برفعه بأيدينا، العمود المعدنيّ الرفيع الذي يقلّ وزنه قليلاً عن رطلين ويبلغ طوله ثمانية أقدام ونصف القدم. عرضَ علينا الطرق المختلفة لحمله من قبضة الوتر ومن ثم الطريقة التي يُفضّلها. ثم شرحَ لنا شيئاً عن تاريخ الرمح، الذي بدأ في المجتمعات المُبكِّرة، قبل

اختراع القوس والسهم، برمي الرمح بغرض الصيد، واستمرَّ في بلاد الإغريق في الألعاب الأولمبية الأولى في القرن الثامن قبل الميلاد. ويُزعَم أنَّ أول رامي رمح هو هرقل، المُحارب العظيم وقاتل الوحوش الذي، كما قال لنا السيد كانتور، كان الابن العملاق للإله الإغريقيّ الأسمى، زيوس، وأقوى رجال الأرض. وبعد انتهاء المُحاضَرَة، قال إنّه سوف يقوم بالتسخين، ورحنا نراقبه وهو يقوم بتمارين اللدانة على مدى حوالي عشرين دقيقة، وبعض الصِبية الواقفين على الخطوط الجانبيّة يبذلون أقصى جهدهم لمُحاكاة حركاته. قال - في أثناء أدائه حركة الانفساخ الجانبيّة حتى يُلامس الأرض - إنَّ من المهمّ دائماً التدرُّب المُسبق على شدّ عضلات الحوض، المُعرَّضة بسهولة للتوتُّر. استخدمَ الرمح كعصا للتمطّي في العديد من التمارين، فيدور ويلتوي وهو يوازنه كالنير عبر كتفيه ويركع ويُقرفص ويندفع بقوة ومن ثم يقف ويثني جذعه ويُديره. أدّى حركة الوقوف على اليدين وبدأ يمشي ضمن دائرة واسعة على يديه، وجرّب بعض الصِبية تلك الحركة؛ وأبلغنا، وفمه لا يرتفع عن الأرض بأكثر من بضع بوصات، بأنه يقوم بحركة الوقوف على اليدين بدل التدرُّب على القضيب المُستعرض لشدّ الجزء العُلويّ من جسمه. وختمَ بثني جسمه إلى الأمام والجذع إلى الخلف، وفي أثناء ذلك كان يُبقي عقبي قدميه مُثبَّتين على الأرض بينما يندفع إلى أعلى بدءاً بكفليه ويُقوِّس ظهره عالياً بطريقة مُذهلة. وعندما قال إنَّه سوف يقوم بالعدو السريع حول الملعب دورتين، تبعناه، ولم نكد نقدر على اللحاق به بل نتظاهر بأننا نحن الذين نقوم بالتسخين استعداداً لرمي الرمح. ثم قام على مدى بضع دقائق بالتدرّب على الركض على طول مسار وهميّ من دون رمي الرمح، ويكتفي برفعه عالياً، ممدوداً، ومستقيماً.

عندما أصبح مستعداً للبدء، أخبرنا بما ينبغي الانتباه إليه، بادئاً بالركض الابتدائيّ ومن ثم القيام بالخطوة القافزة ومنتهياً بالرمي. ومن دون حمل الرمح بيده قام بالعمليّة كاملة أمامنا بالحركة البطيئة، واصفاً إياها وهو

يؤديها، «إنها سِحر، يا شباب، وليس سهلاً أيضاً. ولكن إذا اجتهدتم في التدرُّب، وبذلتم أقصى ما عندكم وتمرّنتم بإتقان - إذا واظبتم على أداء تمارين التوازن، أولاً، تمارين الانتقال، وثانياً، تمارين اللدانة، وثالثاً - إذا التزمتم ببرنامج تدريب الوزن، وإذا كنتم حقاً مهتمّين برمي الرمح، أضمنُ لكم أن النتيجة سوف تكون جيّدة. إنَ كل شيء في الألعاب الرياضيّة يتطلّب العزم. الثالوث الشهير، العزم، والتفاني، والانضباط، وسوف تنالون ما تريدون»

وكالمعتاد، قال لنا إنّه بعد اتّخاذ الاحتياطات كلها يُمنَع منعاً باتاً أي منا، وسعياً إلى الأمان، الاندفاع إلى الحقل في أي وقت، وإنّ علينا أنْ نراقب كلّ شيء من حيث موقع وقوفنا. وضَّحَ هذه النقطة مرّتين. كان جديّاً أكثر من أي وقت سابق، لأنّ الجديّة هي وسيلة تعبيره عن التزامه بمهمّته.

ومن ثم أطاح بالسهم. كان في الإمكان رؤية عضلاته تنتفخ عندما أطلقه في الهواء. وأخرجَ صيحة بذل المجهود المختنقة (بعد ذلك بقينا نُحاكيها كل يوم)، ضجيجاً يُعبِّر عن جوهره - صرخة القتال الصِرف لتحقيق الامتياز. وفي لحظة تحليق الرمح مُنطلقاً من يده، بدأ يرقص في مكانه لكي يستعيد توازنه ولا يقع خارج خط الفاول الذي حفره على التراب بقطعة نعل حذائه. وطوال الوقت كان يُراقب الرمح وهو يشق طريق مساره على شكل قوس مرتفع، انسيابيّ، فوق الحقل. لم يكنْ أيٌّ منا قد شاهد قبل ذلك عملاً رياضيّاً بمثل ذلك الجمال يُنفَّذ أمام أعيننا. وانطلقَ الرمح، انطلقَ أبعد من حدود الحقل، وهبوطاً إلى الجانب القصيّ من خط الثلاثين من جانب الخصم، وعندما هبط واستقرَّ، اهتزَّت قَصَبَة الرمح وانغرز الطرف المعدني المُدبَّب منه بحِدَّة في الأرض بفعل قوة زخم التحليق.

أطلقنا صيحة الإعجاب وبدأنا نقفز في مكاننا. إنَّ انطلاق الرمح نشأ من عضلات السيد كانتور اللدنة. كان يمتلك جسم - قدمي، وساقي، وكفلي، وجذع، وذراعي، وكتفي، وحتى ضخامة عنق- ثور، وأجزاء

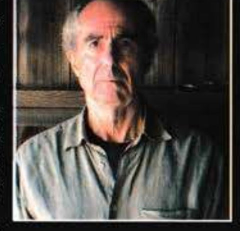
جسمه التي عملتْ معاً زادتْ من قوة الرمية. وكأنَّ مدير ملعبنا قد تحوّلَ إلى رجل بدائيّ، يصطاد ليأكل على سهولٍ عَلَفَ عليها الحيوانات البريّة وروَّضها بقوة يده. لم يسبق أنْ شعرنا بمثل تلك الرهبة من أي شخص آخر. ومن خلاله خرجنا نحن الصِبية من قصة الحيّ القصيرة وولجنا الملحمة التاريخيّة لجنسنا العريق.

رمى الرمح مرّاتٍ عِدَّة في ذلك اليوم، وكل رمية كانت سلسة وقويّة، كل رمية مصحوبة بذلك المزيج الهادر من الصياح والزمجرة، وكل رمية تستقر، أمام أعيننا، أبعد من سابقتها بمسافة عدّة ياردات على أرض الحقل. كان يركض مع الرمح وهو يُحلِّق، مادّاً ذراعه الرامية خلف جسمه، يُطلِق الذراع لكي تُحرِّر الرمح عالياً فوق كتفيه - ثم يُحرِّره كالقذيفة - لقد بدا لنا لا يُقهَر.



المحتويات

ظهرت أول حالة إصابة بشلل الأطفال في صيف ذلك العام باكراً في أوائل شهر حزيران، بعد حلول يوم الذكرى، في حيٍّ إيطاليٍّ فقيرٍ يقع على الطرف المقابل من البلدة حيث كنا نعيش. في الزاوية الجنوبيّة الغربيّة من المدينة، في القِطاع اليهوديّ المنفصل، لم نسمع أيّ شيء عنها، ولم نسمع أيّ شيء عن الإصابات العديدة المنفردة التي ظهرت في أرجاء نيوارك في كل الأحياء تقريباً ما عدا حيّنا. ولكن بحلول الرابع من شهر تموز، عندما سُجِّلَتْ أربعون حالة إصابة في المدينة، ظهرتْ مقالة على الصفحة الرئيسة من صحيفة المساء، تحت عنوان «وزير الصحّة يُحذِّر الآباء من مرض شلل الأطفال»، وفيها وردَ أنّ الدكتور وليم كيتل، مدير الهيئة الطبّية، يُحذِّر الآباء بوجوب مراقبة أطفالهم وبالاتصال بالطبيب إذا ما ظهرت على أطفالهم أعراض الصداع، التهاب الحلق، الغثيان، تيبُّس العنق، آلام المفاصل، أو الحمّى. وعلى الرغم من أنّ الدكتور كيتل اعترفَ بأنّ أربعين حالة إصابة بشلل الأطفال هي أكثر من ضعف ما يُبلَّغ عنه في المعتاد في مثل هذه الفترة المبكّرة من موسم مرض شلل الأطفال، فإنه أراد أنْ يكون مفهوماً بكل وضوح أنّ المدينة التي تعداد سكّانها ٤٢٩٫٠٠٠ نسمة لا تعاني البتّة ممّا يمكن وصفه بوباء شلل الأطفال. وفي هذا الصيف كما في كل صيف، هناك سبب للقلق ولاتخاذ الاحتياطات الصحيّة المناسبة، ولكن حتى الآن لم يحدث ما يستدعي انتشار ما يُشبه الفزع الذي أبداه الآباء، «وبصورة مُبرَّرة جداً»، قبل ذلك بثمانية وعشرين عاماً، خلال أعظم تفشٍّ للمرض سُجِّلَ قاطبة - وباء شلل الأطفال في عام ١٩١٦ في الجزء الشمالي الشرقي من الولايات المتحدة، حيث سُجِّلَتْ أكثر من ٢٧٠٠٠ حالة إصابة، و ٦٠٠٠ حالة وفاة. وفي نيوارك سُجِّلَتْ ١٣٦٠ إصابة و ٣٦٣ حالة وفاة.



والآن، حتى في عام سُجِّلَ فيه رقم عاديّ من الحالات، وخُفِّضَتْ فُرَص العدوى بشلل الأطفال كثيراً عمّا كانت عليه في عام ١٩١٦، فإنّ مَرَضاً شالاً يترك الصغار عاجزين ومُشوّهين أو غير قادرين على التنفس من دون أنبوبة جهاز تنفس معدنيّة تُعرَف باسم الرئة الحديديّة - أو يمكن أنْ ينتقل من شلل عضلات الجهاز التنفسي إلى الموت - سبَّبَ للآباء في حيّنا خوفاً هائلاً وعكَّرَ صفو الأطفال الذين تحرَّروا من المدرسة خلال أشهر الصيف وبات في استطاعتهم أنْ يلعبوا خارج المنزل طوال النهار وحتى الأمسيات التي تصبغها حُمرة الشفق.